رودولف كريستوف أُويْكِنْ



معنى الحياة وقيمتها

ترجمهُ عن الألمانيّة: محمد المهذبي



Der Sinn und Wert des Lebens

Rudolf Christoph Eucken

معنى الحياة وقيمتها

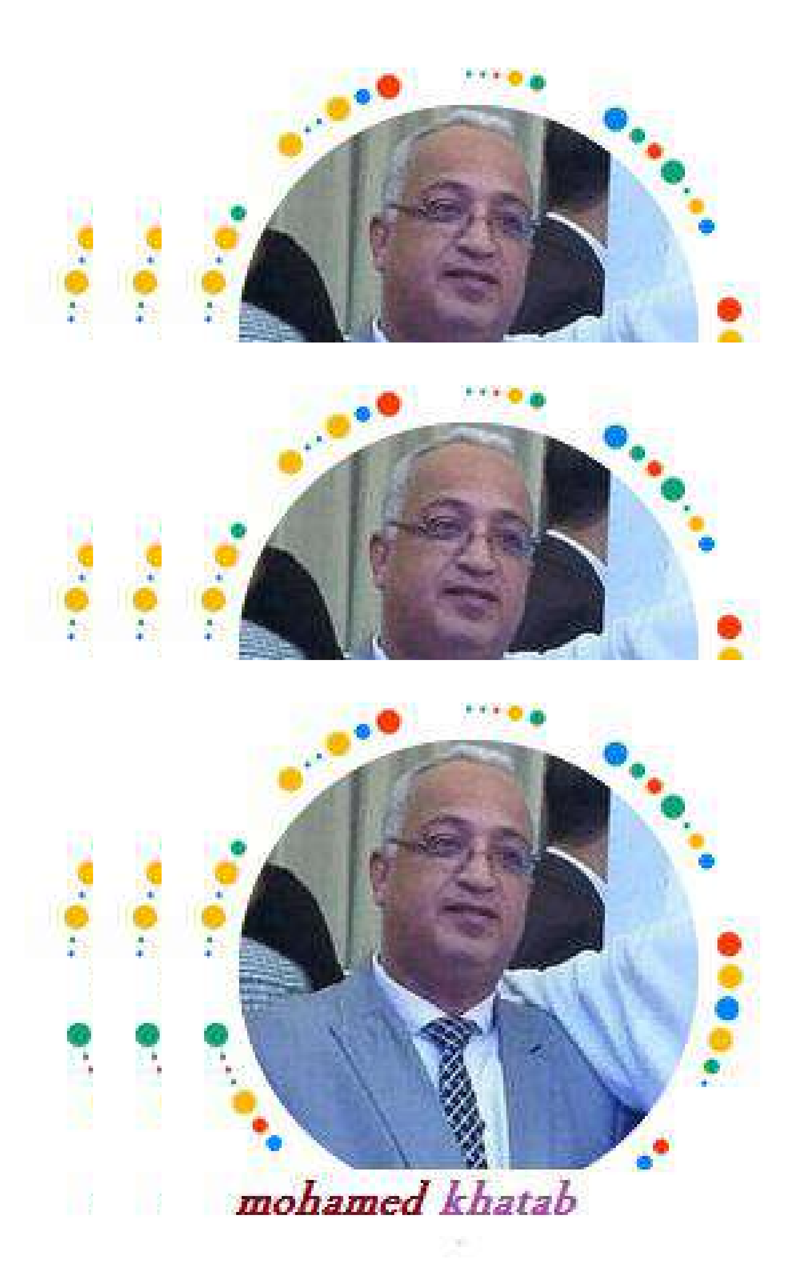
تأليف

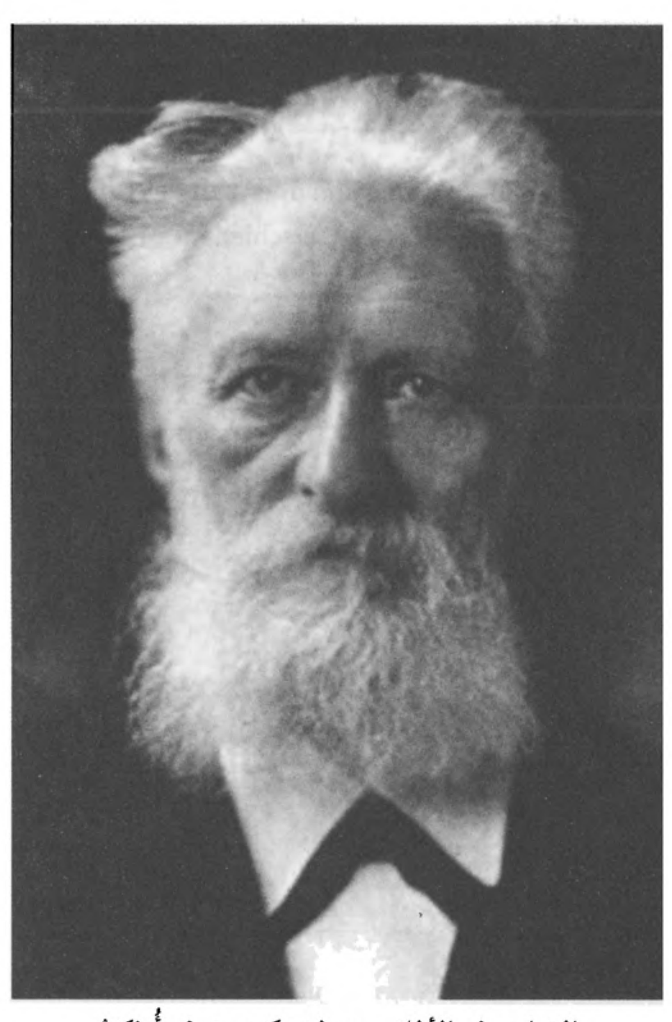
رودولف كريستوف أويكن

الحائز على جائزة نوبل للآداب

ترجمة عن الألمانية/ محمّد المهذبي




mohamed khatab



الفيلسوف الألماني رودولف كريستوف أُويْكِنْ
(1926-1846)
Rudolf Christoph Eucken


تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن
مبادرة
ترجم
Tarjim Initiative

عنوان الكتاب بالألمانية والطبعة المعتمدة:

Rudolf Christoph Eucken: Der Sinn und Wert des Lebens, Vierte Auflage des Werkes erschienen 1914،tredition GmbH،Hamburg[1]

(1) . لا تشير الطبعة التي صدرت عن دار "تريديسيون" إلى سنة إعادة نشرها للكتاب واكتفت بذكر سنة نشر الطبعة الرابعة (منقّحة ومزيدة) أي 1914. وجدير بالذكر أنّ الطبعة الأولى صدرت سنة 1908، سنة حصول المؤلّف على جائزة نوبل للآداب

الفهرس

مقدّمة المترجم 9

كلمة المؤلّف.......... 21

مدخل 23

أنظمة الحياة القديمة 27

أنظمة الحياة الجديدة 39

رجوع الإنسان إلى ذاته.......... 51

محاولة تأسيسية 77

الميزة الأساسية للحياة الروحية 77

النتائج بالنسبة لحياة الفرد 167

مسار الحياة المشترك.......... 167

اختلاف المصائر الفرديّة.......... 181

ثبت المصطلحات المترجمة 205

مقدّمة المترجم

«نبيّ» مغمور!

«يمكنني الجزم إذن بأنّ معنى الحياة هو أكثر المسائل إلحاحا»

ألبير كامو

هل يعرف القرّاء العرب رودولف أُويْكِن، الفيلسوف الألماني الحائز على جائزة نوبل للآداب سنة 1908؟ أرجّح ألاّ يكون عَدَدُهُمْ كبيرا خارج دوائر أهل الاختصاص، لأنّ اسم "أويكن"، حتّى في ألمانيا، يقترن في أذهان الأكثريّة بفالتر أويكن (1891–1950) ابن الفيلسوف وعالم الاقتصاد، بل مُلْهِم السياسة الاقتصاديّة الألمانيّة بعد الحرب العالميّة الثانية، المعروفة بـ"اقتصاد السوق الاجتماعي". غير أنّ الفيلسوف رودولف أويكن ربما لا يستحقّ النسيان الذي لحقه بعد وفاته، لأنّ أعماله لا تخلو من أهميّة حتّى بعد مرور أكثر من قرن على نشرها، وقد كان هناك من يعتبره أحد "أنبياء" العصر[2]، وحتّى أعظم

(2) . أنظر:

Slosson, Edwin E. : Six major prophets, Little, Brown & Company, Boston, 1917 (Chapter VI)

مفكّريه[3].

نشأة شبه عاديّة

وُلِد رودلف كريستوف أويكن في الخامس من يناير سنة 1846 بمدينة أَوْرِيش الألمانية التابعة لمملكة هانوفر، مثلما كانت تُسمّى آنذاك قبل الوحدة الألمانيّة. مات أبوه وهو في الخامسة من عمره، فنشأ تحت رعاية والدته التي كان لها دور كبير في حياته. تلقّى تعليمه بمسقط رأسه، قبل أن ينتقل إلى غوتنغن ثمّ إلى برلين لاستكمال دراسته الجامعيّة. تابع في البداية دروسا في فقه اللغة والتاريخ القديم، وحصل على الدكتوراه. غير أنّه سرعان ما اتّجه إلى الفلسفة بعد ذلك، ليتخصّص فيها ثمّ يُدَرِّسها في الثانويات بمدن برلين وفرانكفورت وهوزوم.

مع نيتشه وياكوب بوركهارت

انتقل أويكن سنة 1871 لتدريس الفلسفة بجامعة بازل السويسرية التي كانت تضمّ يومها أساتذة من أشهرهم فريدريش نيتشه (1844–

من الطريف في هذا الكتاب أنّ مؤلّفه يفتتحه بحديث نبوي شهير مترجم إلى الإنجليزية بالطريقة التالية:

« Whoever dies without recognizing the prophet of his time dies the death of a pagan. » A Mohammadan proverb

ولعلّه كان يقصد حديث: "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية" أو ربما فهم منها المترجم إلى اللغة الانجليزيّة ما أراد أن يفهم ممّا سمّاه " مثلا" أو "قولا مأثورا محمديّا" (أي إسلاميا).

(3) . جاء ذلك في كتاب:

Hermann E. : Eucken and Bergson, their significance for Christian thought, The pilgrim press, James Clarck & Co., Boston, London, 1912 (p.87)

1900) المتخصّص في فقه اللغة وياكوب بوركهارت المؤرّخ والمفكّر السويسري[4]. وقد كان لتلك الفترة، رغم قصرها النسبي، تأثير على تطوّر تفكيره، لا سيما من خلال الحوار غير المباشر مع نيتشه الذي يشير إليه أويكن في أكثر من عمل من أعماله، وإن اختلف الاتّجاه. ويمكن القول إنّ أويكن يلتقي مع نيتشه على الأقلّ في رفض الأنساق الفلسفيّة العقلانيّة وكذلك في نقد واقع الحضارة الأوروبيّة في القرن التاسع عشر.

الانطلاقة الكبرى بجامعة «يِينَا»

مَثَّل انتقال أويكن إلى جامعة يِينا الألمانيّة، قلعة كبار الفلاسفة الألمان، سنة 1874، المنعرج الأهمّ في حياته، فقد استقرّ هناك إلى حدود سنة 1920، بعد أن تجاوز السبعين من العمر. وكانت تلك الفترة شديدة الخصوبة من حيث التأليف والنشر ونسج شبكة من العلاقات الواسعة سواء ببريطانيا أو السويد التي كان عضوا في أكاديميّتها الملكيّة لفترة من الفترات، وصولا إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة والصين واليابان. وعمل أويكن أستاذا زائرا بجامعتي هارفرد ثمّ نيويورك خلال سنتي 1912 و1913. وكانت دروسه وبيته في يِينا مَزَارًا لطلبة وباحثين

---

(4) . يرى أويكن أنّ طبع نيتشه يتناقض بشكل واضح مع فلسفته، فهو أقرب إلى الخجل في حياته الشخصيّة ومؤدّب إلى حدّ كبير. ويضيف قائلا إنّ نيتشه عندما كان يحضر لجان الامتحانات الشفوية بجامعة بازل، كثيرا ما يساعد طلاّبه بصورة غير مباشرة، بقوله للطالب مثلا: "هل تقصد كذا أو كذا؟ أم إنّني فهمت أنّك تقصد كذا." ورد ذلك في :
Slosson, Edwin E. : Six major prophets, Boston, Little, Brown & Company, 1917 (Chapter VI)

وصحفيّن من مختلف أنحاء العالم.[5] وتوفي أويكن في الخامس عشر من سبتمبر سنة 1926.

جائزة نوبل للآداب

يقول أويكن إنّه التقى في إحدى زياراته للسويد بملك البلاد الذي عبّر له عن إعجاب والده الشديد بأعماله5، وهو ما يؤكّد شهرته خارج ألمانيا. وكان إعلان حصوله على جائزة نوبل للآداب سنة 1908 تتويجا منطقيا لجهود امتدّت على مدى سنين. فقد تُرجمت أعماله إلى لغات كثيرة وأُعِيدَ نشرها مرّات حتّى قبل حصوله على الجائزة. غير أنّ الاحتفاء الواسع الذي حظي به أويكن في الخارج لم يقابله سوى اهتمام محدود في بلده، وهو ما أثار استغراب الفيلسوف[6]. ولعلّ ذلك يعود إلى تراجع المذاهب المثالية في ألمانيا بتأثير النزعات المادّية. كما يمكن أن يُفَسَّرَ بالصخب الذي أثاره زميل أويكن بجامعة يِينَا، المفكّر إرنست هِيكِل الذي ادّعى أنّ الجائزة كانت ستُمْنَحُ له، وهو ما انكشف زيفه لاحقا، بعد أن تبيّن للباحثين أنّ هِيكِل لم يكن من المرشّحين أصلا. [7]

---

(5) . المرجع نفسه.

(6) . انظر:

Eucken, Rudolf : His Life Work and travels by himself, translated by Joseph McCabe, T.Fischer Unwin LTD, London, 1921 (p.156)

(7) . جاء ذلك في:

Reinberger, Astrid Rudolf Eucken Der vergessene Nobelpreisträger, www.ndr.de(12.8.2011)

تزامنت سنوات دراسة أويكن الجامعيّة مع أوج ردّة الفعل على الفلسفة العقلانيّة التجريديّة التي جسّدها فلاسفة كبار مثل هيغل وكانط وفيشته. وكان شوبنهاور أكثر الفلاسفة أتباعا. أمّا الفلسفة الوضعيّة التي ازدهرت في فرنسا وبريطانيا، بتمجيدها المفرط للعلوم وللتقنية، فلم تكن كافية لتعويض الفراغ الذي تركه انهيار الفلسفة المثاليّة وتراجع الدين. وكانت ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر تعيش أجواء تسودها الرغبة في اللحاق بالثورة الصناعيّة، وأنساها الانتشاء بالتقدّم العلمي والتكنولوجي ما خلّفه ذلك من فراغ روحي لدى الإنسان.[8] وأصبحت الحياة تشهد تناقضا صارخا بين «الحياة الذاتيّة» و«الحياة الموضوعيّة»، وتذبذبا بين عمل بلا روح وشعور لدى الفرد بالعزلة[9]. ولعلّ ذلك ما أَجَّجَ الإحساس عند أويكن بضرورة تطوير رؤية جديدة للحياة في كليّتها. ولن يقدر على ذلك، حسب رأيه، سوى الفكر الفلسفي، حتّى وإن أراد الاتّجاه السائد في عصره أن يجعل من الفلسفة إمّا مجرّد تاريخ للأفكار الفلسفيّة أو خادمة للعلوم[10].

---

(8) . ورد ذلك في المقال التالي (في شكل عمود لمجلّة دير شبيغل الألمانيّة:(
Der Nobelpreis-Schwindel von Jena, Der Spiegel (27.08.2003), www.spiegel.de
وارنست هيكل (Ernst Haeckel, 1834-1919) هو عالم طبيعة ألماني اشتهر بنشر نظريّة داروين في ألمانيا ومحاولة تطبيقها على التاريخ والمجتمع، ضمن ما سمّي بالداروينيّة الاجتماعيّة.

(9) . أنظر:
Eucken, Rudolf : His Life Work and travels by himself, translated by Joseph McCabe, T.Fischer Unwin LTD, London, 1921 (p.62)

(10) . أنظر:

ينطلق أُويْكِن من الحياة باعتبارها مركز تفكيره. وقد لاحظ أنّ الطبيعة لا يمكن أن تكون منطلق الحياة ومنتهاها، مثلما اعتقد بعض معاصريه تحت تأثير الطفرة العلميّة التي تحقّقت في القرن التاسع عشر، ولا سيما نظريّة داروين. ومع أنّ أويكن لم ينكر أهميّة الحياة الطبيعيّة، فهو يعتقد أنّها تشكّل مستوى أدنى من الحياة في حين تمثّل «الحياة الروحيّة» مستوى أعلى وهي تتميّز باستقلاليّتها، أي تحرّرها من الحتميّة التي تخضع لها الطبيعة. [11] وبذلك يتحقّق التوازن، في رأيه، بين اعتبار الحياة جزء من الطبيعة، وهو ما يُفْقِدُهَا الحريّة بسبب خضوعها للحتميّة، وبين النزعة الفرديّة التي تضع الفرد وحريّته في أساس كلّ تصوّر، وتخسر الحياة بالتالي حقيقتها الموضوعيّة وثباتها. أي إنّه يقف ضد المذهبين الطبيعي والعقلاني. فكلاهما، حسب رأي أويكن، لا يعترف بالإنسان من حيث كونه شخصا أي فردا حرّا. ويستند المذهب الطبيعي إلى مذاهب الفلسفة الوضعيّة والماديّة التي تلتقي في اعتبار المجتمع والطبيعة خَاضِعَيْن لنفس المبادئ الحتميّة وهو ما يعني أنّ كِلَيْهِمَا موضوع للدراسة العلميّة بنفس المنهج. ولذا فقد اعتبر أويكن مذهبه "مثاليّة جديدة" [12] نشأت في مواجهة تحدّيات مختلفة عن تلك التي

Eucken, Rudolf : His Life Work and Travels by himself, translated by Joseph McCabe, T.Fischer Unwin LTD, London, 1921 (p.124)

(11). :جاء ذلك في

Eucken, Rudolf : Der Kampf um einen geistigen Lebensinhalt, Verlag Von Veit & Comp., Leipzig, 1896 (S.III) .

(12) . أنظر:

ميّزت سياق ظهور المثالية الألمانية السابقة عليه لدى كانط وهيغل وفيشته على سبيل المثال. ثمّ إنّ فلسفة أويكن تقوم على ما يسمّيه الكفاح من أجل «الوجود الروحي»[13]. ولعلّ ذلك ما جعل تلميذه ماكس شيلر يعتبر أعماله واقعة «في منزلة بين البحث العلمي الفلسفي وبين الأدبيّات الفلسفيّة التعليميّة»[14]. ومن المفيد هنا أن نوضّح أنّ مفهوم الحياة الروحيّة عند أويكن يشمل الدين كما يشمل الفنّ والعلم وغيره من الأنشطة الإبداعيّة والمعرفيّة، وهو «العالم اللامرئي» في مقابل «العالم المرئي». [15]

بين هوسرل وبرغسون وغوته

كتب إدموند هوسرل (1859-1938)، مؤسّس الفلسفة الفينومانولوجية وأستاذ هايدغر، مقالا بمناسبة عيد ميلاد أويكن السبعين، سنة 1916، أشاد فيه بفلسفته، مُعْتَرِفًا بوجود «طريقين

Eucken, Rudolf : His Life Work and travels by himself, translated by Joseph McCabe, T.Fischer Unwin LTD, London, 1921 (p.127)

(13) . أنظر:

Eucken, Rudolf : Der Kampf um einen geistigen Lebesninhalt, Verlag von Veit & Comp., Leipzig, 1896 (S. IV)

(14). أنظر مقدمة الترجمة الانجليزيّة لكتاب "معنى الحياة وقيمتها":

Eucken, Rudolf : The Meaning and Value of Life, translated by Lucy Judge Gibson and W.R. Boyce Gibson, A.& C. Black, LTD, London, 1916 (P . VII-VIII).

(15). أنظر:

Fulda, Hans Friedrich : Neufichteanismus in Rudolf Euckens Philosophie des Geisteslebens ? in : Fichte-Studien Band 35 (2010) (archiv.ub.uniheidelberg.de)

لاكتشاف الحياة الأصليّة ضمن عالم التجربة المتشكّل في كليّته، طريقين لتجاوز الانفصال بين البشر صُلْبَ الطبيعة وبين الإنسانيّة في بعدها الروحي، ولإدراك وحدة الحياة الروحيّة داخل مسار البشريّة الصاعد والعودة إلى المنابع الأصليّة». أمّا أحد هذين المنهجين فقد طرقه رودولف أويكن من خلال فلسفته للحياة الروحيّة، في حين تولّت الفلسفة الفينومانولوجية ارتياد المنهج الآخر. وقد أكّد هوسرل كلامه ذلك إثر وفاة رودولف أويكن، عندما أشار إلى أنّ مَنْهَجَيْ فلسفته وفلسفة أويكن تجمعهما وحدة الهدف.

غير أنّه بقدر ما كان الالتقاء مع هوسرل فلسفيا، حيث لا نجد إشارة إلى وجود علاقة شخصيّة، فإنّ العلاقة مع الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون (1859–1941) كانت أوثق. فقد التقى الفيلسوفان بالولايات المتّحدة الأمريكيّة، استجابة لدعوة من جامعة نيويورك سنة 1912 وكانت مناسبة لحوار معمّق بينهما. وساهم أويكن في تقديم فلسفة برغسون للقرّاء الألمان، بعد أن كلّف أحد تلاميذه بترجمة كتاب الفيلسوف الفرنسي "المادة والذاكرة" إلى الألمانيّة. أمّا برغسون فتولّى كتابة مقدّمة الترجمة الفرنسيّة لكتاب أويكن "معنى الحياة وقيمتها". ويشترك الفيلسوفان في انتمائهما إلى ما يسمّى بـ "فلسفة الحياة" التي تقوم عموما على نقض النزعات العقلانيّة والذهنيّة والعلمويّة والرؤية الماديّة للكون، حتّى وإن تعدّدت تيّاراتها وتباينت مواقفها في بعض القضايا. وهناك من يرى أنّ مفهوم "الحياة الروحيّة" عند أويكن هو "تطوّر أعلى أو من تجليات مفهوم الدافع الحيوي" لدى برغسون 20. غير أنّ أحد

أكبر من تفاعل معهم أويكن لم يكن من معاصريه، ونجده حاضرا بوضوح في كتابه «معنى الحياة وقيمتها»، أقصد الشاعر الألماني فولفغانغ غوته، الذي يُعتبر من ملهمي تيّارات «فلسفة الحياة» على اختلافها، باحترازه الشديد من التجريد الفلسفي وتغنّيه بالحياة وثرائها الذي لا يقدر العقل على الإحاطة به. فهو القائل في ملحمته الشهيرة «فاوست»: «رماديّة، يا صديقي العزيز، هي كلّ نظريّة/ وخضراء تبقى شجرة الحياة الذهبيّة». (16)



راهنيّة فلسفة أويكن

ربما تكمن أهميّة أويكن بالدرجة الأولى في تأكيده على أهميّة الفلسفة بل وضرورتها بشكل مستقلّ عن العلم. فقد واجه المذاهب الوضعيّة السائدة في عصره بشجاعة، وأصرّ على أحقيّة الفلسفة في تقديم رؤية شاملة للكون. ولعلّه لم يخطئ في ذلك، فالعلوم رغم إنجازاتها التي لا تنكر، لم تستطع تعويض الفلسفة ولا الدين. وإذا كان من المشروع التساؤل عن مدى قدرة أيّ دين على تجاوز الاختلافات الثقافيّة، فضلا عن الدينيّة، والتوجّه إلى الإنسان كإنسان، فإنّ الفلسفة جديرة بادّعاء

(16). قارن: جيته، فاوست، ترجمة وتقديم عبد الرحمان بدوي، سلسلة من المسرح العالمي، الطبعة الثانية، الكويت، 2008 (ص 56). "يا صديقي المخلص، كلّ نظريّة هي غبراء، أمّا الشجرة الذهبيّة للحياة فخضراء."
ويمكن أيضا المقارنة بالأصل الألماني:
« Grau, theurer Freund, ist alle Theorie, und grün des Lebens goldner Baum »
Goethe, Johann Wolfgang von ; Faust eine Tragödie, Projekt Gutenberg (www.gutenberg.org)

الكونيّة. ويكفي أن ننظر إلى الإجماع الواسع الذي لقيه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وميثاق الأمم المتّحدة، على سبيل المثال، لنجد أنّ أسسه فلسفيّة على الأرجح. ثمّ إنّ جائحة كورونا التي اكتسحت العالم قد فتحت أبواب التفكير على مصراعيه في مجالات مثل محدوديّة التنبؤ العلمي والقدرات التكنولوجيّة التي راكمها البشر، وكذلك في التحديّات الكبرى التي تواجه البشريّة بقطع النظر عن الثقافات والأديان. ومن جهة أخرى، فإنّنا نرى مدى راهنيّة أويكن ومناداته بالكفاح في سبيل الحياة الروحيّة من خلال مفهوم ما بعد العَلْمَنَة الذي طوّره هابرماس، والذي يؤكّد أنّ العلمنة باعتبارها سيرورة، تفتح المجال للروحاني والديني، ولا تلغيه، عكس ما اعتقدت بعض المذاهب الفلسفيّة من قبل.[17] ولذا فإنّ التساؤل عن "معنى الحياة وقيمتها" هو سؤال متجدّد. وحتّى وإن اعتبرنا إجابة أويكن غير شافية، فإنّ إعادة طرح السؤال في سياق مختلف عن سياق الفيلسوف الألماني، يمكن أن تأخذ من محاولته منطلقا لها.

(17). أنظر:

Habermas (Jürgen) & Ratzinger (Joseph) : Dialektik der Säkularisierung über Vernunft und Religion, Verlag Herder Freiburg im Breisgau, Achte Auflage, 2011

ويمكن العودة إلى عرض مضمون الكتاب: المهذبي، محمد: *حقيقة مجتمع ما بعد العلمنة عند هابرماس*، موقع الأوان الالكتروني، 10 فبراير 2010.

أهمّ مؤلّفات رودولف أويكن

Die Methode der aristotelischen Forschung, 1872	منهج البحث الأرسطي، 1872
Geschichte der philosophischen Terminologie, 1879	تاريخ المصطلحات الفلسفيّة، 1879
Die Einheit des Geisteslebens in Bewusstsein und That der Menschheit. Untersuchungen, 1888	وحدة الحياة الروحيّة في وعي الإنسانيّة وأعمالها. بحوث، 1888
Der Kampf um einen geistigen Lebensinhalt, 1896	الكفاح من أجل مضمون روحيّ للحياة، 1896
Der Wahrheitsgehalt der Religion, 1901	مضمون الحقيقة في الدين، 1901
Grundlinien einer neuen Lebensanschauung, 1907	مبادئ رؤية جديدة للحياة، 1907
Einführung in die Philosophie des Geisteslebens, 1908	مدخل إلى فلسفة الحياة الروحيّة، 1908
Der Sinn und Wert des Lebens, 1908	معنى الحياة وقيمتها، 1908
Erkennen und Leben, 1912	المعرفة والحياة، 1912
Present-day Ethics in their Relation to the Spiritual Life, Vorlesungen, 1913	أخلاق العصر الحاضر في علاقتها بالحياة الروحيّة، محاضرات، 1913 (وهي في الأصل محاضرات ألقاها أويكن بجامعة نيويورك).
Mensch und Welt. Eine Philosophie des Lebens, 1918	الإنسان والعالم. فلسفة للحياة، 1918

يعود الفضل في ترجمة الكتاب بدرجة كبيرة إلى ما أتاحته الشبكة العنكبوتيّة من إمكانيّات النشر والتعرّف على النصوص التي كانت أسيرة

رفوف مكتبات لا يصلها إلاّ قاصدها. ثمّ إنّ ما شجّعني أكثر على هذا العمل هو إقامتي لبعض الوقت في العاصمة السويسرية، حيث تمكّنت من الاطّلاع على بعض المراجع المهمّة بالمكتبة الوطنيّة السويسريّة. ويمكن العثور على الكثير من تلك المراجع بالألمانيّة أو الإنجليزيّة أو الفرنسيّة على الانترنت، وبالخصوص على الموقع التالي، وهو يتضمّن كمًّا هائلا من المراجع بلغات عدّة، والكثير من مؤلّفات أويكن ومعاصريه:

www.archive.org

كلمة المؤلّف

للطبعة الأولى

أسعى من وراء معالجة السؤال المتعلّق بمعنى الحياة وقيمتها إلى تقريب مشاكل العصر الجوهريّة من فهم كلّ شخص، قدر الإمكان، وحَثِّهِ على الاهتمام بها. إنّ صياغة المهمّة بهذا الشكل تستدعي معها حدودا معيّنة للمناقشة الفلسفيّة. ولكن، أن يكون هناك ما يكفي للتوضيح ضمن تلك الحدود، فهو ما يأمل هذا البحث في بَيَانِه. ربّما يبدو القسم الأوّل النقدي، لبعض القرّاء، شديد الإطناب، غير أنّه لا يمكن للفكرة المركزيّة الحاسمة التي تتوقّف عليها إمكانيّة إعادة تصوّر الحياة بدقّة وتجديد الثقافة، أن تبلغ غاية قوّتها الإقناعيّة، إلاّ متى تمّت البرهنة على أنّها السبيل الممكن الوحيد لإدراك الهدف. وبسبب ذلك فإنّ النقد المذكور لا غنى عنه، وهو لا يجانب الموضوع بل هو في الجوهر منه.

مدينة يينا، ديسمبر 1907

للطبعة الرابعة

لا تتضمّن الطبعة الرابعة مراجعة شاملة للأسلوب باتّجاه المزيد من الوضوح والبساطة فحسب، بل كذلك إعادة كتابة معمّقة لفصول مختلفة، مع إضافة فصل جديد بعنوان «**اختلاف المصائر الفرديّة**». إنّني

آمل بذلك أن تحظى هذه الطبعة بمثل ما حظيت به الطبعات السابقة من حسن القبول، وأن يواصل الكتاب المساهمة في جلب الاهتمام الذي يستحقّه لمعالجة مسائل الحياة الجوهريّة.

مدينة ينا، مارس 1914

رودولف أويكن

مدخل

إنّ التساؤل عن معنى الحياة الإنسانيّة وقيمتها لا يسبّب، أثناء الفترات الهادئة، إلاّ القليل من الهموم، باعتبار أنّ وضع المجموعة وتأثيرها يتضمّن عندها غايات دقيقة إلى حدّ كبير، تبدو للفرد من الوضوح بدرجة لا تجعله يصل إلى الشكّ والتساؤل إطلاقا. أمّا ما ينشأ بعد ذلك من تذبذب أو نزاع فلا يتعلّق بالهدف بل بالسُّبُلِ الهادية إليه وحدها، ولا يمسّ شيئا من قاعدة الحياة الأساسيّة المشتركة. فقط متى لحق الالتباس والانفصام بوضع الحياة ذاتها، وانفرط عِقْدُها من الداخل، يكتسحنا مثل ذلك التساؤل ويضع التفكيرَ وتقليب الأمور في حركة قويّة، مُوَلِّدًا نزاعا هائلا. وإذا كان الأمر اليوم كذلك، وعندما يظهر الكثير من البحث والجدال حول معنى الحياة مُبَاعِدًا ما بين النفوس، فإنّ ذلك لَيَكْشِفُ بوضوح أنّ الحياة لا تأتلف اليوم في كُلٍّ شامل، وتفتقر إلى نقطة ارتكاز غالبة وإلى سِمَةٍ مشتركة. لا نحتاج في الحقيقة إلاّ لشيء من تدقيق النظر في الوضع المعاصر كي ندرك وجود تيّارات متباينة جوهريّا تؤثّر فيه وتدفع في اتّجاهات مختلفة وأحيانا متناقضة. إذ يُعتبر العالم اللاّمرئي تارة والعالم المرئي تارة أخرى مركز الحياة، ويبدو استحضار هيمنة العلاقة بالطبيعة حينا والعلاقة بالبشرية

حينا آخر، ويظهر تقديم الجماعة ضمن البشرية طورا والفرد تارة أخرى.. وتتشكّل الحياة بصورة مختلفة تماما وِفقًا للحكم عليها، وتبدو نواتها بشكل مختلف، مزاياها تبدو مختلفة، وتفرض علينا المطالب بشكل مختلف، وتفرض علينا سُبُلاً مختلفة. أي إنّ التَبَايُنَ لا يقتصر على التصوّرات بل يشمل الوقائع ذاتها ولا يتعلّق النزاع بالتأويل وحده بل بالحياة نفسها. إنّ من يقتصر هناك على أن يكون مجرّد طرف في أحد التيّارات، فهو يبقى خاليا من الحيرة الداخلية، ويغيب عنه كلّ شكّ. غير أنّه يدفع ثمنا باهظا لتلك الطمأنينة المزعومة بسبب ضيق الأفق وقِصَرِ النظر الفكري. أمّا من كانت له رؤية محايدة وعين مفتوحة على الزمان في كليّته، ومن يعيش مصير الإنسانيّة كما لو كان مصيره الشخصي، فسيجد نفسه، وسط ذلك الانفصام، في وضع سيّء للغاية يستحيل عليه أخذه براحة بال. إنّ كلّ واحدة من الحركات المختلفة تبدو متضمّنة لحقائق لا يمكن التخلّي عنها، غير أنّ تلك الحقائق تتناقض، ولا نرى إمكانيّة تفاهم سِلْمِيّ. وهكذا سنجد أنفسنا مدفوعين تارة إلى هذا الجانب وطورا إلى الآخر، ينقصنا هدف شامل مهيمن، إضافة إلى مقياس نَاظِمٍ. إنّ النجاحات التي لا تُنكَر في الجوانب الجزئيّة لا تتظافر من أجل نتيجة شاملة، وبالتالي لا تنعكس بشكل كاف على النفس في كليّتها، بل تتركها في الحيرة والفراغ. ولا يقتصر مثل هذا الوضع على إصابة الشجاعة وبهجة الحياة بالشلل وتحطيم الإحساس الآمن بالحياة، بل إنّه لَيُمَثِّلُ كذلك خطرا على الإبداع الفكري العظيم. إذ أنّ ذلك يحتاج بالضرورة إلى وجود غاية سامية ورافعة للنفس في

كليّتها، غاية نتحرّر عند الظَّفَرِ بها من كلّ أشكال الحيرة ونتمكّن من الارتقاء فوق مستوى أنفسنا. نحتاج اليوم بشكل جدّ مخصوص إلى شجاعة للحياة مفعمة بالمرح وإنجازا دافعا إلى الأمام. فَمُهِمَّاتٌ فوقها مهمّات تلحّ علينا بشكل قاهر، وهي تتطلّب الكثير من العمل والتضحية، وتُبدّد طمأنينة نمط الحياة القديم. وهل بإمكاننا الإقدام على الكفاح والعمل بشجاعة واثقة إذا كان كلّ ما حولنا يمنعنا من إدراك أيّ معنى ويهدّد تبعا لذلك بتبديد كلّ جهد في نهاية المطاف؟

كَلاًّ وألف كلاّ! لا يمكننا أن نستسلم للانفصام، ويجب علينا استعمال كلّ ما لدينا من قوّة لتجاوزه. ولا ينبغي لنا إطلاقا، بالنظر إلى وضعيّة العصر، أن تنقصنا الشجاعة. إذ أنّ تلك الوضعيّة نفسها توحي بشكل واضح وكاف بأنّ الحركة باتّجاه حياة جديدة ومختلفة قد انطلقت. فنحن لن نستطيع إدراك التناقضات بالقوّة التي ندركها بها، ما لم نكن أقوى منها بشكل من الأشكال، وما لم تكن مثل تلك الحياة تعتمل بداخلنا، بحيث يقتضي الأمر فقط أن نستوعبها ونتولّى تشكيلها بقوّة. فإذا كان الأمر لا يتعلّق بتصوّرات للحياة بل بتشكيلات لها، فإنّ الإقدام الشجاع وحده بإمكانه إنجاز تعميق ذاتيّ قويّ، يجعل نظرنا متّجها إلى الأمام. ولكن لكي نسير بثبات، وجب علينا، قبل ذلك، أن نضع نُصْبَ أعيننا الوضع الرّاهن في تنوّعه وتناقضاته بكلّ وضوح. فالتركيبات التي يتضمّنها هي في الحقيقة أكثر من مجرّد جهد تأويلي للفكر، بل هي إنجازات فعليّة، وتكثيف للحياة، ترتبط بها نفوس كثيرة وتتشابك بعمق مع الحالة الإنسانيّة، وبصعوبة يمكنها ذلك دون إنشاء واقع ما،

أو الدفاع عن حقيقة معيّنة. مثل ذلك الواقع ومثل تلك الحقيقة ينبغي أن لا يغيبا عنّا. فعندما نضع التصوّرات المختلفة مُتَجَاوِرَةً وندركها بنظرة جامعة، إضافة إلى ذلك، فهو ما قد يترتّب عنه بروز الوضع الحالي للمشكل بوضوح خاصّ، بل يمكن أن يصبح الاتّجاه جليّا انطلاقا من ذلك، يتمّ فيه السعي إلى تطوير الحياة، وتركيز جديد للكُلّ الشامل. إن كان مثل هذا البحث يتوفّر على فرصة للنجاح، فإنّ الحركة والتجربة الخاصّة للحياة وحدها هي الحاسمة، ولا يمكننا في كلّ الأحوال الوقوف هناك، حيث نقف اليوم، مطمئنّين في مواقعنا بانتظار مصيرنا. فإذا لم تحصل أيّة مقاومة ولا أيّ جهد إضافي، فلا بدّ للتناقضات التي تظهر اليوم، أن تزداد تفاقما وأن يتبدّد مضمون الحياة أكثر فأكثر. وإذا لم نكن راغبين إذن في الانحطاط الروحي المتواصل، فإنّه يتعيّن علينا بذل الجهد باتجاه التقدّم، يدفعنا اقتناعنا بوجود ضرورات تحكم وهي أقوى ليس فقط من كلّ رغبات الإنسان الفرد وتفكيره بل من الإنسانيّة جمعاء. واستنادا إلى تلك الضرورات يبدأ عملنا.

أنظمة الحياة القديمة

نظام الحياة الديني

من بين أنظمة الحياة المختلفة التي تتجاذب الناس في هذا العصر، لا تزال تلك القائمة على الدين هي التي تمارس التأثير الأكبر. فهي تجعل الوضع الأساسي للحياة روحا مهيمنة على العالم، تسوده وتسيّره في الوقت ذاته بشكل كامل. وتحدّد المسيحيّة تلك القوّة الحاكمة للعالم، بصورة أدقّ، على أنّها جوهر أخلاقيّ كامل، وباعتبارها روح العدالة والخير. يجعل نظام الحياة الديني من الدين مضمون الحياة الرئيسي ومنبع عالم من الأفكار المميّزة. وينبثق مثل ذلك التحوّل من اهتزازات حادّة للوجود الإنسانيّ، يحدث في عصور يشعر فيها الإنسان بعجزه ويظهر كذلك الشعور بالألم من تفاهة الحياة المألوفة، مع امتلائه، في الوقت ذاته، بتوق جارف إلى حياة جديدة. كذلك حصل في أوساطنا الثقافيّة الغربية خلال القرون التي خرجت فيها المسيحيّة من حركاتها العاصفة ظافرة في الختام، قبل أن يخفّ شغف الحاجة الانفعالي إلى الدين لاحقا ويستقرّ. وتمّ في الوقت نفسه بناء نظام حياة ديني شيئا فشيئا، بقي مؤثّرا بقوّة خلال مئات بل آلاف السنين إلى حدّ العصر الحاضر ومتمسّكا بمطالبه إلى اليوم.

ترتكز الحياة في ذلك النظام الديني على غاية واحدة، هي العلاقة بالروح الكامل، ولا تستمدّ بقيّة الأعمال قيمتها إلاّ بسعيها نحوها وعملها من أجلها. ترتبط بذلك التركيز الصارم، وثيق الارتباط، سَرِيرَةٌ تجد نفسها في نفسها بشكل خالص وأسمى من كلّ تعقيدات الدنيا، تلك السريرة المتحرّرة من ضغط النجاح الخارجي والتي تجد عملها الرئيسي في ذاتها. وهي تنشئ تفاهما بين نفوس البشر، وشعورا مشتركا وحياة مشتركة بشكل كامل وتربط الناس، استنادا إلى أساس مشترك، بكيفيّة أكثر وثوقا ممّا قد يحدث في أيّ سياق آخر. وتعتمد هذه الحياة الدينية على محبّة إلهيّة لا متناهية، وتقترن بالمحبّة قداسة نظام أخلاقيّ يمنح الحياة، مع كلّ طابعها الحميمي، جدّية هائلة.

لقد أمكن للإنسان، في هذا السياق، أن يفكّر في نفسه وفي حياته بالشكل الأرقى. وباعتباره مخلوقا على صورة اللهّ، فهو يوجد في مركز الواقع، وحوله يدور الكون، ويقرّر فِعلُه أو تَرْكُه مصير كلّ شيء وبشكل دائم. كان الفرد عضوا في ملكوت اللهّ على هذه الأرض، وكان عليه أن يقبل غايات المجموعة بطيب خاطر، ولكنّه شكّل في الوقت ذاته دائرة خاصّة به وأصبح يُعْتَبَرُ غاية في ذاته، من أجل إتمام الكلّ الذي لا ينبغي أن ينقصه جزء، ويشمل ذلك قراره أيضا.

لا تخلو تلك الحياة من الهموم والآلام والمِحَن. ثمّ إنّ ارتفاع سقف الطلبات والنزاعات الحادّة، ضمن الدائرة البشرية، يعوق كلّ متعة وكلّ سعادة مألوفة. بل إنّ وزن المعاناة والخطايا يبدو هنا، لأوّل وهلة، وكأنّه سيغدو أثقل وليس أخفّ. غير أنّ تجربة الدين الأساسيّة والتحرّر من

ضغط الخطيئة وإنشاء حياة جديدة، قد رفع الإنسان فوق مجال الصراع والشقاء بأكمله، ومنحه الاتّحاد بالله الذي يتمّ الوصول إليه بفضل المحبّة والغفران والمشاركة في كماله وفي النعيم الفيّاض. وحتّى إن استمرّ رفض ما بدا عالمًا غريبا، وكان انطلاق الحياة الجديدة يسمح فقط عندها بالإحساس الكامل بقوّتها، فإنّ ذلك الرفض لا يستطيع تحويل الحياة إلى الشكّ أو شلّ الجهد. فلم تكن من حيث جسامة مهمّاتها حياة سهلة تلك التي ظهرت هنا، ولكنّها كانت حياة مليئة بالحركة وفي ظروف آمنة. لم تكن حياة بلا غاية.

كذلك هيمن نظام الحياة الديني على دوائر واسعة من الإنسانيّة على مدى قرون طويلة. لقد جمّع أفرادا وشعوبا بشكل وثيق، وحمل لعدد لا حصر له من النفوس، في ذات الوقت، اهتزازا قويّا وطمأنينة سعيدة. وبدخول الحياة الإلهيّة إلى دائرة الإنسان وإنشاءها عالما جديدا في مجال العالم القديم، تبرز مفارقات حادّة ويتمّ اقتلاع حياة الإنسان الموجودة بينها من طمأنينتها الكاملة. فالإلهي يوجد في مجال عُلُوٍّ يهيمن على الدنيا ولكنّه يقع، في ذات الوقت، في درجة قرب روحيّة مباشرة. أي إنّ الإنسان المتناهي الصغر، مدعوّ إلى وحدة جوهريّة مع الله. محبّة وإجلال، لين وشدّة يرتبطان بشكل وثيق، عتمة بالغة ونور ساطع، شقاء وخلاص، أحدها يقوّي الآخر، في كلّها تشويق درامي وحركة لا تنقطع، تَهَبُ النَّفْسَ قصّة حقيقية قبل كلّ شيء، وتجعل من تلك القصّة مركز كلّ واقع، وعبر كلّ شيء توق جارف إلى المحبّة وإلى الأبدية، حياة في كنف الإيمان والأمل تحلّق بعيدا فوق الحاضر كلّه. ولكنّها تدرك مع

ذلك في أعمق أسسها أنّها محروسة بشكل مؤكّد في عالم الحقيقة الإلهية. ولم تبلغ الحياة مثل ذلك العمق والحميمية في أيّ مقام آخر.

ولكن هناك مع ذلك اعتراض على هذه الحياة وتحديدا على طابعها الحصري. فقد نشأ الكلّ في تناقض وقطيعة مع العالم المحسوس، في زمن فقدت فيه البشريّة، عبر تجربة غائمة، إيمانها بنفسها وبقدراتها ولم تجد غايات جديرة بها في الوجود المباشر، وحيث بدا أنّ التحوّل إلى عالم جديد هو الكفيل وحده بحمايتها من الخراب والدمار الروحيّ. وهكذا صار هذا العالم يُدرَك من خلال تسليم الروح بأكملها ويكتمل بتحوّل كامل إلى الوجود. صار عالم الإيمان وطنا روحيّا، وسقط العالم المَرْئِيُّ في مهاوي الاغتراب. إنّ ذلك يمكن فقط أن يستمرّ غير قابل للجدال طالما احتفظت المطالبة بعالم جديد بقوّة قاهرة، ويجب أن يقع في الاضطراب عندما تتسامى الإنسانيّة مجدّدا، ببزوغ العصر الحديث، إلى ثقة مرحة في النفس ويكسب العالم المحسوس في الوقت ذاته قوّة جاذبيّة غضّة تجاهها، ويتجّه الجهد والعمل عندها من جديد أكثر إلى المحيط المباشر، وعندها يبدو أنّ غاية الحياة الأرقى تكمن في خضوعها والبحث من خلال ذلك عن زيادة القوّة، وعندها يصبح هذا العالم للإنسان شيئا فشيئا وطنا بالمعنى الروحيّ أيضا. ونظرا إلى أنّه انطلاقا من ذلك تُنْسِي مهمّات العمل الدنيوي، في امتلائها المتنوّع ونجاحاتها المُسْكِرَةِ، الاهتمام بحالة الروح، تتحوّل منزلة الدين بشكل كامل، وتُدفع بالتدريج من قلب الحياة إلى هامشها وتُوَاجِهُ في ذلك اعتراضات متصاعدة، فوحدها طريقة تفكير ضيّقة الأفق بالأساس يمكن أن تُثْقِلَ على تصلّب وعدم

إيمان أفراد بسطاء. وتزايدت الاحترازات في ذلك على المضمون التعليمي للدين مستندة بالأساس إلى التحوّل الكامل لصورة الطبيعة والتاريخ التي أنجزها العصر الحديث. ولكنّ تلك الاحترازات كان يمكن تحمّلها أو ردّها، لو بقيت النواة القديمة والإيمان القديم دون نقصان بالنسبة للحياة، بل إنّ اعتراض المحيط كان يمكن حتّى أن يرفع من درجة الوعي الذاتي المتحدّي للإيمان المتجسّد في القول اللاتيني المأثور: "أؤمن لأنّه خُلْفٌ"(18). ولا يجعل الهجومات خطيرة إلاّ ضعف الدين الداخلي وذبول تجاربه الأساسية وتحوّل النظرة الإنسانيّة للحياة. وفي وضع متغيّر بهذا الشكل، أحدث التأثير الكامل أمرين هما، من ناحية، ما كان يمثّل اعتراضا على الدين دوما، ومن ناحية ثانية، ما تواجهه به الثقافة الحديثة، أي إنّ كلّ الشكوك والاعتراضات أصبحت تجد عندها آذانا صاغية. فقد اتّجه الهجوم في مرحلة أولى إلى جوانب محدّدة ومطالب معيّنة للدين، ثمّ سرعان ما تحوّل ضدّ الدين في كليّته، وفي الوقت ذاته ضدّ أيّة إمكانية لنظام حياة ديني. ويقع رفض نظام الحياة ذلك على أنّه مفرط في ضيق الأفق، ومواجهته بتشكيل كلّ القوى وبناء ثقافة كونيّة. وهكذا يبدو انقسام الواقع إلى عَالَمَيْنِ ضلالا كبيرا ويغدو من الخطأ أن نجعل من الحياة مجرّد استعداد لحياة قادمة. ويصبح الدين بأكمله، في المحصّلة، عند منهج التفكير هذا، ثمرة خيال بشري،

(18) . credo quia absurdum وردت باللاتينية في النص الأصلي: "أؤمن لأنّه خُلف" أو عبث أي رغم غياب أيّ أساس عقليّ للإيمان الديني. والعبارة نُسبت خطأ، حسب الباحثين، لترتليانوس (Tertullianus) المؤلّف القرطاجي (نسبة إلى قرطاج/تونس) الأمازيغي المسيحي الذي عاش فيما بين سنوات 160 و 225 م أثناء العهد الروماني. (تنبغي الإشارة إلى أنّ كلّ التعاليق والهوامش الواردة في هذه الترجمة هي من وضع المترجم).

وعَالَمُهُ مُجَرَّدَ نَسْجِ أوهام، ومجالا للأطياف والأحلام. لا شكّ أنّ مثل ذلك الإنكار يواجه مقاومة شديدة، حيث يدافع كثيرون بحماس إن لم يكن عن حقّ نظام الحياة الديني فعن حقّ الدين. غير أنّ الانتشار المتواصل لمثل ذلك الإنكار يبيّن بشكل غير قابل للنقض أنّ أوساطا واسعة في عصرنا الحاضر ما عادت راغبة في الانتقال إلى القوى الدافعة للدين، بحيث أنّه هو وعالمه صارا غريبين بشكل جوهريّ عنهم، بل وغير مفهوم. كما أنّه لا يمكن تجاهل ما أصاب الدفاع عن الدين من تشتّت قويّ وعدم نجاحه في إنشاء تأثير موحّد. أمّا ما يعتمل من مطالب وتوق فهو لم يعد ملموسا بما يكفي لردّ الخصوم على أعقابهم. وهكذا فإنّ الدين بانغماسه في الصراع من أجل فرض حقّه، لم يعد بإمكانه ضمان السند الثابت للإنسان ولم يعد ممكنا أن يضع له غايات تَحْكُمُهُ. فمن أين لنا أن نرى الإجابة الشافية فيما أصبح بدوره محلّ مساءلة؟

نظام الحياة عند المثالية المُحَايِثَة

تعتقد المثاليّة المتَّجهة إلى العالم، في إمكانيّة الإفلات من تعقيدات الدين دون التقليل من عمق الحياة، وهي المثالية المُحَايِثَةُ التي كانت وراء ازدهار ثقافة روحيّة ترافق الدين منذ آلاف السنين، في تكامل ودّي غالبا وفي صراع حادّ أحيانا. وهي بدورها تضع الحياة قبل كلّ شيء في عالم لامرئي، ولكنّها لا تفهم ذلك العالم على أنّه قائم إلى جانب الوجود الحسّي ومنفصلا عنه، بل باعتباره الأساس الحامل له، وعمقه وروحه،

بحيث أنّ الكون يملك عمقا محجوبا عن الأنظار، يجعله يعيش فيه صورة كاملة وحياة داخلية. تلك هي القناعة التي بها يقوم نظام الحياة هذا أو ينهار. فالثقافة المثاليّة تربط الإنسان بالكون ربطا وثيقا، ولكنّها تضمن له في الوقت ذاته عملا خاصّا به ومكانة متميّزة. إذ أنّ العالم في كَنَفِهَا يبدو وكأنّه يخوض حياته بشكل لاواع ومقيّد، وأنّ القوّة الحاملة له في كليّتها ليست هنا تجربة للأفراد. غير أنّ ذلك يحدث لدى الإنسان الذي يستوعب الفكر الكلّي ليجعل منه بتلك الكيفية مِلْكاً له، وبذلك فقط يرتقي العالم لديه إلى التجلّي والحريّة. ولكنّ ذلك لا يحصل دون قراره وإدراكه، ولا دون عمله وتأثيره. وفي هذا الموضع المخصوص يتوقّف تقدّم العالم عليه، ويمكن لفعله أن يأمل في الارتقاء بالوضع الكُلِّي.

يدور نظام الحياة هذا غالبا حول التناقض بين العالم الداخلي والعالم الخارجي، بين العالم المرئي والعالم اللامرئي. إنّ الجوهري، أي الحامل الفعلي للحياة، عليه أن يمسك بالظاهري ويبعث الروح فيه، ولكن مع ذلك وفي نفس الوقت، أن يدفع بذاته إلى الانتقال من ملامح باهتة إلى البناء الكامل. هكذا ينشأ إنجاز روحي، يحمله عقل كوني، يوقظ حياة جديدة بشكل جوهري في مقابل طبيعة لاواعية وحياة يومية بلا معنى، ملكوتا للروح الذي بحقّه وخيره وجماله يُكْسِبُ الإنسان اتّحادا حميميّا مع العالم الأكبر ويسمح له بالمشاركة في الإحساس بامتلائه وروعته. لا تحتاج حياة مثل هذه إلى أيّ جزاء يحصل خارجها، وهي لا تخدم غايات أخرى، بل تجد معناها في ازدهارها وفي ابتهاجها بتجلّيها لذاتها. يرتدّ

فعلها إلى ذاته ويَغْنَمُ في الوقت نفسه طمأنينة سعيدة.

إنّ الفنّ والعلم هما الحاملان الأساسيان لهذه الحياة، وكلاهما مقصود بالمعنى الأسمى، بحيث ينقلاننا إلى عالم الأسباب الباعثة ويكشفان لنا عمق العالم. إنّهما يحرصان، في كلّ مكان، على توضيح المُبْهَمِ وتَلْيِينِ الصَّلْبِ، وجمع الشتات، ومصالحة المتناقضات وبناء الكلّ باتّجاه تناغم روحي كامل وجمال مبتهج بذاته، يوضع في مقابل كلّ نفعيّة خالصة. يولّد ذلك نمط حياة بعيد عن نمط الحياة الدينيّة. فالدين يهتمّ بتأجيج التناقضات في حين تحرص الثقافة المثالية على التوفيق بينها. وتركّز الحياة الدينيّة قدر الإمكان على نقطة واحدة، في حين تعطيها المثاليّة المحايثة أكثر ما يمكن من البُعْدِ والاتّساع، ويضع الدين المعتقدات في المقام الأوّل في حين تطالب المثالية المحايثة بإنجاز كبير، وترى الأولى الضعف والتفاهة أكثر في الإنسان، أمّا الأخرى فترى فيه أكثر قوّة وعظمة، وبالتأكيد لدى الإنسان الذي يرتبط بالكون ويبني حياته انطلاقا منه. تجد الأولى الطريق إلى الترحيب بالحياة فقط من خلال اهتزاز كبير وإنكار حادّ وتامّ، وتعتقد الأخرى في إمكانيّة إتمامها مباشرة بفضل الاندفاع الجريء. وربما يتضمّن ذلك التناقض فقط جوانب مختلفة أو درجات لحياة قادمة يتعيّن عليها التكامل فيما بينها، غير أنّنا لا نرى للوهلة الأولى نقطة الالتقاء.

وصلت المثاليّة المُحَايِثَة إلى ازدهار لامع بشكل متميّز في أوج صعود العصر اليوناني، واستمرّت منذ ذلك الحين تيّارا مستقلاّ وازدادت قوّتها على الدوام بالجديد، فهي تخاطبنا بقرب مباشر في أعمال غوته، وهي جزء

جوهري من تراث الإنسانيّة الروحي.

غير أنّ مصير المثاليّة المُحَايِثَة لم يكن مختلفا عن مصير الدين فيما يخصّ الطموح إلى قيادة الحياة وإضفاء المعنى عليها. فقد اهتزّ الأساس، وادلهمّت التجربة-المنطلق وضعفت، وبذلك كانت للقوى المعادية اليد العليا وطردت هذا التصوّر للحياة من مركز الوجود. أن يكون للواقع عمق، وأنّ الإنسان يمكنه بفضل الاستعمال الكامل لقوّته أن يَنْفُذَ إلى ذلك العمق، فهو ما لم يعد أقلّ عُرْضَةً للشكّ من حقائق الدين الأساسيّة بالنسبة للأفكار السائدة في هذا العصر. لقد كانت المثالية المحايثة دائما في خطر ومَشَقَّة، من أجل المحافظة على دعاويها. فهي لم تصل إلى إنجازات تملأ الدنيا إلاّ في فترات خاصّة، فقط في الأيّام الاحتفالية للإنسانيّة، حيث جمعت عناية الأقدار مهمّات كبرى للتاريخ الكوني بشخصيّات عظيمة، هناك حيث كان العالم اللامرئي أقرب ما يكون للإبداع الذي يبلغ القمّة وموطنا آمنا للحياة، هناك أمكن للعالم اللامرئي أن يكسب كلّ قوى الإنسان ويصبح جزء من كيانه. غير أنّ مثل تلك الفترات البطولية تزول وتفرض الحياة اليومية إيقاعها، وينخفض تشويق الحياة ومعه في الوقت ذاته قوّة الرفض لكلّ ما هو غريب وغامض. وتكون الكلمة الأخيرة لتصلّب العالم الخارجي والمستوى الوضيع لعامّة البشر، والأنانيّة والطابع الظاهري للدوافع المجتمعية إلى درجة تجعل تلك الثقافة المثالية، بإضفائها للطابع الرّوحي على الوجود والسموّ به، تبدو بمثابة أمر جانبي ومرافقة وإحاطة بحياة من نوع آخر.

عندما تصبح الثقافة المثالية مع مثل ذلك التحوّل، انطلاقا من نشاطها الخاصّ وتجربتها، مجرّد امتلاك ومواصلة واستمتاعا بكنوز موروثة، يُختزَل الإنجاز الروحي لا محالة في مجرّد تعليم، ولذلك التعليم أيضا قيمة، غير أنّه لا يلامس أعماق الحياة، ويصبح بسهولة من أمور الاستمتاع المريح، وديكورا جذّابا يحجب المشاكل الكبرى للوجود الإنساني. كما يدفع إلى تلك الثقافة التفكير في المحيط أكثر من التطلّب الذاتي، ومن أجل تحقيق الرغبة في النجاح ضمن الحياة الاجتماعية، تتغلّب المظاهر هنا على الوجود بسهولة، ولا يمكن حينها تجاهل ما في الأمر من بعد عن الحقيقة. ويبدو التعليم في المحصّلة حياة مُسْتَهْلَكَةً، غير أنّ المُسْتَهْلَكَ لا يمكن أن يمنح وجودنا معنى وقيمة.

إنّ ما يكمن في مثل ذلك التحوّل من تعقيدات لَيَزْدَادُ قوّة من خلال الحالة الخاصّة بالعصر الحاضر. يؤدّي اهتزاز الدين أوّلا إلى إضعاف المثالية المحايثة أيضا. إذ أنّ اقتناعها بعمق الكون وبتأثير عالم لا مرئي قد انتشر بين الناس فقط في ارتباط بالدين وقطيعته مع الوجود المرئي. وإذا اختفى الدين أو ضَعُفَ، فإنّ الثقافة المثالية تخسر بذلك أيضا مكانتها الثابتة في الحياة، وهكذا تُدفَع بالتدريج من العُمْقِ إلى السطح. ولكن لا مجال للشكّ اليوم مطلقا في الضعف الذي أصاب الدين. ثمّ إنّ العالم الخارجي قد اكتسب في العصر الحديث استقلاليّة كما لم يحصل من قبل، وطَرَدَ النشاطُ العلمي منه بالتدريج كلّ حياة روحية، وجلب لنا في نفس الوقت فيضا من المهمّات، تجذب قوّة الإنسان وتقيّده، وشيئا فشيئا يصبح من المستحيل التغلّب من الداخل على هذا العالم اللامتناهي

وإخضاعه لحياة لا مرئية. ويسير في ذلك الاتجاه أيضا، أنّ البحث العلمي الحديث يشدّد بقوّة على خصوصيّة وترابط الحياة والطموح الإنساني، فهو يبدو له سجين حدود ضيّقة ويكون بذلك مُسْتَبْعَدًا بالضرورة من المساهمة في حياة الكون. وفي النهاية يحطّم تطوّر الذات الحديثة السياقات الموروثة ويجعل الإنسان بمثابة الغريب إزاء العالم. كيف يمكن لمثل هذا الوضع أن يقود إلى الإبداع الفكري بحيث يُخْضِعُ لنا العالم ويسمح لنا بتوجيه حياتنا انطلاقا من عمقه؟

وهكذا فإنّ نظام حياة المثالية المحايثة بفنّه وعلمه الراقي ليس اليوم أقلّ اهتزازا من نظام الحياة الديني. ولا يكون الشعور بالاهتزاز أقلّ حدّة إلاّ لأنّه لا يحصل من خلال هجوم مباشر بل بسبب ضعف وذبول تدريجي. وبما أنّ المثالية المحايثة لا تملك جرأة الدين، فإنّ النزاع حولها لا يبعث مثل تلك الانفعالات القويّة. ولكنّنا نصل في كلتا الحالتين إلى النتيجة ذاتها، إذ أنّ قوى الحياة التي قادت الإنسانيّة لآلاف السنين، ووضعت لنفسها غاية وأعطت لها بذلك معنى، قد فقدت جذرا ثابتا في وعي الإنسان الحديث، وهي تحافظ على نفسها بفضل العادة الخاملة أكثر من النشاط الذاتي. وَحْدَهُ الانغماس في الأعمال اليوميّة والانشغال الطاغي بالتفاصيل يجعلنا نَغْفَلُ أو فقط يضعف إحساسنا، عندما يحصل أمامنا أمر مهول. أَوَ ليس أمرا مهولا أن تبدو غايات ومزايا، استعملت البشريّة أفضل قواها لآلاف السنين في اكتسابها وقدّمت من أجلها ضحايا لا تُحْصَى، تبدو اليوم بمثابة أوهام، وأن تُعتبر الآلهة القديمة أصناما، وأن يُنْظَرَ إلى التيّار الرئيسي لسعي الإنسانيّة إلى يومنا على أنّه

ضلال وجنون؟ يجب علينا الاعتراف بهذا التحوّل عندما تفرضه علينا مقتضيات الحقيقة، ولكن وحدها طريقة التفكير الأكثر سطحيّة يمكنها القطع بخفّة وسرور مع كلّ ما اعتُبِر إلى حدّ الآن مقدّسا، وأن تَغْفَلَ عن أنّ وقوع كلّ معتقدات الإنسان في ضلال كامل وطويل بذلك الشكل يجب أن يصيب مَلَكَةَ إدراك الحقيقة لديها بالاهتزاز.

أنظمة الحياة الجديدة

الأساس المشترك

مهما بدت لنا خطورة الهزة الروحية المعاصرة، فلا يمكننا في المقابل، إنكار الكثير من البناء الواعد. فقد أحدث القرن التاسع عشر تحوّلا شاملا من العالم اللاّمرئي إلى العالم المرئي، مثلما يشهد على ذلك حلول الواقعية محلّ المثالية في مستوى التصوّرات. تلقّت الإنسانيّة العالم المرئي ببراءة الأطفال وفرحتهم، وكلّما اشتدّ ارتباطها به إلاّ وازداد يقينها في أن تجد فيه معنى وقيمة للحياة في كليّتها. بدت الأرضيّة التي يستند إليها العمل هنا ثابتة بشكل لا اهتزاز فيه، وانمحت كلّ ظلال الأحكام المسبقة وتبدّد ضباب الخرافة، وغمر الأشياء نور الشمس الساطع مُبْرِزًا بشكل لا يكدّره شيء طبيعتها الحقيقيّة، ووجد الفعل مجالا حرّا وبلا حدود في كلّ الاتّجاهات. تبدو الحياة هنا للوهلة الأولى وكأنّها نجحت في الانتقال من أضغاث الأحلام والجنون إلى تمام اليقظة والواقع، ويُضاف إلى ذلك جاذبيّة الاكتشاف الذاتي والنظرة البِكْرُ.

وفي الحقيقة فإنّ العالم المرئي أصبح في هذه الحياة الجديدة أكثر اتّساعا بما لا يُقَارَنُ، بالنسبة لما كان عليه في عصور مضت. فهو لم يقتصر على

تطوير المعرفة بشكل فريد في الطبيعة الواسعة وفي تاريخ البشرية، بل أظهر لعمل الإنسان المزيد من المجالات بشكل تصاعدي، وأصبح يمكنه حينها، بفضل استعمال قدراته، أن يغيّر حالة الأشياء التي كانت تحيط به مثل قَدَرٍ لا فكاك منه، ويُطَوِّرُهَا بشكل جوهري. تمّت مواجهة البؤس والمحن والخطأ والجنون، ودَفْعُ الحياة في كلّ المجالات إلى انسياب أسرع وصعود ثابت، والارتقاء بها إلى المزيد من الامتلاء والبهجة. غير أنّ العمل هو الذي يشكّل نواة هذه الحياة الجديدة، بمعنى النشاط الذي يُمْسِكُ بالأشياء ويشكّلها خدمة لأغراض بشريّة، وما كان موجودا منذ القدم، فقد طوّره العصر الحديث بتلك الطريقة بشكل هائل، فقد تحرّر العمل، أكثر كثيرا من ذي قبل، من قوى الفرد وأهدافه، أي من خلال إنشاء ظروف خاصّة تُفْضِي إلى استقلاليّة تجاه الإنسان الفرد. ذلك ما يُبَيِّنُهُ العلم والتقنية ويشهد عليه العمل السياسي والاجتماعي، فجميعها تُظْهِرُ الإنسان خادما وجزء من كُلٍّ كبير في العمل، عليه أن يلبّي مطالبه بالضرورة. ولكنّ المجموعة تكتسب في مثل هذه التبعيّة التي تميّز الفرد قوّة هائلة، بالنظر إلى أنّ تَعَاقُبَ العصور وتَكَاثُفَ القوى يأتلف عندها من أجل عمل مشترك، عمل يتقدّم بلا كلل ولا يعترف بأيّة حدود نهائية، بما أنّ احتكاك القوّة بالأشياء يولّد دائما إمكانيات جديدة ويفتح آفاقا جديدة على الدوام. وبذلك تكتسب الإنسانيّة شجاعة مرحة وثقة بالنفس فخورة، وتنشأ في مجالها الخاصّ حياة ملؤها الفحولة والوضوح والوعي بغاياتها، وتعرف كيف تتحرّر من كلّ تعقيدات الدين أو الميتافيزيقا. مثل هذه الحياة يمكن أن ينطبق

عليها قول غوته:

«إنّه يقف ثابتا ويرنو إلى ما حوله

فهذا العالم ليس صامتا أمام القادر»(19)

ولكن لا يمكن لتلك الحياة أن تبلغ غاية اكتمالها، دون أن تمنح نفسها مركزا مهيمنا وأن تبني انطلاقا منه كامل محيطها. ولكنّ مثل هذا المركز، حسبما تشهد به التجربة، يكون البحث عنه في مواقع مختلفة، ويكون التساؤل أوّلا عمّا إذا كانت العلاقة بالطبيعة المحيطة بنا أو علاقتنا بأنفسنا، بجوهر الإنسان، هي التي تشكّل نواة حياتنا. وحسب ما يتمخّض عنه القرار، تفترق السُبُل، وتنشأ تيّارات حياة مختلفة بل محاولات بناء أنظمة حياة شاملة. وسننظر أوّلا في تلك الأنظمة التي تعتبر علاقة الإنسان بالطبيعة العلاقة الأساسيّة في حياته.

نظام الحياة حسب المذهب الطبيعي

إنّ نظام الحياة حسب المذهب الطبيعي لا يمكنه، على الأرجح، التشكّل وبلوغ الوضوح التامّ، إلاّ متى استبعد كلّ عناصر الحياة الروحيّة من صورة الطبيعة وقدّم في الوقت ذاته خصوصيّته ذات الطابع الظاهر. غير أن هذا الأمر هو ما حدث أوّلا منذ بداية العصر الحديث. وعلى النقيض من كلّ التأويلات الدينيّة والفكريّة يصبح هنا الهدف الرئيسي للبحث إدراك الطبيعة في وقائعيّتها. وهكذا يتمّ استبعاد كلّ

(19) . ورد ذلك في ملحمة فاوست لغوته، الجزء الثاني، الفصل الخامس.

خاصيّة جوهريّة منها وكلّ مجهود روحي باعتباره تزييفا وتحويله إلى عالم الكتل والحركات عديمة الروح، حيث يحدث كلّ شيء ضمن أشكال بسيطة وشاملة وفقا لقوانين لا تبلى، انطلاقا من ضرورتها الخاصّة ودون اكتراث بما فيه الخير للإنسان. وقد ظهر منذ البداية ميل كبير إلى تقديم عالم الطبيعة على أنّه الواقع في كليّته وفي ذات الوقت تشكيل كلّ العلوم وفقا لأنموذج العلوم الطبيعيّة. فمنذ بيكون[20] (1561–1626) اعتُبر علم الطبيعة «الأمّ الكبرى» وأصل المعارف كلّها، واتّسع هذا الميل ليشمل ما حوله بالتدريج، وازداد توغّل مفاهيم الطبيعة بصورة أعمق في كلّ المجالات. ويطوّر اليوم الكثيرون انطلاقا من الطبيعة صورة الكون ويقدّمون "رؤية الكون العلميّة" على أنّها رؤية الكون بإطلاق. ولكنّ الطبيعة لا يمكنها التوسّع بذلك في اتجاه الكون دون أن تجذب الإنسان أيضا إليها وتشمله بداخلها تماما. كان ذلك مستحيلا طالما بدا أنّ هناك فجوة فاصلة لا يمكن تجسيرها بين أصل الإنسان وجوهره، من ناحية، وبين الطبيعة في كلّيتها، من ناحية أخرى. ولكنّ علم الطبيعة أنكر دائما وبحماس متزايد الاعتراف بمثل تلك الفجوة، فقد زاد في إظهار صلات الوصل وظنّ أنّه يمكنه بلوغ الاتّحاد الكامل بمساعدة نظريّة التطوّر الحديثة.

ولكن إذا كان الإنسان ينتمي بشكل كامل إلى الطبيعة، فإنّ نوع حياته لا يمكن أن يوافق إلاّ نمط حياة الطبيعة، وبذلك وجب عليه أن يجعل من حفظ تلك الحياة والارتقاء بها مهمّته المركزيّة. وهكذا وقع التخلّص

(20) . Francis Bacon الفيلسوف الإنجليزي الذي يُعتبر أب المذهب التجريبي الحديث.

من كلّ ما يناقض تلك الرؤية في التصوّرات المألوفة، ويصبح عندها ما يشترك فيه الإنسان مع الطبيعة نواة وجوده ويحدّد شكل حياته. ولكنّ الطبيعة تبدو هنا بمثابة تجاور لعناصر منفردة، تدخل فيما بينها في آلاف الأشكال من العلاقات وتفرض نفسها بشكل كامل، ولا يوجد هنا أيّ ضَرْبٍ آخر من الارتباط غير التراكم والتركيب وبالتالي لا وجود لتأثير من جانب الكلّ الشامل. لا توجد هنا أيّة صيرورة نحو الاستقلاليّة ولا غايات خاصّة بالحياة الروحيّة، وإنّما تقف الحياة الروحيّة كلّها في خدمة حفظ الذات بالمعنى الطبيعي. ويحصل الحدث في الطبيعة بوقائعيّة خالصة، ولا يعني شيئا أبعد من وجوده المجرّد، يرفض كلّ حكم وكلّ حكم قيمة، لا يعرف خيرا ولا شرّا، ولا يدخل في الحسبان أيّ تميز عدا زيادة القوّة أو نقصانها.

إنّ سحب مثل هذا النوع من الوقائع على الحياة البشرية يولّد انقلابا كاملا ضدّ وضعها الحالي. فما كان لها دائما من خصائص الطبيعة، تمّ إلى حدّ الآن ردّه أو الاستهانة به، وكثيرا ما وقع رفضه، ولذلك لم يكن ممكنا أن يزدهر بحريّة ويترابط فيما بينه. عندما يصبح ذلك ممكنا فهو ما يولّد نظرة جديدة جوهريا للكلّ الشامل، وعندها فقط يتحقّق ارتباط كامل لكلّ أنشطة النّفس بشروط جسديّة، بالقوّة الأوليّة للدوافع الطبيعية وحفظ النفس الطبيعي، بالفعل المُخَلْخِلُ والدافع إلى الأمام للصراع من أجل الوجود، والتوسيع الكبير لوقائعية عمياء بلا غاية إلى مجال الإنسان أيضا. وفي ترابط كلّ ذلك عندها من أجل فعل مشترك، ينشأ نمط حياة خاصّ، يتحتّم أن يطبع العمل الروحيّ أيضا بطابعه.

ولكنّ نمط الحياة ذلك يبدأ بإنكار قويّ، وهو ما يمنح توسيعه في كليّته طابعا عدوانيا. فقد كان عليه أن يفتح لنفسه عندها فقط طريقا سالكا ضدّ تصوّر حياة مختلف ومتجذّر، وكان عليه أن يخوض صراعا مريرا ضدّ كلّ ما ينشد تجاوز الطبيعة، وأنشأ عند ذلك ضلالا كثيرا وجنونا ومزّق الواقع في الوقت ذاته. كذلك فعل، حسب رأيه، الدين والميتافيزيقا وكلّ ما يستند إليها من أخلاق، وهو ما يستوجب اقتلاعهما مع كلّ ما يرتبط بهما من جذور. يتعلّق الأمر بالرفض الدائم لمحاولات الذات التخلّص مما يحيط بها والسير في طريقها الخاصّ وفق خيال يحلّق بحريّة. إنّ الربط الصارم للحياة بوضع الطبيعة يبدو هنا انعطافا نحو حقيقة الحياة وتقويتها في الآن ذاته. وهو يبدو في نفس الوقت انعطافا نحو الحريّة. إذ أنّ مثل تلك التصوّرات المصطنعة تمارس ضغطا متعدّد الأوجه على الإنسان، وكثيرا ما تمنع عنه قوانينها استعمال قواه بشكل كامل. يمكن أن يكون ذلك مختلفا، لو تيسّر للطبيعة الازدهار دون عوائق، ولو لم تكن هناك أحكام مسبقة دينيّة أو أخلاقيّة تُضَيِّقُ الحياة أو تعطّلها. وهكذا تشعر الحياة التي تنشأ هنا بنفسها موجَّهة نحو الحريّة والحقيقة. وإضافة إلى ذلك يصبح من خاصيّاتها القرب الحسّي والوضوح المباشر، والثقة في الوقوف على أرضيّة صلبة والارتباط الوثيق بالمحيط، وينجم عن ذلك إحساس فخور بالقوّة وحركة لا تهدأ. تبدو هذه الحياة وهي تحمل في ذاتها الكثير من التشويق والإنجاز، بحيث يتمّ التخلّي الكامل دون أسف عن الحياة في العالم الآخر.

إنّ ما يترتّب عن ذلك من تَبِعَاتٍ خاصّة بالحياة الروحيّة، يمتدّ تأثيره

ليشمل كلّ المجالات المنفردة، في الفنّ والعلم وفي التربية والتعليم، وفي الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة. يتعلّق الأمر في كلّ مكان بحمل العوامل الحسّية والماديّة إلى تمام تأثيرها وإشباع الحياة بذلك، وأن يبقى الأمر في علاقة وطيدة مع المحيط الكوني، وليس بأيّ حال في التخلّص منه والسقوط في العتمة والضَلاَل. تبدو المعرفة بذلك وقد وجدت الطريق إلى الفعل بسهولة. وكما أنّ علم الطبيعة الحديث، عند التحوّل إلى التقنية، قد منح الإنسان سلطة أكثر بكثير على العالم، فإنّ الانطلاق ممّا يكون قريبا ومرئيّا بوضوح وقابلا للإدراك بالحواسّ، ضمن الحياة البشريّة، يرفع من قدرتنا على الفعل ويجعلنا ننتظر تقدّما دائما للعقل على اللامعقول.

إنّ مدى قوّة تأثير حركة الحياة تلك، وإلى أيّ حدّ غيّرت الوجود الإنساني، يبقى واضحا أمام أعيننا وضوح الشمس. وليس المقصود هنا بالـتأكيد مجرّد آراء ذاتيّة وتمنيّات، بل ينبثق تيّار قويّ من الوقائعية، يجرّ معه المعتقدات أيضا بسهولة. يبدو الأمر وكأنّنا أمام انبلاج فجر جديد، يغدو أمام نوره كلّ ما تقدّم ماضيا مندثرا.

ومع ذلك، فكم من المقاومة ستقف في وجه ذلك عندما يُفْتَرَضُ أن يكون هو وحده الحياة كلّها، وعندما يدّعي منح وجودنا معنى وقيمة! ولكنّ المقاومة لا تأتي من الخارج فحسب، بل كذلك من صُلب الحياة التي تشكّلت حديثا. إنّها تردّ الإنسان إلى الطبيعة، ولكنّها تفعل ذلك بواسطة العمل الفكري. ويقدّم ذلك العمل الحياة بشكل مختلف تماما ويطوّر فيها قوى مختلفة بالكامل، وكذلك مطالب مختلفة كليّا، عمّا كان

يمكن أن يكون بالنسبة لكائن طبيعي مجرّد. إنّ ذلك العمل العقلي ينتج أساسا عن التفكير، وكما رأينا، من التوق إلى الحقيقة. ولكنّ الإنسان يضع نفسه في مقابل الطبيعة في تفكيره، ويدركها ضمن كلّ شامل ويفحص علاقته بها، ومن يفعل ذلك فهو أكبر من الطبيعة وأكثر من مجرّد قطعة من آلياتها عديمة الروح. ولكن ومثلما يتعلّق التفكير بالكلّ بعيدا عن التفاصيل، كذلك يوجد قبل الانطباع الحسّي نشاط عقلي وهو يحوّل كلّ ما يأتي من الخارج. أليس عالَم الباحث المتعلّق بتحويل الطبيعة إلى قوى وعلاقات وقوانين، مختلفا تماما عن العالَم الذي تنقله الحواسّ؟ يرتكز التفكير إلى أسباب، وهو ينشد تحويل كلّ ما يدركه إلى حياة أصليّة، وتغدو الوقائع الخالصة بالنسبة له عوائق متصلّبة ومعطّلات لا تُحتمل. وهكذا يمنع التفكير في حدّ ذاته من خلال وجوده وفعله رَدَّ الواقع في كلّيته إلى الوجود الحسّي.

وكما يصل المذهب الطبيعي المنسجم مع نفسه بالضرورة إلى هدم أركانه، فهو كذلك يواصل إنكاراته بإطلاق فقط إلى نقطة معيّنة، لكي يتخلّى عنها بعد ذلك ثمّ يستكمل طريقه دون اكتراث بفضل مقادير وأشياء ناجمة عن حياة مختلفة يُهملها هو ذاته. إنّه لا يقبل أيّة رؤية للكون تتجاوز مجال التجربة، فليس الإدراك الحسّي المقيّد بأيّ حال، بل وحده التفكير المتروّي بإمكانه إدراك التجربة ذاتها ككلّ وتطويرها إلى رؤية للكون. إنّه لا يهتمّ بذلك، وهو لا يريد تأسيس الأخلاق على الدين أو على الفلسفة ولا يرى أنّ ردّ الحياة كلّها إلى مجرّد دوافع طبيعيّة ينسف كلّ أخلاق، كما أنّه حيث تغيب الوحدة الداخلية تصبح أمور مثل

القناعات والآراء الشخصيّة والطبائع غير ممكنة أصلا. إنّه يؤسّس الحياة على العمل العلمي ويريد من وراء ذلك جعل مفهوم الحقيقة أكثر دقّة، ولكن كيف يمكن أن يوجد العلم والحقيقة، إذا كنّا لا نجد سوى أفراد معيّنين بتصوّراتهم المختلفة والمتغيّرة بلا انقطاع يقفون متجاورين؟ أم هل ينبغي على متوسّط الآراء الذي يتولّد عن حياة الناس المشتركة أن يُعْتبَرَ حقيقة خالصة؟ إنّ مثل هذا المنهج الذي يعتمده المذهب الطبيعي لا يمثّل فقط عدم انسجام في التفكير، بل هو يضرّ أيضا بشكل لا مفرّ منه بوضع الحياة. كيف يمكن لمقادير خفيّة ومتروكة في الخلفيّة، أن تزدهر بوضوح وقوّة وأن تولّد حركة قويّة؟

قد يسمح المذهب الطبيعي، تبعا لذلك، بتطوير الحياة باتّجاه الخارج، أمّا داخليّا فإنّه يتركها متوقّفة تماما، ويكون الفراغ وغياب المعنى الذي ينجرّ عن ذلك غير قابل للاحتمال، بمجرّد طرح السؤال في كليّته. غير أنّ الإنسان في بعده الثقافي لا يمكنه أن يُهْمِلَ ذلك، وهو يكون أقلّ إهمالا له بقدر ازدياد مشاركته في العمل العقلي. كيف ينظر المذهب الطبيعي للحياة باعتبارها كُلاًّ؟ بتخلّيها عن كلّ طابع عقلي مميّز، تنحطّ الإنسانية إلى صِغَرٍ لا قيمة له، وليس لفعلها وما يصدر عنها من قيمة خارج وضعها الخاصّ. ولكن كما تكون الإنسانيّة معزولة في مواجهة الكون، يكون بداخلها الواحد منعزلا عن الآخر. فحيث يتشظّى الواقع إلى ذرّات منفردة، ينتفي كلّ اجتماع حميميّ، وكلّ تعاطف ومحبّة حقيقيّة، ويغيب أيضا كلّ تفاهم متبادل بين نفس وأخرى. وهكذا يقف الفرد وحيدا تماما في الكون اللاّمتناهي. ويكون كلّ فعل مُوَجَّهًا إلى حفظ

الوجود الفيزيائي وزيادة القوّة الطبيعية وتوليد المتعة من ذلك. ولكن هل يعوّض ما يترتّب عن ذلك في أفضل الأحوال الهموم والشقاء الهائل، والانفعال والتفاني الذي تتطلّبه الحياة بشكل متزايد من الإنسان في بُعده الثقافي؟ هل إنّ كلّ هذا التعقيد والجهد في التربية والتعليم وفي تنظيم الدولة والبناء الاجتماعي لم يكن في النهاية إلاّ لبلوغ ما بلغه الحيوان تماما بشكل أيسر بكثير! حقيقة، إذا كان كلّ حراك العالم فوق ذلك يتمثّل في أنّنا ننشد دوما سُبُلاً أكثر عناء لمجرّد الوصول إلى ما وصلت إليه أدنى الكائنات، فإنّه لا يحمل إلينا شيئا جديدا أصلا، بل إنّه لَيَعْنِي على الأرجح تراجعا أكثر منه تقدّما. ويصبح تاريخ البشرية كلّه بتوليده لأشياء جديدة وبسعيه إلى إقامة عالم للثقافة في مقابل عالم الطبيعة، ضَلاَلاً مُشِينًا.

ويتضمّن شكل الحياة هذا، حينها أيضا، تناقضا لا يُحتمل، بحيث لا يمكنه أن يمنعنا من الحديث عن الـ«أنا» وأن نعيش أفعالنا باعتبارها ملكا لنا وأن نشعر بالمسؤوليّة عن ذلك، مع أنّها تُجبرنا في الوقت ذاته على الاعتراف بأن لا شيء ينتمي إلينا في الحقيقة، وأنّنا لا نبلغ درجة الفعل في أيّ مكان ولا يمكننا في الأصل تقديم شيء، بل إنّه فقط في الموقع الذي نعتبره لنا، يحدث شيء، شيء يؤثّر بحيث أنّنا لا نلاحظه إلاّ من حيث كونه ينتمي إلى عالم الأجسام، ولكن لا نستطيع تغييره بشكل من الأشكال. لقد كان يمكن تحمّل ذلك بألم، لو تضمّن دور الحياة الذي أُشِيرَ لنا به بوضوح ملامح حياة جديرة بالمحبّة وشَكَّلَ كُلاًّ متناغما. أمّا إذا كان الأمر مختلفا وتوجّب علينا أن نواصل جرّ الطبيعة معنا، والتي

لا ترضينا إلى حدّ بعيد، فإنّنا سنكون عندها في وضع ميؤوس منه ومقيّدين لمصير قاتم.

ربما لم يعد يحصل الإحساس بتصلّب وخواء نظام الحياة ذلك بما أنّه بتنويره وجب عليه أوّلا أن يشتغل ضدّ قوى مختلفة عنه وينغمس بذلك في أشدّ الصراعات. إنّ الحماس الذي يترتّب عن ذلك قد يبعث الدفء في الكلّ ويضفي الروح عليه في الظاهر. ولكن لنفترض أنّ ذلك التنوير قام بمهمّته وعلّم الإنسان الإحساس بأنّه ليس سوى قطعة من الطبيعة، فماذا سيبقى لديه ليفعله، بل كيف يمكنه الحديث بعدها عن غايات ومهمّات، وهو الذي أصبح الآن تماما مجرّد نقطة عبور لسيرورة بلا روح، سيرورة يتعيّن عليها هي ذاتها الزوال في النهاية بزوال كلّ حياة أكثر تطوّرا في الأجسام الدنيوية المنفردة؟ بناء وهدم، صيرورة وفناء، اندفاع حيوي متوحّش بدون أدنى إضافة، فهل يجب على كائن لا يفهم الوضع الراهن والنظرة المجرّدة، ولا يستطيع إغفال التدبّر في الكلّ، ويجب عليه الوزن والقياس، ألاّ يسقط بالضرورة عند إدراك ذلك في اليأس الكلّي؟

لقد ساعد نظام الحياة الطبيعي بحقّ العلاقة الوثيقة للإنسان بالطبيعة إلى بلوغ غايتها. غير أنّ الحقّ ينقلب باطلا ويغدو ربح الحياة خسارة عندما ترتبط الحياة بمستوى يقف في وجه تطلّعها إلى الأفضل. ولا يمكن للمذهب الطبيعي في الأساس أن يمثّل الحياة في كليّتها إلاّ داخل المجال العقلي الذي أنشأ عمل التاريخ الكوني وِفقًا لسموّ مطّرد على الطبيعة، ويتمّ فيه إتمام قِيَمِهَا والانعطاف بها دون التفطّن لذلك. وكلّما

أمعن المذهب الطبيعي في التهرّب من ذلك الإتمام وازدادت رغبته في الاستيلاء على الحياة بأكملها بوسائله الخاصّة، إلاّ وتوجّب على حدوده أن تكون أكثر وضوحا وأسسه أكثر هشاشة وتعيّن أن يتحوّل النصر الظاهري إلى هزيمة. وهكذا يمكن النظر إلى سير هذه الحركة بعين السلوى، إذا ما استطعنا فهمها بشكل كامل في تدبّر رصين، لا أن نُجبَر على تقاسم الاهتزاز والإفقار الهائل الذي تُهدّد به حياة البشريّة.

رجوع الإنسان إلى ذاته

الثقافة الفردية والثقافة الاجتماعية

عندما يصبح وجود الله أمرا غير مؤكّد للإنسان ويفقد عقل الكون بريقه عنده، وعندما تبقى الطبيعة مع كلّ التقارب الظاهري غريبة عنه وتترك حياته في فراغ داخلي، فلن يكون هناك سوى سبيل واحد لضمان معنى وقيمة لوجودنا. إنّه رجوع الإنسان إلى ذاته، والبناء الشامل لوسطه الخاصّ بهدف تحريك كلّ القوى ومن أجل أكبر سعادة ممكنة. وهو ما يفتتح أيضا نوعا جديدا من الحياة ومن الوجود. فقد كان الإنسان أيضا، إلى ذلك الحدّ، يرى دائرته الخاصّة ويُشكّلها في ضوء عالم لامرئي، سواء أكان ملكوت الله أم عقلا كونيا، ولكنّه حينها فقط صار يوضع في الوجود المرئي حصريا، حينها يمكنه تحرير القوى الموجودة هنا دون حدود والانطلاق بلا قيود في كلّ الاتّجاهات، حينها يرتبط ويَتَوَاشَجُ بأشباهه، ليس بفضل وساطة عالم لامرئي بالدرجة الأولى، وإنما هو عالم التجربة نفسه حدّ الإشباع. وفي الحقيقة فإنّ العلاقات ظهرت هنا في امتلاء هائل، واجتمعت القوى من أجل العمل الأكثر إثمارا، وتوصّل الأفراد أيضا إلى التحرير الكامل لقدراتهم، كما تمّت مواجهة وإبعاد كبير لما يحمله وجودنا من مِحن وآلام، واكتسبت الحياة حركة وامتلاء. يشكّل كلّ ذلك في اجتماعه تيّارا هائلا من الوقائعية

يغمرنا بآلاف المؤثّرات، ولذا فلا يمكن بأيّ حال إنكار أهميّة هذا التحوّل للإنسان إلى ذاته.

ولكن مع كلّ ذلك فإنّ المسألة التي تشغلنا هنا لم تُحسم إلى حدّ الآن، أعني مسألة ما إذا كان بإمكان علاقة الإنسان بالإنسان أن تشكّل المركز المهيمن للحياة كلّها وأن تمنحها مضمونا كافيا. سنجد أنّ الأمر ليس من السهولة بمكان وأنّ الجهد لا ينشطر فقط في ذاته، بل إنّ مسعاه في كليّته يصطدم بحواجز لا سبيل إلى تجاوزها، وأنّ الإنسان يصبح مفرطا في الصغر أمام نفسه، متى اكتفى بذاته وحدها.

نحن نبحث عن الإنسان، الإنسان الذي لا تشوبه شائبة من التباسات العالم، ولكن أين سنجده؟ هل نجده في التقاء أفراد المجتمع، أم في ترابط القوى من أجل حياة مشتركة، أم لدى الأفراد في انكفائهم على أنفسهم وفي تنوّعهم اللامحدود؟ هل هو التجاذب أم التنافر بين الأفراد، هل إنّ اجتماع أو تمايز القوى هو الذي يحدّد طبيعة حياتنا؟ إنّها ليست مجرّد منطلقات مختلفة تخدم الغايات ذاتها، بل إنّ الغايات نفسها هي التي تختلف من حالة إلى أخرى إلى الحدّ الذي تعني فيه الواحدة الرعاية والأخرى التدمير، وأنّ تجاوُرَهَا يدفع الحياة البشريّة في اتّجاهات متضاربة تماما. فإذا وُضعت المجموعة تحديدا في الصدارة وارتبط كلّ نجاح بتطوّرها، فإنّه يجب بالدرجة الأولى أن تكون ثابتة في ترابطها الوثيق مع إبعادها عن أيّ ضرب من ضروب الاعتباطيّة الفرديّة. وهكذا يكون على الفرد بذلك أن يخضع وينضاف إلى المجموعة بشكل كامل، ويكون ما يميّزه مجبرا على اتباع الملامح العامّة التي تطوّر الحياة

المشتركة وتجعلها كذلك متماسكة أمام تقلّبات الزمن. إنّ مثل تصوّر الحياة هذا سيجد غايته الرئيسيّة في تشكيل الظروف الخارجيّة وشروط الحياة ونظام الحياة المشتركة والعمل المشترك بحيث يمكن الارتقاء بوضع المجموعة إلى أعلى مستوى ممكن. وانطلاقا من ذلك تنثال السعادة والمتعة على الفرد بلا قيود. إذ هو مرتبط على ما يبدو هنا، وبداخله أيضا، بما في ذلك آماله وأحلامه، بوضع المجموعة، فهو نتاج بيئته. ومن جانب آخر بالمقابل، يصبح من المشاغل الأكثر إلحاحا تقوية الفرد في حياته لنفسه، وتحريره من كلّ ارتباط وحثّه على تحقيق الازدهار الكامل لخصوصيّته. وسيدفع هذا المسار إلى أعلى الدرجات الممكنة لحركة الحياة وانسيابها، ورفض كلّ ثبات على أنّه تصلّب وكلّ مساواة على أنّها تَنْمِيطٌ لا يُحتمل. أين يكمن حينئذ جوهر الوجود الإنساني، هنا أم هناك، في المجموعة أم في الفرد؟

أن يكون هنا تناقض كبير وحادّ، فهو ما تؤكّده تجارب التاريخ الكوني. فهي تبيّن أنّ موجات كبيرة تتابعت وتداخلت في الكثير من الأحيان، على امتداد قرون، وأنّ صعودها وانحدارها حدّد، أكثر من أيّ شيء آخر، طبيعة العصور الرئيسيّة. فبعد أن أدّى انقضاء العصر القديم إلى التفكيك التدريجي للنُّظُمِ الموروثة وانتقال مركز ثقل الحياة إلى الأفراد، حدث عند نهايته تقريبا ارتداد تصاعدت قوّته على الدوام لفائدة ارتباط أوثق. فقد ربطت المذاهب الفلسفيّة الأفراد، شأنها شأن العقائد الدينيّة، بشكل أوثق ودفعتهم إلى التعاون وتبادل الرعاية. وتلقّفت المسيحية تلك الحركة وقادتها بحرص متصاعد إلى سند ثابت

وتحرّر من المسؤوليّة الفرديّة في نهاية المطاف إلى حدّ أنّ الجماعة الدينية، أي الكنيسة، أصبحت الحامل الوحيد للحقيقة الإلهيّة وللحياة الإلهيّة، ولا يكتسب الفرد نصيبا منها إلاّ بفضل وساطتها. وهكذا أعطت الكنيسة للنّاس عالم فكرهم وضميرهم. كما لم يضمن النظام السياسي والاجتماعي القروسطي للفرد قيمة إلاّ في كَنَفِ المجموعة.

كيف أعاد الفرد، خلافا لهذه الأجواء والتصوّر، اكتساب المزيد من الشجاعة والقوّة في نفسه من جديد، وكيف تحطّم النظام القديم بتطوّر ذلك، وجعل من استقلاليّة الفرد أمرا أساسيّا، وكيف أدّى انتشار هذا السعي، عبر كلّ مجالات الحياة المنفصلة، إلى ظهور عصر جديد يكمن مَثَلُهُ الأعلى في الحريّة، فهو ما نعرفه اليوم جميعا. ولكنّنا نعلم أيضا أنّ ذلك المثل الأعلى لم يعد يحتلّ الحاضر بشكل حصري، وأنّ هناك فضلا عن ذلك تضخّما غريبا للحياة في اتجاه الكبير والضخم وتراكما متصاعدا لقوى وحشود بدائيّة، ولكنّه قد أذكى، قبل كلّ شيء، ظهور تناقضات حادّة ومُمَزِّقَةٍ للوجود البشريّ، تطلّعا قويّا إلى ترابط وثيق للأفراد وإلى تسيير شؤون الحياة بواسطة قوّة أعلى. ذلك ما تبيّنه بشكل واضح وبصورة خاصّة الحركات الاجتماعيّة. ولكنّ مثل ذلك التيّار يصل إلى أبعد منها بكثير، ويَظْهَرُ عموما سعي الأفراد إلى الترابط الوثيق ومن خلال ذلك إلى التعاون ورصّ الصفوف، ميل إلى مواجهة المهمّات بصورة مشتركة واعتماد الكفاح المشترك ضدّ العوائق. كم من الحركة الهادفة إلى التشارك وبناء التحالفات بما فيها ذات الطابع الروحي، إلى الطوائف وغيرها، فهو ما يبيّنه عصرنا، بفارق كبير عن عصر أسلافنا

الكلاسيكي، بوضع كلّ نجاح في حساب قوّة أفراد مستقلّين! وهكذا صار إنسان الحاضر منجذبا إلى اتّجاهات متناقضة وموضوعا تحت تقويات متضاربة. ولا يزال التحرّر من كلّ ما يقيّد الإنسان ويضيّق عليه يمثّل، حسب الكثيرين، كلمة السرّ وما زال ذلك التحرّر يدفع دائما إلى اتّجاهات معيّنة، في حين أنّ الارتباط بالمجموعة، وتنظيم القوى التي تصل إلى العجز عند تحطّمها، هي كلمة السرّ عند الشقّ الآخر، ونحن نعلم القوّة التي تشدّ بها الإنسان الحديث. ولكنّ التحرّر والنظام يصنعان صورا للحياة مختلفة بشكل أساسي، فكيف يمكننا أن نكون متّفقين أصلا مع مثل هذا الانقسام حول معنى الحياة، وكيف لا يكون لانعدام اليقين أكثر من أيّ شيء آخر، والذي يولّد مثل ذلك النزاع، أن يحطّم مثل ذلك المعنى تماما؟

وفي الأثناء كان لكلّ اتّجاه معيّن أمل في ملء الحياة بشكل كامل وإشباعها تماما، بقدراته الخاصّة، إذا ما توصّل إلى انتصار خالص وهيمنة لا حدود لها، ويضفي ذلك الأمل القوّة والحماس على الحركات ويُكْسِبُهَا الكثير من الأنصار. ولكنّ اختبارا أكثر دقّة سرعان ما يبيّن أنّ كلّ نوع من تلك الأنواع متى ساد بشكل حصري، يضيّق الحياة بصورة لا تُحتمل ويسلبها كلّ معنى.

يجوز للثقافة الاجتماعية الاستناد إلى تفكير أكثر عموميّة وغير قابل للنقض، أقصد العلاقة الوثيقة للفرد بالإنسانية وارتباط عمله وتفكيره بها. إنّ الإحساس الشخصي بالمصير الشامل للبشريّة والعمل النافع للأخوّة الإنسانيّة، هو ما جعلته الأديان منذ القديم مِحكًّا لصحّة العقيدة.

وعندما يحتاج الإنسان إلى العزلة من أجل العمل الخلاّق، فإنّ الإنسانيّة تبقى حاضرة لتلك العزلة داخليا وتمثّل قوّة مُوَجِّهَةً للروح البائسة الشاكية التي ترفض ذلك الارتباط الداخلي أو فقط تظنّ أنّ بإمكانها رفضه. ولكنّ مثل هذه العلاقة مع الإنسانيّة تتطلّب ترابطا داخليا للكلّ. وهي تفترض عالما جديدا وأعلى، ملكوت الله أو نظاما روحيا، فيه تبدو الإنسانيّة والإنسان أسمى من التشتّت وفي درجة أرقى من غايات الوجود الطبيعي. ولكنّ ذلك ليس رأي الثقافة الاجتماعية، فهي تزيل كلّ ارتباط بقوّة أو عظمة لامرئية، ولا تعترف لمثل ذلك الوجود بغاية أسمى، وهي لا ترى في الإنسانيّة إلاّ التقاء للأفراد في العالم المباشر المرئي. غير أنّها لا تستطيع ذلك دون وضع حدود لغايات الطموح البشري والحطّ من مفهوم الإنسانيّة. عند مثل تلك التضحية بكلّ السياقات الداخلية لا يبقى من غاية مُوَجِّهَةٍ سوى وضع الأفراد ووضع للمجتمع يضمن لأعضائه أقلّ ما يمكن من الألم وأكثر ما يمكن من المتعة، وتبقى «السعادة لأكبر عدد»[21]. هنا يزول الشكّ في أنّ الثقافة الاجتماعية بتوجيهها العمل إلى الرفاه قد حقّقت إنجازا كبيرا جدّا. فقد وقع التخلّص من الكثير من الحاجة وشظف العيش وإضفاء المزيد من البهجة واللطف على الحياة، والإقدام على عمل مُساعد في كلّ مجالات الحياة وجعل كلّ إنسان جديرا بالاحترام، وبذلك أيضا يتحقّق السموّ به في وعيه. وحصل في الوقت ذاته إيقاظ الإحساس بالمسؤوليّة عند كلّ

(21) . ذلك ما يقوله جيريمي بنثام (1748-1832) الفيلسوف الإنجليزي صاحب المذهب النفعي تعبيرا عن مبدأ السعادة الأكبر. (greatest-happiness-principle)

فرد إزاء وضع المجموعة. لقد حصل بفضل ذلك كلّه تطوير بناء الوجود المشترك بشكل كبير.

ولكن مهما كانت أهميّة كلّ ذلك في جوانب أخرى أيضا، فمن المستحيل أن يمثّل الحياة كلّها وأن يضع للعمل ما يكفي من الغايات. إنّ الرفاهة المنشودة هناك، أي الحياة الخالية من الألم والمليئة بالمتعة، يستحيل عليها إشباعنا. إذ أنّنا كلّما قمنا بطرد العدوّ المتمثّل في المحن والآلام، إلاّ وظهر آخر أشدّ خطرا بكثير وهو الفراغ الداخلي والسأم الذي تحمله الحياة المنشغلة فقط بوضعها الخاصّ حتما معها. ألا يوجد هنا شيء يرسم للإنسان، من الداخل، غاية سامية ويدفعه إلى السعي نحوها. تتطلّب المهمّات الكبيرة مخاطر وتضحية، ويجب على حلّها عادة تهيئة الطريق بواسطة شكّ حادّ ورفض، ولكن كيف يمكن للإنسان أن يخاطر ويضحّي إذا كان كلّ عمل متوقّفا على التفكير في الرفاهة؟ ستكون عندها الموازنة الذكيّة والحساب الحذر للسلبيات والإيجابيات هي المُوَجِّهَةِ للحياة، وكلّ عمل بطولي بداخله ينبغي أن يترك المكان لصغر النفس وضيق الأفق. يهدّد الانشغال بوسائل الحياة بتحطيم الحياة ذاتها. ولكن ذلك بالمقابل أنّنا لا نريد رفاهة الفرد، بل رفاهة المجموعة، وذلك أمر أسمى بشكل جوهري ومن المؤكّد أنّه شيء مختلف، ولكن أن يكون من الممكن أن يوجد على أرضيّة الثقافة الاجتماعية ما هو أسمى جوهريا، فهو ما نشكّ فيه كثيرا. فإذا لم يوجد أيّ عالم داخلي يوحّد الإنسانيّة ويحدّد لها مهمّة، فإنّها ستكون بذلك مجرّد تجاور لأفراد منعزلين، وكذلك لن تكون هناك غاية أسمى من الأهداف التي يرسمها

الأفراد لأنفسهم، لأنّ عمليّة الجمع المجرّدة لا تمثّل سموّا جوهريّا. فالأبيقورية والنفعيّة لا يتغيّران بسحبهما على عدد أكبر من الناس. ذلك هو الخطر الكبير للثقافة الاجتماعية التي بنزعها كلّ وحدة داخلية عن مفهوم الإنسانيّة واعتبارها المجموعة مجرّد تراكم، يصبح لديها المتوسّط بسهولة قاعدة والجماهير هي الإنسانيّة وتميل عندها في الوقت ذاته إلى ربط كلّ شيء بذلك المتوسّط واعتباره الفيصل في الخير والشرّ وفي الحقّ والباطل. ولكنّ ذلك لا يضرّ فقط بحقّ المسألة، فالفرد أيضا يكون عندها مهدّدا أن يُساء تقديره في خصوصيّته، ويُهضم جانبه ويتضاءل.

وبصفة عامّة، تتسبّب الثقافة الاجتماعيّة لمنزلة الفرد في الكثير من الالتباس. فالفرد مدعوّ إلى الاندماج بطيب خاطر في المجموعة والخضوع لغاياتها. ولكن كيف يكون دفعه من أجل ذلك إذا تمّ التخلّي عن كلّ ارتباط داخلي للإنسانيّة؟ ولا يبقى في هذا السياق سوى مصلحة الفرد الخاصّة، ولا يكون ازدهار المجموعة ذا قيمة إلاّ بقدر ما يحمل له من فائدة شخصيّة. ولكن أن تكون مثل تلك الفائدة المنشودة من الضآلة بحيث يستحيل عليها أن تولّد التسليم الكامل والتأثير القويّ فهو ما لا يمكن الشكّ فيه. ولا يستطيع أيّ سعي بالتأكيد وفي المطلق أن يكتسب سيطرة على النفس متى اقتصر طموحه على التأثير الخارجي. فعندما يتمّ بلوغ أمر عظيم في المسائل الروحيّة، فإنّه ينبثق من حاجات داخليّة للوجود الشخصي، من تطلّع إلى حفظ روحي للذات وإلى تجاوز تناقضات لا تُحتمل. فقط متى اعتمد الإنسان على نفسه وحدها وعمل لنفسه، يمكنه أن يبلغ شيئا ما، يكون ذا قيمة عند الآخرين. إنّ من ينشد

التأثير في الآخرين قبل كلّ شيء، فهو يتخلّى عن حقّ الصدارة للعمل، ويتحوّل من سيّد إلى خادم، غير أنّ من لم يكن سوى خادم يتعذّر عليه بلوغ الأسمى. إنّ كلّ هذه الاعتبارات ليست موجّهة ضدّ الجهود الحديثة الرامية إلى تحسين حالة المجتمع والاعتراف بكلّ ما يحمل وجها إنسانيا، بل تستهدف محاولة جعل العمل من أجل المجتمع كلّ ما في الحياة. وإذا حصل ذلك فإنّ مفهوم الإنسانيّة ذاته غالبا ما ينحطّ ليصبح التسطيحُ وإضفاء المزيد من الغلظة على الحياة وكذلك على العمل الثقافي أمرا لا مفرّ منه.

من المفترض أن يصبّ مثل ذلك الفشل للثقافة الاجتماعيّة في مصلحة الثقافة الفرديّة. فالحاضر ذاته يضع أمام أعيننا بوضوح كيف أنّ مثل تلك الثقافة تقف بقوّة ظافرة ضدّ ما يبدو لها مجرّد تنميط وإضفاء للنزعة الآلية ونزعا للروح عن الحياة. من مثل ذلك التحوّل تنبثق حياة أخرى يبرز فيها الأسلوب الفردي والحالة الفرديّة في الواجهة، وتدفع خلال التشكّل كلّ الظروف باتجاه الخصوصيّة والتنوّع حيث تصبح كلّ المجالات المختلفة وسائل لازدهار الأفراد وظهورهم، وترتّب عن ذلك الكثير من الحريّة والنضارة، وبالتأكيد ثراء دافق من الأشكال، وتنشأ حياة خفيفة، مُحَلِّقَةً، مرحة وخالية من كلّ قسر أو تنميط، تسري في ثنايا الوجود كلّه. ولكنّ مثل كلّ تلك المكاسب التي لا تُنْكَرُ والتي تسمح بالإحساس بالمفارقة بالشكل الأقوى مع البناءات ذات الطبقات العميقة وسعي ثقافة المجموعة إلى المساواة، لا تجيب عن سؤال ما إذا كانت الحياة ككلّ تكتسب معنى وقيمة بذلك التشكّل. وتنشأ الشكوك

عندها تحديدا وتلحّ وتتغلّب عندما يكون حاضرا بوضوح ما يمكن أن يعنيه الفرد وثقافة الفرد أصلا ضمن حدود الوجود المرئي. فكون ذلك الوجود يمثّل كلّ واقعنا، وأنّه يقوم باحتواء كلّ حركة داخله، فهو شرط ثابت في تلك السياقات.

يمثّل الفرد، باعتباره جزء من الوجود المجرّد، قيمة تؤخذ كما هي، وهو لا يستطيع تحمّل مهمّة لا في ذاته ولا باتّجاه الخارج ولا يمكنه إنشاء مثل أعلى انطلاقا من طبيعته، يسمو به إلى الأعلى، بل هو لا يمكنه تغيير وضعه القائم حتّى وإن كان مليئا بالثغرات وبالتناقضات وهو يوجد ويبقى على ما هو عليه. وفي ذات الوقت لا يمكن لهذا الوجود المتميّز أن يُفهم على أنّه تعبير أو وعاء لحياة أخرى، حياة روحيّة أو كونيّة مثلا، تتجسّد فيه بشكل خاصّ. لا يمكنه الاعتقاد في أنّ ما يحدث داخله اليوم يعني شيئا ما أعلى من منزلته، ويلزمه أكثر من ذلك بكثير أن يستنفد حياته كلّها في العناية بالوجود القائم وتطويره وفي السموّ بمنزلته الخاصّة. تقدّم الحياة هنا نفسها للإنسان بالطريقة التالية: يُنشئ الواقع كمًّا هائلا من الكائنات المختلفة، وكلّ واحد منها يكتسب بهجة ومتعة من الإحساس بالذات والاستمتاع بها، وباجتنابها كلّ محاولة تقييد أو مُقاومتها، تحمل طريقتها الخاصّة إلى تأكيد الذات إزاء الخارج بشكل كامل وفي ذات الوقت تحياها وتستمتع بها بكلّ قوّة، وتكون مُشَارِكَةً في تلك المتعة بقدر حرصها على ما يميّزها وبقدر تشبّثها بإظهار المسافة التي تفصلها عن الآخرين. ولكنّ إضفاء الفردية ذلك تقوم بإيصاله قدر الإمكان إلى دائرتها الحيويّة في كليّتها وتطبع محيطها كذلك. وبذلك

يخترق الابتهاج بالخصوصيّة والاستقلاليّة والفرادة الحياة كلّها، وهي تبدو وكأنّها تسمو بالحياة عموما وتُشبعها في الوقت ذاته بصورة تامّة. كذلك حسب منهج التفكير الخاصّ لثقافة الفرد التي تدافع عن جانب ومهمّة خصوصيّة للحياة، وأنّها تمارس، انطلاقا من الحركة التي تمثّلها، نقدا وجيها لثقافة المجموعة المجرّدة، هو أمر ينبغي الاعتراف به بطيب خاطر. ولكن كم هي بائسة وجوفاء تلك الحياة المعروضة هنا مع كلّ البهرج الزائد، إذا كان ذلك هو الكمال والغاية! مقبولا قد لا يوجد سوى أفراد بارزين وأقوياء وهؤلاء تساعدهم الأقدار الملائمة على الازدهار وفرض أنفسهم بشكل كامل وفقا لأسلوبهم. يبقى الإنسان هنا كذلك رهين نفسه ووضعه، وهو قد يكون متّجها إلى الاقتصار على الاستمتاع بنفسه دون انقطاع وعكس وإعادة عكس فعله في مرآة أفكاره، وقد يكون له كمّ لا يتوقّف من لحظات الاستمتاع، غير أنّه لا يمكنه تجاوز أوضاع ليست مجرّد تَعَاقُبٍ أو تَجَاوُرٍ ولا يمكنه أبدا تأليف حياته في كلّ داخلي. غير أنّ الإنسان كائن مفكّر ومتدبّر، ومن كان كذلك فيجب أن يتساءل عن الكُلِّ، وإذا لم يحصل شيء من ذلك فلا يمكنه الإفلات من الفراغ ومن الوحشة. قد يمثّل الامتلاء المتنوّع والانتقال الدائم من نقطة إلى أخرى مَدْعَاةً للتسلية لبعض الوقت، ولكنّه يولّد في النهاية ولا محالة تعبا واهتراء تاما. إنّ الإنسان هو إذن مرّة أخرى أكثر من مجرّد حالة وحياته لا تُستنفد داخل الدائرة الخاصّة، ويجب لتلك الحياة أن تهتمّ بما يوجد وراء نقطة الدائرة، بل بلا تناهي الكون، ولا يمكنها إلاّ أن تفعل ذلك، أن تتّخذ موقفها، وأن تتأمّل

وتثمّن انطلاقا منه تلك الدائرة الفرديّة. ولكن طالما حدث ذلك، فيجب أن تكون الخاتمة في النقطة المجرّدة، وحصر كلّ سعي وكلّ إحساس في ضيق تلك المكانة وطابعها الاعتباطي، الوجود المقيّد للفرد بأسلوبه الخاصّ، العجز الكامل عن كسر مثل ذلك الحاجز، وتحديدا غياب حقيقة مشتركة، ومحبّة تؤلّف بين القلوب، لا بدّ أن يُظْهِرَ ذلك كلّه ضيق تلك الحياة وفقرها رغم كلّ الامتلاء المتنوّع.

لقد اهتممنا في كلّ ذلك إلى حدّ الآن بالإنسان وحده، ذلك الذي وهبته الطبيعة فردانيّة قويّة وساعده القدر على ازدهارها الكامل. ولكن ماذا عن متوسّط البشر؟ ألا يُظْهِرُ ذلك المتوسّط الأفراد في الغالب فقط بانفعال باهت من نوع فردي وبابتهاج خافت بازدهارها؟ إضافة إلى ذلك، ألا يمثّل التضييق والتحديد المتبادل للظروف الإنسانيّة أيضا ما يبدو من طريقة فردية في مواضع معيّنة، عادة القيود الأثقل؟ وأيّ دافع يمكن أن يوجد هنا في مواجهة مثل تلك القيود والارتماء في أتون الصراع، هنا حيث لا إشارة إلى هدف آخر غير الاستمتاع الظريف؟ وفي هذا المقام أيضا لا نحتاج إلاّ لطرح السؤال بقطع النظر عن المسارات الفرديّة، ليشمل الحياة كلّها، واختبار ودراسة ما تكسبه تلك الحياة للوقوف على نقص كبير ولكي نرى أنّ مثل ذلك الضرب من الحياة لا يستحقّ التعب المبذول ولا الثمن المدفوع.

إنّ الأبيقوريّة[22] التي تخترق ذلك الأسلوب من الحياة، تبقى دائما قريبة من التحوّل إلى نزعة تشاؤمية يائسة. فالفراغ الذي يحكم بالأساس تلك الحياة المتذبذبة بلا انقطاع، يستحيل على التجربة وعلى المشاعر الإفلات منه على المدى الطويل.

وهكذا تفشل الثقافة البشرية المجرّدة في كلا الاتجاهين اللّذيْن يمكن أن تضعهما. فلا التجاذب المتبادل بين البشر ولا التنافر من شأنهما أن يجعلا الحياة في كلّيتها تكتسب معنى وقيمة.

فثقافة المجموعة تهتمّ بشروط الحياة على وجه الخصوص، ولكنّها تنسى في ذلك الاهتمام بالحياة ذاتها. وتنشد ثقافة الفرد الاهتمام بالذات، ولكن باعتبارها ليست قادرة على النظر خارج الأوضاع واللحظات المنفردة فإنّ الأمر لا يأتلف لديها ضمن كلّ شامل، وهكذا لا يتمّ بلوغ أيّة حياة داخليّة أو عالَم داخلي. وهكذا نفتقد هنا أيضا روحا حقيقيّة، ويبقى كلّ فعل منحصرا في السطح. فلا في هذه ولا في تلك يتحقّق بلوغ حالة حقيقيّة من تحوّل النفس إلى ذاتها. إنّ هذا الفراغ للكلّ، هذا النقص في المضمون، يُخفي، في كلتا الحالتين، الصراع المتواصل لاتّجاه ضدّ الآخر. ومن المؤكّد أنّ كلاّ منهما له حقّ معيّن، غلبة معيّنة ضدّ الآخر، من حيث أنّها تحمله إلى النفاذ وتفرض نفسها حسب مقتضيات الوضع الزمني ويتمّ وضع الحياة في حالة حركة ويبدو التقدّم غير قابل للجدال.

---

(22) . نسبة إلى أبيقور Epicurus (341-270 ق.م) الفيلسوف اليوناني صاحب المذهب الأبيقوري المنسوب إليه، والقائم على مبدأ اللّذة، والأرجح القول إنّ ذلك ما اشتهر عنه ولكنّه قد لا يعبّر بدقّة عن جوهر مذهبه. ويأتي ذكره هنا بالشكل السلبي المشهور.

غير أنّ التقدّم في اتّجاه معيّن لا يعني سموّا بالكلّ، كما أنّ تقدّم حركة ضدّ الأخرى لا يصل بها إلى الإشباع الذاتي، وإضافة إلى ذلك فإنّ تغيّر الأزمنة يجعل ما هو حقّ في فترة من الفترات يتحوّل في فترة أخرى إلى ظلم، وقد تشمل الموجات الكبرى التي تظهر هنا آلاف السنين. وفي الختام يأتي زمن ينتصر فيه التيّار المقابل، ويزيح التصوّر القائم، بل ويناقضه، حيث إمّا أن ينتصر التحرّر على النظام أو النظام على التحرّر. ولكن ما الذي يترتّب عن تلك المعادلة بالنسبة للبشريّة في كلّيتها من مضمون دائم للحقيقة؟

إنّ الثقافات الإنسانيّة تغالط نفسها أساسا حول تفاهتها من حيث أنّها تحاول، من باب الخداع، أن تجعل من البشر أكثر مما يستطيعون هم أنفسهم أو يجوز لهم فعله في مثل تلك الظروف. إنّها تفترض أجواء روحيّة وتضع بداخلها الحياة والجهد البشري، وهكذا يبدو تفجّر ينابيع الحقيقة والمحبّة في تكاتف البشر لجماعة مرصوصة، ويبدو الفرد محمولا من قِبَلِ عالَم روحي لامرئي، ويخدم تطوّر ذلك العالم بعمله. ثمّ يبدو هنا، في هذه كما في تلك، أنّ الحياة تفقد على الأرجح المعنى، ولكنّ مجال ثقافة الوجود المجرّدة يقع التخلّي عنه، ونجد أنفسنا منغمسين في نفس الالتباسات التي كان من المفترض أن يحرّرنا منها التحوّل المذكور.

ولكن سيحصل بذلك قطع ذروة المشكل. فأن يحدث هنا كما هناك إضفاء للطابع المثالي على الإنسان، وأنّ هناك تظافرا خفيفا للقوى وعملا مشتركا مفعما بالمرح، واشتراط تجميع كلّ العقل المتوفر، في حين أنّ الفرد هنا يُعتبَر ببساطة نبيلا وعظيما مثلما هو الشأن عند التفكير في

الأشياء واضحة الأهميّة، ففي ذلك إيمان مؤكّد بالإنسان يكمّل الحالة الواقعيّة ويسمو بها. ولكن هل تبرّر الانطباعات الحاصلة في الزمن الأقرب مثل ذلك الإيمان بالإنسان؟ ألسنا نَشْهَدُ حماسا متوحشا للجماهير وإنزالا للثقافة كلّها إلى مستوى متوسط أدنى، وقياسا لكلّ شيء على الآراء والغايات الشخصيّة، وإضفاء للسُوقِيَّةِ على الحياة، وضغطا أكبر على حرّية الفرد، والكثير من الاستمتاع الطفولي بالإنكار؟ ثم ألا نرى من الجانب الآخر، جانب الفرد، الصغير والضئيل حجما ومضمونا، أنانيّة مَزْهُوَّةً واعتدادا مغرورا بالذات، واللهفة بأي ثمن على المظاهر وليس على الوجود الحقيقي للإنسان، ترقّبا ولهثا وراء الاحتفاء مع احتقار ظاهر للآخرين، تبعيّة ذات صبغة عبودية حتى في المفارقة المنشودة، ولكن قبل كلّ شيء فراغا داخليا. إنّ كلّ ذلك ظاهر للعيان بشكل لا يمكن التغافل عنه، عندما يتمّ الحديث رغم ذلك دون اكتراث عن عظمة الإنسانيّة أو عن تفوّق الأفراد الذين لا يحتاجون إلاّ لطريق سالك كي يقودوا كلّ شيء إلى السعادة والعظمة. هكذا يبدو مثل ذلك الإيمان الغريب بالإنسان، الأكثر تهوّرا من بين أنواع الإيمان. عندما يتطلّب الإيمان من الدين قبولا واثقا لشيء لا تراه العين ولا تمسكه اليد، فكذلك لا يستطيع الذي لا يعني العالم المحسوس كلّ الواقع عنده، أن يشير إلى احتمالات مفتوحة، ولا يناقض الافتراض نتائج التجربة بشكل مباشر. ولكنّ ذلك ما يفعله كلّ إيمان إنساني. فهو لا يكتفي بطلب الاعتراف بشيء لا نراه، بل هو يتطلّب منّا، ضمن مجالنا، تأكيد النقيض التامّ لما يتجلّى أمام أعيننا بوضوح.

وبما أنّ حركة التاريخ أيضا لا يمكنها أن تغيّر شيئا من شروط الحياة الأساسيّة، فإنّ كلّ أمل في منح معنى وقيمة لوجودنا عبر تطوير ثقافة إنسانيّة مجرّدة يتبخّر. وحتّى ولو كانت غاياتها قابلة للإدراك، فلا يمكن إشباعها. أمّا اليوم فتزدهر الكثير من الثقافة الإنسانيّة المجرّدة في العصر الحديث وتجرّ معها حركة الحياة إلى بعيد. ولكن كلّما صارت مستقلّة وكاملة إلاّ وازداد رفضها وطردها لكلّ ما يسري بداخلها ويعمّقها من عمل خلال ألف سنة، وصارت حدودها أكثر وضوحا، وحطّمها استمتاعها بالزمن.

ذلك ما يشعر به الحاضر بشكل متزايد، فهناك تخمة حادّة بالبشري المجرّد، نفور قويّ، بل رفض لكلّ بشري مجرّد ينتشر، يصبح أكثر وضوحا، بحيث نسقط في وهم كامل وأنّ الحياة تفقد كلّ معنى وقيمة، عندما لا يسمو الإنسان إلى الأعلى بفضل قوّة أقوى منه ويستطيع بمساعدتها أن يجعل من نفسه أفضل ممّا هو عليه، فوق ما يسمح له به الوجود المجرّد. إنّ الانفصال عن العالم الأكبر والانكفاء في نوع مخصوص يُفضي به، فيما يبدو، إلى ضيق وضآلة لا يُحتملان، ويَحُولُ بينه وبين عمق وجوده الشخصيّ. وهكذا نسمع اليوم الكثير عن الإنساني الأرقى وعن الإنسان الأرقى، ولكنّ كلّ توق حقيقيّ وجدير بالاعتراف، ممّا يكمن في مثل ذلك الطموح، لا يحمي من الوقوع في كلام عاجز، عندما يتمّ البحث عن ذلك الإنساني الأرقى[23] ضمن عالم

(23) . تلك إشارة لا تخفى إلى نيتشه أحد المقصودين هنا بالنقد الموجّه لمنكري "الحياة الروحية" مثلما يحدّدها رودولف أويكن.

التجربة وفي دوائر الوجود المباشر. فالإنسان مقيّد هنا بصرامة من قِبَلِ الطبيعة والقدر بشكل أشدّ وثوقا من أن يحرّره من ذلك قول ديكتاتوري حاسم يمكّنه من حياة ووجود جَدِيدَيْنِ. إنّ الإنسان المجرّد لا يسمو أبدا عن مستوى الإنسان المجرّد. أي إنّه مخيّر بين القطع مع ثقافة الوجود المجرّدة أو التخلّي عن كلّ سموّ داخلي للإنسان والتخلّي بالتالي عن معنى حياته. وحدها طريقة تفكير سطحيّة ومتسرّعة يمكن أن تعتقد في وجود احتمال ثالث.

ملاحظات وتمهيدات

لقد أثبت لنا تدقيق النظر انطباع الفوضى الذي نستشعره مباشرة مع بداية الحياة الحديثة وزاده قوّة. ظهر كَمٌّ كبير من الحركات التي تدخّلت بقوّة مفرطة وتأثير في وضع الوجود الإنساني، لكي تنسحب باعتبارها مجرّد خطأ، ولكن دون أن تستطيع إحداها أن ترتفع إلى وضع مهيمن على غيرها. وفيما تريد كلّ واحدة منفردة منها أن تتقدّم وأن تفرض نفسها وحدها، تتجاوز بشكل لا يمكن اجتنابه مجال حقّها وتسقط من الحقيقة التي لا جدال فيها، أكثر فأكثر في ما هو إشكالي، بل إلى حدّ الفشل. وهكذا يتوجب علينا في النهاية إساءة الظنّ بكلّ ما يرغب في كسب نفوسنا انطلاقا من وضع الحاضر. إنّ الاعتراف وتطوّر علاقة وثيقة للإنسان بالطبيعة يدقّق نظرتنا للوجود المحيط بنا ويكشف لعملنا عددا كبيرا من نقاط الانطلاق المثمرة، ولكنّه يغدو ضررا فادحا على الحياة، عندما يربطها بشكل كامل بالوجود ما تحت البشري ويرفض

إظهار طبائع البشر الخاصّة بهم، والسعي إلى توزيع أفضل للمزايا المادّية والروحيّة وإلى الاعتراف بقيمة الإنسان أيضا حتّى في المواضع الأقلّ احتمالا، جعلت الوضع العامّ للعيش المشترك يسمو بوضوح ولّد بواسطة غرس الحقّ والواجب مجموعة كبيرة من المواقف الأخلاقيّة. ولكن أن يكون هذا التحوّل قد أوصلنا إلى درجة يسقط فيها كلّ تمييز بين البشر وأن تصبح الجماهير بما هي كذلك معيارا لكلّ حقيقة، فإنّ الحياة الروحية تكون مهدّدة بانحطاط كبير. فالمطالبة بتطوّر أكمل للفرد وبتصميم أكثر فرديّة للوجود، جعل الحياة أكثر تجدّدا وحركيّة وثراء، ولكنّ الربح يغدو خسارة عندما تؤدّي مثل تلك الحركة إلى تخفيف كلّ ارتباط وتحطيم كلّ احترام وإظهار التباهي المغرور بالنفس والخيلاء بها. إنّنا نقع في الخطر هنا في كلّ مكان، وفي الوقت ذاته يتعيّن علينا الموافقة والإنكار، فليس هناك مهمّة يمكن القيام بها دون تحفّظ، بما أنّ كلّ توتّر زائد يستدعي بالضرورة انتكاسة، فإنّ حركات معاكسة تظهر في كلّ مكان، ومن خلال ذلك، اختلاط للأمواج وانعدام أمان كبير.

ولذلك فإنّ التعقيد يصبح كبيرا إلى ذلك الحدّ، لأنّ الحركات الرئيسيّة للزمن الحاضر لا تفترق عن بعضها البعض بل ينقضّ بعضها بعضا بشكل مباشر وتجذب الحياة بمتطلّباتها في اتّجاهات متضاربة. فمن بين فَرْعَيْ تصوّر الحياة المثالية، يشدّد الدين على ضعف الإنسان في حين تؤكّد المثالية المُحَايِثَةُ على قوّته، ويبقى الواقع في الحالة الأولى منقسما في حين ينشد الوحدة في الحالة الثانية. وتتخاصم ضمن ثقافة الوجود

الحديثة محاولات اعتبار الإنسان جزء من الطبيعة أو حصره في دائرته الخاصّة، ويُعتبر الواحد في نظر الآخر ببساطة باردا وعديم الروح والآخر عند الأوّل ضيّق الأفق ومتصلّبا. ولكن قبل كلّ شيء تتنافس ثقافة الفرد وثقافة المجموعة إلى حدّ العداء التامّ. فثقافة المجموعة تعتبر كلّ ما يقف ضدّ المساواة الكاملة والمساواة في الاحترام لجميع البشر ظلما فادحا، مثلما هو الشأن عند النزاع حول القانون الانتخابي، في حين ترى ثقافة الفرد في كلّ مساواة انحطاطا وتسطيحا، وتنتظر حصول الخلاص من أكبر تمايز ممكن بين الأفراد والتطوّر الكبير للملامح المميّزة لكلّ شخص.

غير أنّ التصادم الأكبر وانعدام الأمان الأخطر ينجم عن تأرجح الإنسان الحديث بين العالم المرئي والعالم اللامرئي. فإذا كانت طريقة التفكير القديمة، والطريقة الدينيّة تحديدا، قد اعتبرت كلّ تفان من أجل العالم المرئي نَهْبًا من نظام أعلى وانحطاطا للحياة عن سموّ لا بدّ منه، فإنّ طريقة التفكير الجديدة تستند بالقدر ذاته إلى استقلاليّة كاملة، بل إلى الاقتصار على هذا العالم، إذ يُعتبر حينها الاشتغال بالأشياء ما فوق-الحِسيّة ضلالا للسعي وتبديدا للطاقة، وفي ذلك يبدو أنّ كلّ طريقة لا يمكنها إلغاء أو احتمال الطريقة الأخرى. إنّ الانطباعات والتجارب التي جعلت سيادة النظام اللامرئي أمرا بديهيا في الماضي، بدأت تذوي تدريجيا في القرون الأخيرة، وحتى من يتشبّث بها فهو لم يعد يعيشها بنفس القوّة والإصرار التي كانت في العصور السابقة. ولكن في نفس الوقت لم يَعْثُر الإنسان في العالم المرئي على ما يصبو إليه، ولم يجد، قبل

كلّ شيء، مكانا آمنا ولا ائتلافا متينا للقوى. فنحن نرى هنا أيضا حركات الحياة تتنافر بحدّة، ولكن حتّى عندما تنجح فهي لا تصل إلى إشباع حقيقيّ. غير أنّ ذلك تحديدا هو نتيجة لاستمرار تأثير الطريقة القديمة، فهي وإن بدت في أخصّ ادعاءاتها قد أصبحت قابلة للنقد وتجاوزها الزمن، فإنّها شكّلت الحياة بأكملها، خارج تلك الخصوصيّة، بطريقة تحدّد طابعها بصورة دائمة، وهي أيقظت احتياجات وطوّرت قوى وضبطت أهدافا لا تريد الاندثار من جديد، ويجب الالتزام بمتطلّباتها، في سبيل ما تنشد نفس الإنسان اكتسابه. وفي خضمّ كلّ التحديد والإضعاف الذي لحق بالقديم يبقى استبطانه للحياة ويمنع انفتاحا كاملا على العالَم الذي يحيط بنا من الخارج، فالتشبّث اللامرئي للقديم لا يسمح باستشعار أي رِضًا بالجديد. ومن جانب آخر، فقد اكتسب الجديد الكثير من السلطة علينا حدّ الإفراط، من أن يسمح للقديم، في شكله القديم باستعادة سلطته ببساطة. وهكذا فلا أحد منهما بإمكانه أن يصل إلى الهيمنة الكاملة ولكنّه مع ذلك قويّ بما يكفي لكي يقف في وجه سلطة الآخر. ولكن ما الذي يحصل للحياة في مجملها في مثل هذا النوع من الانقسام؟ ألا يؤدّي كلّ هذا التنافر الذي يواجهنا في النهاية إلى إنشاء حالة من اللاَّسُلْطَةِ الروحية، قد تسلّي فوضاها المتلوّنة أعيننا، ولكنّها تمارس تأثيرها الهدّام على المدى البعيد؟

إنّ مثل تلك اللاَّسُلْطَة الروحيّة تجعل كلّ ما اعتُبر إلى حدّ الآن موثوقا به، يصبح أمرا غير ثابت، حيث يتسرّب الشكّ والجدال إلى أعمق جذور حياتنا. فقد تنازعنا في البداية، نحن أهل العصر الحديث، حول شكل

الدين وتفسيره الحقيقي، لكي يصبح الدين كلّه موضع تساؤل في النهاية. هربنا من التباس الميتافيزيقا إلى مجال العقل العملي كي نجد في الأخلاق حقيقة غير قابلة للطعن، غير أنّ الشكّ والطعن سرعان ما اتّجها إلى الأخلاق أيضا. شمل ذلك في المنطلق الصيغة الموروثة، ليؤدي في النهاية إلى إنكار الفكرة الأساسيّة. وعندما يصبح كلّ شيء فينا وحولنا غير مؤكّد، فإنّ الإنسان ككلّ أو ذلك ما يبدو على الأقلّ، الإنسان كشخصيّة هو الذي يبقى. ولكن كيف يستطيع ذلك، إذا كان كلّ مضمون الحياة زائلا أو غير ثابت؟ ولا نحتاج في الحقيقة سوى إلى شيء من تدقيق النظر كي نتيقّن من أنّ الشكّ والنزاع يكتسح أيضا ذلك الحامل للحياة المزعوم آمنا، بحيث أنّ أساس وجودنا أيضا تحوّل إلى سؤال خطير.

إنّ مثل ذلك الاندثار أو بالأحرى الاهتزاز لكلّ القيم الثابتة يقود ثقافة في درجة عليا من التطوّر إلى وضعيّة لا تبعث على الارتياح بشكل كبير، قوى كثيرة موجودة وتطلب التوظيف ولكنّها لا تجد ربطا كافيا ولا اتجاها ثابتا، وبذلك فهي تصبّ في غير المُحَدَّدِ وفي الفراغ، وتتحوّل الحياة بذلك إلى مجرّد طلب للحياة وإلى توق ولهث وراءها. هذا وضع يكسب فيه التفكير من النوع العائم المجال وتنشأ الثقة في مَلَكَةِ الإبداع، حيث تلتقي القدرات التقنية الباهرة واقتدار جدير بإثارة الدهشة بنقص كلّي للمضمون وحيث نستطيع التعبير عن كلّ ما نريد قوله، ولكن بسبب الخواء الداخلي لا تكون لدينا حقيقة تُقال. وبذلك يتهدّدنا تحوّل الحياة والفعل إلى مجرّد لعبة، وهي لعبة قد تثيرنا ولكن دون أمل في الظَّفَرِ

منها بطائل.

ويتّجه التفكير أيضا إلى انقسام الإنسانيّة الذي يولّد انفصال الحياة عن بعضها. وعندما يتّخذ الأفراد حينها مواقف تختلف حسب خصوصيّاتهم ووضعيّات حياتهم ومهنهم ويتبعون اتجاهات متباينة، ينشأ تقسيم إلى أحزاب وطوائف ومعالجة لكلّ المشاكل حسب موقف الحزب، تلاش للجماعة الداخليّة وخطر العزلة الروحيّة وسط فَيْضٍ مفرط من الاحتكاكات الخارجية. وإذا لم يلطّف الجوّ الروحي الذي تولَّد عن عمل امتدّ على آلاف السنين من النزاعات وإذا لم تحجب اللغة المشتركة التنافر حول المسألة، فلا مجال للشكّ في أنّنا نعيش اليوم داخليا ضمن عوالم مختلفة وأنّ تلك العوالم تزداد انقساما وضيقا على الدوام، إلى أن نصل في الختام إلى درجة اكتفاء كلّ فرد بعالَمه الخاصّ. ليس هناك ما يضغط علينا بشكل أكثر قَسْرًا، فيما عدا اللاّأسلطة الروحيّة، غير مثل تلك العزلة الداخليّة المفروضة علينا.

وكذلك فإنّ الانحدار المحتوم لمستوى الحياة الروحيّة الداخلي، الذي ينبثق من مثل تلك الوضعيّة، لن يكون من الممكن مواصلة تحمّله. إنّ الحياة الروحيّة ليست ملكا مريحا للإنسان، فلا بدّ من العمل الجاهد في سبيل تحقيق استقلاليّتها إزاء الطبيعة المجرّدة والقوى الصغيرة للحياة اليوميّة. يجب أوّلا تجديد الدفاع دوما عن تلك الاستقلاليّة. ولكن كيف يتسنّى حصول ذلك إذا كانت الحياة الروحيّة تتنافر بداخلها إلى تلك الدرجة، وإذا كان لا يظهر في أيّ مكان أمام الإنسان شيء يبعث على الإجلال، بل يبدو فقط متعلّقا برأيه وأهوائه. وحتى تسمو الحياة إلى

العظمة والامتلاء، فإنّنا نحتاج ليس فقط إلى غاية تشمل وتوحّد وتبعث الحياة في كلّ شيء، بل هناك حاجة، مثلما هو الشأن بالنسبة للأجسام العضويّة، لتنظيم اشتغاله أيضا إلى قيود ومقاومة معيّنة. ولكنّ حالة الفوضى الروحيّة تلك لا تعرف غاية ولا أيّ شكل من الحواجز، ولا نحتاج إلى مواصلتها لكي ندرك أنّ هذا الطريق لا يفضي إلى شيء، وأنّ الأزمة الروحيّة ستؤدّي حتما إلى الخراب، إذا لم تجد أيّة حركة مضادّة لها. وسيكون انطلاقا من ذلك مفهوما تماما، كيف أنّ عصرنا، لو نظرنا إليه إجمالا، يقدّم نفسه على أنّه عصر الإنكار. ليس انعدام العقيدة في الدوغما المجرّدة، بل في الحياة ذاتها، كعصر مريض بالرغبة في التصغير وفي الجحود، وكعصر يجعل الإنسان مع كلّ قدراته التقنية يَسْتَصْغِرُ نفسه، كعصر يخضع في الحقيقة، رغم كلّ التشدّق بالعظمة وحبّ الحياة، لضغط قلق شديد وإحساس كبير بانعدام المعنى لوجودنا كلّه.

ولكن مهما أردنا إظهار كلّ ذلك بشكل جليّ فلا يمكن أن يكون هو كلّ عصرنا. كيف يمكن إذا لم يعد هناك ما يعتمل بداخله، أن ينجز أمرا بهذه العظمة وأن يتجاوز في ذلك كلّ العصور الماضية، كيف يمكن أن تملأه حركة بتلك القوة، وطموح لا يهدأ، مثلما نرى ذلك حولنا؟ وحتّى وهو يشعر بمثل تلك الأضرار والتشتّت وصيرورة انعدام الأمان بقوّة وبألم، فهو ما يبيّن بوضوح كاف أنّه لا يقبله بشكل كامل. وفي الحقيقة يبقى وينمو، وسط كلّ التعقيدات، الانطباع المتمثّل في أنّه وراء كلّ صراعات وضلالات العصر تكمن حياة أكثر حسما، بحيث تبحث عن نفسها فيها نافثة من خلال ذلك القوّة والحماس في ثناياها، وحتّى لا

يتحوّل أيّ شيء فيها حتما إلى الاعتداد بالنفس وهو ما يعني إبراز الحاجز بالدرجة الأولى أكثر من تجاوزه، وأن يطفو بالدرجة الأولى كالطيف فوق سطح الماء، دون أن يصل إلى الفعل.

لقد أصبحت حلول الماضي غير كافية بالنسبة لنا. ولكن ليس لأنّنا فقدنا الإحساس بالحقّ وبالعظمة، مثلما يريد أن يقنعنا أنصار القديم، بل لأنّ الوضع التاريخي الكوني للحياة الروحيّة يضع مطالب لا تناسبها الحلول الموروثة مثلما هي قائمة. فالتناقضات التي نعاني منها مثلا، ليست في الحقيقة وليدة اليوم أو الأمس، إذ أنّ فحصا أكثر دقّة يجدها أيضا في العصور الماضية. ولكنّها لم تتحوّل إلى تناقضات لا يمكن التوفيق بينها إلاّ عندنا، بحيث أنّنا، بسبب تفكيرنا التاريخي ومقارنتنا بين العصور، نرى الخصوصيّ والمختلف بين أشكال الحياة بأكثر حدّة. ولأنّنا في نفس الوقت، بقوّة رغبة أقوى في الوحدة، لم نعد نقنع، مثل العصور الوسطى، بمجرّد التجاور أو بالترتيب البارع للأشكال المختلفة، بل نطالب، تحت ضغوط قاهرة، بعلاقة ارتباط داخليّة. وليس ذلك لأنّ قدراتنا صارت أقلّ ولا لأنّ المهمّة غَدَتْ أكبر، وأنّ انحلال الحياة ينتشر لذلك السبب أو لأنّنا لم نعد، في الأثناء، في مستوى تلك المهمّة. ولكنّ المهمّة لا تأتينا من الخارج بل تنبثق من وجودنا شاهدة على عظمة ذلك الوجود. إنّ انعدام التناسب بين إرادتنا وقدرتنا يبقى أمرا بديهيا، ولكنّ الإرادة أيضا، طالما كانت نزيهة وقويّة، فإنّها سَتُثْقِلُ كفّتها في الميزان حتما. ومثل تلك الإرادة ليست، في حقيقة الأمر، منعدمة في الوقت الحاضر.

فلنحصّن أنفسنا إذن من إساءة تقدير عصرنا لأنّه يبدو غير ناضج من الداخل ويحمل تناقضات كثيرة. فليس هناك عصر سابق شكّل إمكانات الحياة بمثل ذلك الامتلاء وجعلها تتفاعل بمثل تلك القوّة، وليس هناك عصر تناول مشكلة الحياة بمثل ذلك الاتساع وعالجها بمثل ذلك الحماس، مثلما فعل عصرنا. لقد كان الأمر أسهل في العصور الماضية من باب أنّ الشكوك والنزاعات تركت جانبا أساسيا محدّدا دون أن تشمله فبقي ضمن مجال مشترك. وإذا كان الاهتزاز لم يترك شيئا إلاّ ولامسه فإنّ ذلك يعود في جانب كبير منه إلى أنّنا نريد تأسيس تفكيرنا وفعلنا أكثر على نشاطنا الخاصّ وتجاربنا ونرسم بذلك طموحات أكبر. ويجب أن لا نقلّل من مدى اتّساع الأفق والحريّة التي يوفّرها هذا العصر لكلّ فرد حتى يبحث عن طريقه الخاصّ، ولا من قيمة طموحه الكبير إلى تعميق الحياة وتثبيتها، ولا من التقبّل الكبير الذي يحمله لكلّ ما يبشّر بتخليصها من الالتباسات. ثمّ إنّ الانقلاب هنا واضح جليّ. فإذا اتّجهت الحركة الرئيسية إلى حدّ الآن أكثر نحو البُعد والاتّساع، فإنّ مطلب التوحيد والتركيز ينمو الآن بوضوح، وتكسب مشاكل الإنسان في كلّيته وفي جوهره من جديد قوّة أساسيّة وتشمل عالم الثقافة في مجمله، ولا يتعلّق الأمر إلاّ بتبنّي تلك الحركة ومواصلتها بأفضل ما يتوفّر من القدرات. عندها يحصل الاطمئنان إلى أنّ إعادة الإنسان إلى النواة الأعمق لكيانه سيخدم في النهاية تجديد دماء الحياة وتمتينها.

ولكنّ الغاية المنشودة في ذلك تتبيّن بوضوح من خلال نوع الالتباس. ليست تأويلات الحياة بأيّ حال هي التي تتعارض ببساطة، بل الحياة

ذاتها هي التي انقسمت إلى تيّارات مختلفة. فقد انقسمت من داخل كيانها، ولا يمكن الخروج من ذلك إلاّ ببلوغ حياة متعالية على الالتباس، حياة تعالج التشتّت وتستطيع التمييز في كلّ بناء بين الحقّ والباطل. ولبلوغ مثل تلك الغاية يتعيّن الدفع باتجاه التقدّم والارتقاء بعيدا عن الوضع القائم، غير أنّ الوضعيّة الجديدة التي نسعى إليها قد لا تستطيع تحمّل ما نصبو إليه، ما لم تكن منتمية إلى وجودنا وما لم تكن مؤثّرة على الدوام. أما الجديد فيها فلا يمكن أن يكون إلاّ من حيث كونه ظاهرا في الواجهة ويتلخّص في كُلّ شامل. ولا يكفي هنا أيضا إنشاء تركيبات مناسبة بدرجة تقلّ أو تكثر، بل ما يهمّ هو كشف واقع الأشياء والقرار حول الوقائعية. غير أنّ الوضع الذي يكون هنا محلّ سؤال وربط الحياة بكلّ شامل ومهيمن، لا يأتي إلينا جاهزا، ويجب علينا، لكي نتأكّد منه، أن ننشئه في أنفسنا ونطوّره فينا، ولا سبيل إلى ذلك بدون وعي وتعميق ذاتي للحياة. فلننشد إذن بمثل ذلك الوعي الذاتي بلوغ مرحلة البناء، بعيدا عن النقد المجرّد. ذلك ما بيّنته لنا في كلّ الأحوال الملاحظات التي أوردناها، وأنّ مثل ذلك السعي ليس سعيا عديم الجدوى. إنّ أزمة روحية كبيرة لا يمكن تجاهلها، وفي الوضع الحالي لا يمكننا التوقّف ببساطة، إذ يجب علينا إمّا أن نسقط داخليا أكثر فأكثر رغم كلّ النجاحات الظاهرة، أو أن نجد الشجاعة والقوّة للسموّ الروحي الذاتي وإلى قهر التناقضات. من المؤكّد الثقة في أنّ ما يشعر بالشباب في الإنسانية، يتبع الطريق الثاني، ولكنّ الشباب لا يقاس، في مثل هذه المسائل، بعدد السنين.

محاولة تأسيسية
الميزة الأساسية للحياة الروحية

ظهور حياة جديدة لدى الإنسان

يشكّل السؤال عمّا إذا كانت حياة الإنسان تحصل كلّها داخل الطبيعة، أم إنّها تُطوِّرُ نوعا خاصّا أرقى منها، منطلق إدراك الذات. لا شكّ تحديدا في أنّ الإنسان ينتمي أولا إلى الطبيعة من الداخل كذلك. فهي لا تحيط به من الخارج فحسب، بل تمتدّ أيضا إلى أعماق حياته الروحية. إذ أنّ ذلك أيضا إلى حدّ كبير مجرّد نوع من التجاور والتقاء عناصر موجودة، مثلما تبيّن أحداث الطبيعة. ومثل ذلك ليس سوى من باب التفاعل مع المحيط، حيث يأتي كلّ انفعال من الخارج، ويتّجه كلّ فعل نحو الخارج. ولكن مهما كان ثابتا مدى شمول مثل هذا الحدث لحياتنا في اتساعها، فإنّ أيّ تأمّل أكثر دقّة، وكلّ اختبار أكثر نفاذا للمنزلة الإنسانيّة يبيّن أنّ حياتنا الروحيّة لا تُسْتَنْفَدُ في مثل ذلك، بحيث تحطّم الإطار القائم حولها في كلّ انفتاحاتها الأساسيّة وإدراكاتها وأحاسيسها ومساعيها وتُظهر نوعا خاصّا بها في مقابل الطبيعة المجرّدة. ولكنّ هذا لا يحدث ببساطة لدى الفرد المجرّد، بل أيضا في وجود البشر المشترك وفي عملهم المتضامن.

إنّ المعرفة في مجال الطبيعة هي ربط لانطباعات منعزلة، ويولّد بقاء وتخزين تلك الانطباعات نسيجا معيّنا ونوعا من التجربة، ويمكن أن تكون هناك درجات مختلفة. ويبيّن تأمّل حياة الحيوانات، أنّ التسلسل في ارتقاء الكائن يكون أكثر اتساعا واحتجابا بحيث يكون للذكاء على الدوام دور أكبر. ولكنّ كلّ ما يمكن بلوغه عبر ذلك، يبقى منفصلا عن التفكير من خلال الفجوة الأكثر اتّساعا، ويتجلّى للإنسان في ذلك الحدث المتّسم بتداعي الأفكار. فالإنسان ينفصل عن محيطه عند الانتقال إلى التفكير ويبدو في نفس الوقت أرفع من كلّ انطباع مجرّد. ويمكن للإنسان، باعتباره كيانا مفكّرا، أن يكون في مواجهة المحيط بأكمله وأن يتأمّل علاقته به، وتُعْلِنُ نَفْسُهُ بذلك استقلاليّة داخليّة، والقدرة على إطلاق الحركة استنادا إلى ذاتها. كذلك هو العلم باعتباره شهادة لعمل مشترك، مختلف جوهريا عن كمّ التصوّرات التي تتجلّى فيها مظاهر الحياة اليومية. فقط طالما أسّس البشر حياتهم على التفكير يصبح ذلك عملهم الخاصّ، في حين أنّ التصوّر بارتباطاته المتبدّلة يتلاعب بنا دون إرادة منّا ذات اليمين وذات الشّمال وفي تبعيّته وعرضيّته لا يمكنه أبدا أن يكون حاملا للعمل الثقافي. ولكنّ مثل تلك الاستقلاليّة لا يمكن أن يبلغها التفكير إلاّ عندما يتجاوز وضع التجاور المجرّد وينشئ مشروعا شاملا يستوعب فيه كلّ العناصر المنفردة، ويوحدّها من الداخل ويصنّف المجال كلّه ويرتّبه. كذلك ينبغي أن تكون الأجزاء المكوّنة للمفهوم، أو ما يُعرف بالخصائص المميّزة التي تتحدّد بصورة متبادلة انطلاقا من وحدة شاملة بأكثر دقّة، وكذلك ينشأ

نظام المنظومة، يجعل المركبات الكبرى للعمل ممكنة ويترك فكرة الكلّ الشامل تؤثّر في كلّ موضع مخصوص. تُظهر الحياة هنا بِنْيَةً مختلفة تماما عن مجرّد التجميع. وفي النهاية يعلن التفكير أيضا إلى ذلك الحدّ وضعا جديدا من الحياة، عندما يتميّز عالم الأشياء الموجودة لذاتها بكلّ وضوح عن الذات وعن حالاتها، عالم يبدو للوهلة الأولى وكأنّه غريب بالنسبة للإنسان، غير أنّه يسعى جاهدا للخضوع له قدر الإمكان وهو لا يتخلّى عن ذلك بتاتا. وفي مثل هذا الاتجاه للسعي إلى الأشياء يظهر ارتقاء داخلي للحياة فوق الأوضاع المجرّدة، صيرورة نحو الاتّساع في الذات. لقد تكرّر دائما اتّهام البشريّة بأنّ الأشياء تبقى منغلقة بصفة أزليّة أمامها، ورغم ذلك فإنّها تعود دائما للاهتمام بها والسعي إليها، وتبدو أنّها لا تستطيع التخلّي عنها بشكل دائم. ولكن حتّى التخلّي ذاته، بوعيه أنّه وراء دائرة تصوّرنا توجد حقيقة لا يمكن بلوغها، فهو يوحي بوجود طريقة ذهنية مختلفة جوهريا عن مجرّد آلية من التصوّرات. فالنفي بدوره يقوم دليلا على حضور المشكل والانشغال به.

يُبيّن الإحساس الإنساني حركة متواصلة مشابهة. لا يبقى الأمر، مثلما هو لدى الحياة النفسية الحيوانية، مرتبطا بالتأثّر الحسّي، بل يتولّد من الداخل انطلاقا من حركات النفس الخاصّة، وحتّى إن بدا أنّ هناك مشاركة جسديّة في الحركة تصاحب مثل ذلك الإحساس، إلاّ أنّها تبقى مختلفة أساسا عن الحسّي المجرّد. كم أنّ السعي البشري إلى السعادة بعيد غالبا عن الشعور الحسّي بالراحة، وكم من مرّة وقف ذلك الشعور في طريقه! وهكذا فلا يقتصر الإحساس لدينا على الاستثارات المنفردة من

اللذّة أو الألم. فالفعل والخلق يستهدفان على الأرجح وضعا شاملا للحياة، وحالة من الرضى، من الطمأنينة، وتؤثّر تلك الحالة الشاملة في تقييم التجارب المنفردة بدورها وتعطيها قيمة معيّنة. إنّ سعادة الإنسان لا تُقاس بكميّة اللّذة المعروضة. ففي الأوقات القاسية وفي أقصى حالات انعدام المسرّات، يمكن للبشر أن يشعروا بالفرح في حياتهم، في حين أنّ أكثر امتلاءات المتع ثراء لا تحمي من الفراغ الداخلي ومن القلق العميق، مثلما يشهد على ذلك عصرنا. يمكن للإحساس في النهاية أن يتحرّر من الارتباط بحالة الفرد، فقد يطوّر في الحبّ والشفقة تعاطفا مع مصير الآخرين، وقد يتولّد الفرح أيضا من بلوغ الحقّ أو من تحسّن الأوضاع. وهكذا كان الحبّ والشفقة قوى محرّكة للديانات الكونية الكبرى، وكذلك فلن يكون ممكنا دون ابتهاج داخلي بالأمر أن يبلغ العمل الإنساني مراتب العظمة وأن يكتسب القوّة التي بلغها في الحقيقة. وتبعا لذلك فإنّ ما يبدو الأكثر خصوصيّة تحديدا، هو الذي يشير لدى الإنسان بالذات إلى ما هو أسمى من أَنَاهُ الصغير.

ويبيّن مجال الرغبة حركات مشابهة. ويبرز في إرادة الإنسان المتعلقة بإعلاء السعي فوق الحتميّة القائمة للدافع الطبيعي، ويكتسب العمل استقلاليّة وهيمنة عُلوية ضدّ كلّ ما يضغط عليه من الخارج، وتبلغ الجماعة الإنسانيّة مثل تلك الاستقلاليّة من خلال بناء الثقافة في مقابل الطبيعة المجرّدة. فمن خصوصيّات الإنسان أن لا يقبل قَدَرَهُ مثلما صادفه بل إنّه يسعى إلى إعداده وأنّه يطرح من تلقاء ذاته مطالب ويقدر على تنفيذها. غير أنّ مثل تلك الصيرورة نحو الاستقلاليّة تقتضي تأليف

المساعي المنفردة في وحدة داخلية، ولا ينبغي لتلك المساعي أن تسير متجاورة أو متداخلة، بل يجب أن تخضع لهدف رئيس بحيث تتحكّم المهمّة في الوضع العام وفي معنى كلّ مهمّة منفردة أيضا. وكذلك حيث نتعاون في الدولة والمجتمع، يتمّ الدفع إلى إنجاز حالة عامّة يشعر فيها الإنسان ككلّ بالرضى والسعادة بعيدا عن تعدّد المهاتّ المنفردة. والمساعي التي تنقصها الفكرة والأمل في مثل ذلك الوضع الشامل، لا يمكنها أبدا أن تكسب الإنسان في كليّته. ذلك ما تبيّنه الصراعات الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة في العصر الحاضر بوضوح كامل، وهي تبيّن خطر كلّ «أحزاب الوسط»[24] في إعادة طرح الأسئلة المبدئية. وعند محاولة تصوّر أدقّ للخير الأسمى تظهر مرّة أخرى في النهاية المطالبة بتجاوز الوضع الذاتي ومنح الحياة المزيد من الاتساع الداخلي. إذ أنّ السعادة باعتبارها مجرّد متعة للإنسان، حتىّ وإن كانت لكلّ البشر، تصبح عندنا صغيرة وشديدة الضيق، فكلّ قمم النشاط الروحي كانت متحدة في سعيها إلى السموّ بالإنسان فوق الهموم من أجل الارتفاع باللذّة المجرّدة أو الاستعمال المجرّد وتحديد غاية لحياته، بحيث يسمو بنفسه ويجعل منها أمرا أعظم.

كذلك تُظهر كلّ الجوانب الثلاثة للنشاط صيرورة نحو استقلاليّة الحياة الداخلية، وبناء كُلٍّ، وسعيا لتجاوز الوضع الإنساني. ومن الواضح أنّ كلّ ذلك ليس مجرّد امتداد للطبيعة، بل يشكّل قطيعة معها

(24) . "أحزاب الوسط" (Mittelparteien) هي أحزاب دينية في ألمانيا خلال القرن التاسع عشر.

وبداية نقطة انطلاق جديدة، بل تحوّلا للحياة. ما يصبح جليّا من غايات وسبل ومن قوى وحركات فهو بتأثيره الكلّي، وطابعه الداخلي ونشاطه الذاتي إزاء الطبيعة بطريقة جديدة تماما، لا بدّ أن يبدو انطلاقا منها لغزا غير قابل للفهم. وهكذا فإنّ هناك في ذلك كلّه طورا حياتيا جديدا لا يمكن تجاهله. إلى أيّ مدى يصبح ذلك الطور الجديد واقعا لدى الأفراد والشعوب والعصور بل لدى البشريّة كلّها، فهو ما يبقى سؤالا مستقلاً بذاته قد يتضمّن الكثير من الالتباسات. ولكنّ كلّ تلك الالتباسات لا يمكنها خلخلة حقيقة ظهور حياة جديدة. وكون هذه الحياة الجديدة أيضا تتميّز بخصوصيّتها في تشكيل الواقع بصورة أقلّ بساطة، فهو ما لا يجوز أن يكون كافيا ليَعِيبها. إذ ليست أكبر درجة ممكنة من البساطة للبشر بل الحقيقة هي غايتنا، والحقيقة تبقى الحقيقة، حتّى ولو كانت غير مريحة. كيف ننظر إلى باحث في الطبيعة يتجاهل مجموعة من الظواهر ولا يأخذها بعين الاعتبار، فقط لأنّها لا تتلاءم مع النموذج المألوف للمفاهيم والنظريات؟

ولكن كيف يجب فهم هذه الحياة الجديدة باعتبارها كلاّ؟ عند البحث فيها من الأرجح العثور من خلال ذلك على اتجاه محدّد، بحيث يكون إنجاز الحياة الروحية في مجمله مقصورا على مستوى الطبيعة ثمّ يتمّ تقدير ما يضيفه للنوع الجديد في المقابل مقارنة به. ومثل ذلك الإنجاز الإجمالي يمكن رؤيته بسهولة. ومهما أظهرت الحياة الروحية من أشكال متنوعة ودرجات رفيعة مختلفة في مستوى الطبيعة، فإنّ مهمّتها تبقى دائما مقتصرة على خدمة حفظ الوجود الطبيعي للفرد أو للنوع. وكلّ

الذكاء والحيلة والمهارة مهما أثارت دهشتنا، فهي لا تتجاوز حدود حفظ الذات ذلك، وما تحتفظ به نوازع الحياة الفردية لعالم الحيوان من مهمات التحرّر من ذلك لا يجتمع في كلّ شامل، ولا يشكّل دائرة خاصّة، ولا تنتج عنه أيّة حياة جديدة. وهكذا فإنّ النشاط الروحي في هذا المقام مجرّد جزء من سيرورة حياة طبيعيّة وباعتبارها كذلك فهي تبقى دائما متّجهة إلى الخارج، وتقوم بشيء من أجل ذلك، ولكن ليس تنفيذ عمل معيّن بداخلها. فالحدث لا يرتقي هنا من حدث خارجي إلى حدث داخلي. وذلك ما يحصل ولكن بالتأكيد ليس في متوسّط الحياة البشريّة، بل طبعا داخل المجال الإنساني. هنا تعود الحياة لذاتها، وترتقي ممّا يشبه حالة السُبَاتِ إلى طور اليقظة الشاملة التامّة، وتشعر في الوقت ذاته بأنّ ذلك الارتباط الكامل بخارج غريب لا يُحتمل، تريد أن تقوم على ذاتها وأن تنشغل بها. ولكن لا يمكنها بلوغ ذلك دون تحوّلات وتشكّلات إضافية في رؤيتها العامّة، وبمثل ذلك الاتجاه إلى الذات يتمّ ولوج درب يؤدي إلى مناطق جديدة، تكون غايتها بادئ الأمر في موضع بعيد جدّا.

إنّ السعي إلى مثل تلك الغاية يستحيل عليه الاكتفاء بالنوع المألوف من النشاط الروحي، بل سيدفع بالضرورة إلى ما هو أرفع منه. إذ أنّ ذلك تحييه وتثبته القوة الروحيّة فقط في شيء يوجد أمامها مثل شيء غريب، حيث يكون للذات شأن مع موضوع موجود خارجها. وكذلك نحاول تصوّر الطبيعة المحيطة بنا في الفكر، وكذلك نحسّن الظروف المحيطة بنا، وكذلك نقيم فيما بيننا العلاقات الأكثر تنوّعا في التعامل وفي التنافس. وتزدهر القوى الروحيّة على ذلك الدرب باتّساع متزايد.

ولكن طالما وُجِدَ الموضوع مثل شيء غريب في الخارج، فإنّ الحياة تكون منفصمة، ولا تعود إلى ذاتها ولا تحوّل العمل الهائل إلى مكسب. ولا تحيي كلّ الانفعالات والجهود الروح في كليّتها، ولا ينشأ عالم للحياة الداخليّة ولا يتطوّر. ولكن في ذات الوقت يضع مثل انفصام الحياة ذلك حدودا متصلّبة لكلّ عمل. إنّ البحث الذي يبقى موضوعه دائما في الخارج لا تترتّب عنه أبدا أيّة معرفة حقيقيّة، ولا أيّة ألفة داخليّة مع المسألة، وتقتصر قدرته على ردّ مقادير مجهولة كثيرة إلى واحد مجهول، وهو ما يجعل الأمر يبدو أكثر سهولة، ولكن لا يحلّ لغزها. طالما تأمّلنا وعاملنا الناس الآخرين، إضافة إلى ذلك، فقط على أنّهم موجودون في الخارج، فقد تتغيّر بعض الأشياء وتتحسّن في الحياة المشتركة. ولكنّنا لا نصل إلى جماعة حقيقيّة ولا إلى سموّ داخلي للإنسان وللإنسانيّة باتباع ذلك الطريق. هكذا تنحصر حياتنا في حدود ضيّقة متى استحال تجاوز الانقسام بين القوّة والأشياء بشكل من الأشكال. ولكن كيف يمكن أن يحدث ذلك بغير إدماج الأشياء بدورها في سيرورة الحياة وأن تجتمع القوّة والأشياء ضمن كلّ شامل؟

أن يحظى شيء من ذلك القبيل في مجال البشر بالأولويّة، فهو ليس محلّ شكّ وهو أكثر ما يكون وضوحا في الأخلاق وفي علاقة الإنسان بالإنسان. إنّ فكرة الواجب لا تظهر للوجود إلاّ عبر استبطان للقانون في الإرادة والحياة الشخصية. فالأمر المفروض من الخارج لا يمكن أن يكون مؤثّرا إلاّ بوضع الثواب أو العقاب، غير أنّ ذلك سيقضي دون شكّ على الطابع الأخلاقي للعمل. وهكذا وجب على مثل ذلك الأمر

أن يسكن دواخلنا. ثمّ إنّ المحبّة في حدّ ذاتها لن تكون ممكنة، ما لم يكن موضوعها مُسْتَبْطَنًا، سواء أكان فردا أم مجموعة أكبر، في دائرة الحياة الخاصّة وفي الوجود الشخصي. فقط عندما يكتسي ما يبدو غريبا بذلك حضورا داخليا، يحصل تحرّر من الأنا الصغيرة واتّساع للوجود الشخصيّ. وهكذا فإنّ كلّ قانون إذا كان أكثر من صيغة خارجية، فهو يفترض وضعا للنفس موضع الآخر وتأمّلا للمسألة من زاوية نظره. ويبيّن الفنّ بوضوح خاصّ وجود أشكال مختلفة من الإبداع ولكنّ تجاوز مثل ذلك التناقض هو وحده الذي يفسح المجال لبلوغ الأرقى منها. إذ أنّ ذلك ليس مجرّد محاكاة لموضوع يوجد في الخارج، ولا أيضا مجرّد انعكاس لذاتيّة موجودة بالصدفة، بل إنّ الإبداع يربط هنا التناقض بين الذات والموضوع، ويتمّ نقل الموضوع إلى أرضيّة الروح ويلتقي هنا بالطاقة البنّاءة، حيث يلتقي الاثنان ويتداخلان ويتساميان بشكل متبادل وينبثق عالم خاصّ يحمل ما لا نهاية له من الجدّة ومع ذلك فهو موجود داخل الحياة الروحية. وكذلك فإنّ المعرفة الحقيقيّة لا يمكن حتى السعي إليها، طالما أصرّ الموضوع على البقاء في الخارج، ولا يُعتبر جزء منّا، بحيث نَجْهَدُ بحثا فيه عن جوهرنا الأعمق. وهكذا تبني القوّة التي بها قد يمسك السعي إلى المعرفة بالنفس، شهادة مؤكّدة على أنّ عالم الأشياء مرتبط بنا داخليا بشكل من الأشكال.

إنّ مثل هذا الامتلاك للموضوع يشهد على اتساع أكبر للحياة. غير أنّ هذا البناء باتجاه الاتساع، إذا ما أُرِيدَ له أن يكون مثمرا، لا بدّ له من ترك المجال للذهاب باتجاه تكوين عمق. لا يمكن للقوّة والأشياء أن

يتتابع تأثيرهما بنجاح دون أن يشملهما كلّ، ولا ينبغي لذلك الكلّ أن يكون مجالا فارغا، تقتصر فيه القوّة والأشياء على الالتقاء، بل يجب أن يكون قدرة أقوى، بحيث يشدّها إلى بعضها البعض ويستوعبها في حياة واحدة. ولكنّ مثل تلك القدرة لا يمكن أن توجد دون أن تتراتب الحياة في ذاتها وتكسب بذلك عمقا، وتتشكّل صورتها عندها في ذلك الاتّجاه، بحيث تنشد الكلّ، وتسعى إلى تمامها في إذكاء التناقض بين القوّة والأشياء وتجاوزه. تُظهر الحياة هنا طبقتين: نجد في الأولى كُلاًّ شاملا، لم يبلغ طور التشكّل في المنطلق أصلا وهو تطلّب للحياة أكثر منه حياة كاملة، ونرى في الثانية انفصالا بين القوّة والأشياء، وتجاوزا يحتاج إلى ارتباط وثيق وتداخلا متبادلا وتطوّرا بفضل مثل ذلك الكلّ الشامل. تبدو الحياة عندئذ باعتبارها مفهومة في صيرورتها وجريانها، وينبغي عليها أوّلا أن تنشىء نفسها عندما تساهم الطبقات والجوانب المختلفة في دفع بعضها البعض وارتقاءها سويّا. يحصل تسام ذاتي للكلّ، التحام داخلي، صيرورة ثبات للحياة في ذاتها، صعود إلى النشاط الذاتي وإلى الأصالة، تطوّر تدريجي من الخطوط الأوليّة إلى الشكل الكامل. يتوقّف مثل ذلك التطوّر بالدرجة الأولى على أن يكون للنشاط الأساسي الشامل طابع بارز، ويكتسي خصوصيّة تُميّزُهُ، وكلّما حصل ذلك إلاّ واستطاع أن يضمن للحياة أساسا ثابتا، واكتساب خبرة في التعامل مع الاعتراضات، وقيادة الحركة في دروب آمنة. ومن خلال كلّ ذلك التنوّع في الأحداث يترتّب عندها إنشاء أساس ثابت وبناء كيان ليس خارج النشاط بل داخله. وهكذا تنجح الحياة في الاستناد إلى ذاتها

بشكل تامّ.

عند مثل ذلك التحوّل لا يكون الأمر متّجها إلى الخارج بقدر ما هو عودة إلى النفس وانشغال بها، ولا تسعى لتحقيق إنجاز متّجه إلى الخارج بل إلى اكتساب كامل لمضمونه الخاصّ. وليس لها أيّة مهمّات فرديّة، فهي مهمّة باعتبارها كلاًّ في المقام الأوّل. وإذا فهمنا الحياة على هذا النحو فلا يمكنها أن تصنع خاصيّة بسيطة للنقاط المنفردة، لا أن تنطلق منها بل تبلغ استقلاليّة إزاءها، وهي لا يمكن أن تنشأ من مواقع منفردة ولا أن تكون مقبولة عندها. ولذا فلا يمكن الحديث عن سيرورة الحياة، إلاّ عند استبعاد تصوّر السيرورة الآلية. وإضافة إلى ذلك ينبغي الاستناد في كلّ الأحوال إلى أنّ شيئا ما بداخلنا يحظى بالأولوية ويتفوّق على غايات النقطة البسيطة وأوضاعها، ولا يحتاج إلى أن يتمّ نقله لنا من خلال تلك الغايات والأوضاع، بل إنّ لديه القدرة على بلوغ التأثير فينا انطلاقا من قواه الذاتيّة بشكل مباشر. ويجب أن يصبح ذلك الأعلى بالتأكيد جزء من حياتنا الخاصّة، وهو ما يمكن أن يحدث فقط عندما يرتبط كياننا في عمقه به، وعندما نمسك أيضا بذلك العمق ونجعله ملكا لنا بالكامل، ولكن تنتقل عندها نقطة ارتكاز حياتنا، ويترتّب عنها تحوّل تامّ مقارنة بوضع البداية. ويحمل هذا التحوّل حياة جديدة بصورة جوهريّة، حياة يمكن أن تسمّى في المقام الأوّل حياة ذاتيّة، حياة لا تسير بين النقاط المنفردة، ولا تتحرّك داخل التناقض القائم بين الذات والموضوع، بين القوّة والأشياء، بل تكون من أجل الازدهار الذاتي للكلّ وبذلك يمكنها قبل كلّ شيء توليد مضامين وقيم. وفي الوقت الذي تنشئ فيه

الحياة عمقا بداخلها في المقام الأوّل، وتسعى، انطلاقا من نقطة وسطى مهيمنة، إلى إضفاء الروح على كامل المحيط المجاور، يمكن أن تنشأ عوامل مثل الإحساس والقناعات والطبع والشخصيّة وتكتسب قيمة. هنا يولد داخل روحية هي بهيمنتها على التناقض بين الذات والموضوع تختلف بالشكل الأكثر وضوحا عن داخل الذات المجرّدة. إذ أنّ تلك تتولّد عن العلاقة بين الأشياء وتبقى في مستوى الوضع البسيط، في حين أنّ الأخرى تطوّر مضمونا وتنشئ وضعا حياتيا ثابتا. إنّ عودة الحياة إلى ذاتها والإحساس الذاتي هما أمران مختلفان جوهريا. فقط عند ازدهار هذه العودة إلى الذات كتجلّ أصلي، تكتسب مفاهيم الحقّ والخير والجمال أساسا ثابتا ومعنى واضحا، وفي الوقت ذاته علاقات فيما بينها. وهي تعرض نفسها عندها على أنّها ظواهر أصيلة، يمكن أن تُوصَفَ ولكن لا تُسْتَنْتَجَ. إنّها تُظهر نفسها فيها بوضوح، حيث أنّ الحياة في تحوّلها إلى ذاتها تنفتح على العمق الأصلي الأكثر ثراء. يُنشئ الكلّ في التقائه نسيجا متداخلا وارتباطا كبيرا، بل يتمّم بناء عالم. وهكذا تظهر الحياة الروحية هنا باعتبارها بناء لعالم من الحياة الداخلية، بناء وعالما لا توضع له أيّة حدود من الخارج بل يدمج بداخله كلّ ما يعترضه في عمله، ويبدو أيضا قادرا من الداخل على ارتقاء لا حدود له. وبمثل ذلك الازدهار لوجود في ذاتها تبلغ الحياة الروحية في الحقيقة استقلاليّة إزاء الطبيعة البسيطة، فهي هنا لم تَعُدْ مجرّد جزء من دوافع قائمة، ويصبح هناك مجال للبحث عن إنارة وضعنا والتساؤل عن معنى الحياة وقيمتها.

الإنسان والكون

تحتاج مثل تلك الإنارة الإضافيّة قبل كلّ شيء إلى توضيح كيفيّة ذلك التحوّل للحياة وذلك البناء للعالم في الإنسان، واعتباره الواقع في كليّته وكيف يمكنه أن ينشأ فيه. إنّ مثل ذلك التحوّل إلى الذات للحياة من المستحيل أن يكون عندها نتيجة للطبيعة بين-البشرية. لقد تبيّن لنا فعلا بما يكفي من الوضوح، أنّ مثل ذلك التحوّل ليس مجرّد إضافة، وإنّما هو شيء جديد تماما، بل يحمل شيئا يأتي مباشرة في المقابل، وأنّه يعني تحوّلا جذريّا يصل إلى حدّ الأشكال الأساسيّة للحياة، وإلى حدّ نسيجه الداخلي، فمثل ذلك التحوّل لا يمكنه أبدا أن يكون نتيجة لارتقاء تدريجي. وهكذا يجب على الإنسان بطُرُق حياته الخصوصيّة أن يكون صانع الحياة الجديدة، أعني الإنسان مثلما يتجلّى في مستوى التجربة. ولكن في ذلك المستوى فإنّ الخصوصي أكثر اندماجا بالطبيعة من أن يستطيع الانفصال عنها والائتلاف في كلّ وأن يمهّد بما هو كذلك دروبا جديدة. وإضافة إلى ذلك فإنّ العمل الذي يقدّمه الإنسان المجرّد، يبقى موجّها دائما للإنسان وفي خدمة أوضاعه. ولكنّ ذلك يناقض مباشرة طبيعة العمل الروحي. إذ هو يتضمّن في كلّ تفريعاته الدافع إلى السموّ بالإنسان فوق النوع البشري المجرّد، والدائرة البشرية البسيطة، فتوجيه الفعل إلى السعادة البشريّة يبقى بالنسبة إليه شديد الضيق. إنّه يُظهر الإنسان قادرا على خوض صراع ضدّ خصوصيّة نوعه التي تبدو له في غاية الضآلة، بل وتصبح غير قابل للاحتمال. بالنسبة لكلّ جهود البحث عن الحقيقة كان مثل ذلك الصراع من أجل اختراق ضيق الأفق البشري المجرّد مطلبا للحياة بالاستناد لاتساع الكون وعمقه. مثل ذلك المطلب

جعل أفلاطون يقدّم عَالَمَ المُثُل باعتباره عالما يتضمّن الحقيقة ويضع في مقابله بشكل حادّ كلّ أفعال الناس ودوافعهم. ولسبينوزا وهيغل أن يعتبرا الحركة الخاصّة للفكر ازدهارا متحرّرا من كلّ اعتباط بشريّ. وأن يفتتح كانط في عالم الأخلاق عالما أسمى من كلّ خصوصيّات الإنسان. ويتجاوز الفعل بكثير، في مقام الحياة الروحية، حفظ الإنسان المجرّد ورعايته، بل إنّه يقف أمامه دون إشكال موقف التناقض الأكثر حدّة. أم هل توجد الأخلاق وفكرة الواجب بغير ذلك؟ وهل يوجد هنا مقدار من العمل لا يتضمّن تأخيرا لمنزلة الأنا الصغيرة بل وتضحية بها؟ في المطلق، يتسبّب تكوين الحياة الروحية في عمل وجهد كبير، وهو يورّط المرء في الكثير من المخاطر والشكّ، بحيث يكون الانشغال على سعادة الانسان المجرّد غير قادر على تحقيق تلك السعادة أو المحافظة عليها أمام عوائق لا تحصى. ومن البديهي أن يتفاعل ويؤثّر وينشأ هنا شيء في الإنسان يدفعه فوق النوع المباشر لحياته بقوة قاهرة، ولكنّ هذه الضرورة لا تنبع من إرادته البائسة المتردّدة.

ينبغي الانتباه أيضا إلى أنّ الحياة الروحيّة، باعتبارها عملا للإنسان المجرّد، يمكن أن تكون عملا للإنسان الفرد، ولكنّها، بما هي كذلك، ستكون حتما مختلفة التشكّل لدى الحالات الفرديّة، وهو ما يُفضي إلى كمّ من الحركات المتداخلة، ولكن لن يؤدي أبدا إلى الحقيقة التي تكون أسمى من الأفراد ويمكنها أن تفرض الاعتراف العامّ، ولن تؤدي أبدا إلى جماعة داخليّة للعمل وإلى عالم مشترك. غير أنّ مطلب مثل ذلك العالم لا ينشأ فقط في وضع لاحق، بل هو يفعل فعله منذ البداية في كلّ عمل

روحي، فيه يتمّ تجاوز عَرَضِيَّةِ الفرد بشكل كامل ويحصل فيه السعي إلى الاقتصار على خدمة ضرورات الأمر.

تتضمّن كلّ حياة روحيّة، مثلما رأينا، تخطّيا للحياة وتجاوزا للتناقضات القائمة وإعادة بناء وارتقاء. إذا كان ذلك أكثر من مجرّد عمل بشري، فإنّه سيكون عندها عنصرا مُزَوِّرًا للأشياء، وهكذا يحلّق المسعى في الفراغ، وبذلك تكون النجاحات المزعومة محض خيال. ولكن هل تستطيع مثل تلك الخيالات توليد قوى بمثل تلك الكثرة إلى الدرجة التي تُغيّر فيها بُنى الحياة، مثلما سبق التأكيد، وكيف يضع الحبّ والحقّ والعلم والفنّ ذلك نُصْبَ أعيننا بوضوح؟

يكمن لبّ المسألة فيما يلي: تنشأ في مجال الإنسان حركة تنشد تغيير البشر من الأساس، تدفعهم بنوعهم القائم إلى ذلك الحدّ في مجمله إلى نزاعات حادّة، وتنطلق تحديدا من فصل الحياة عن خصوصيّة النقاط الفرديّة وتشكيلها في ذاتها عالما يشمل كلّ ما هو موجود ويتشكّل انطلاقا من ذاته. ألا يبرز عندها تناقض حادّ لا يُحتمل حين يصبح ما يظهر على أنّه واقع مستقلّ، وما يريد ممارسة القوّة ضدّ الإنسان وينشد إعادة تشكيله من الأساس، نتاجا لهذا الإنسان المجرّد؟ هكذا نجد أنفسنا مدفوعين إلى تحقيق خطوة هامّة إلى الأمام. فالالتباس المذكور لا يمكن تجاوزه إلاّ متى حصل الاعتراف في تلك الحياة الجديدة بظهور واقع أسمى من الإنسان، واقع يكتسب منه نصيبا ولكنّه لا يتولّد من ذاته، ويعني التحوّل عندها أنّه يتحوّل إلى سيرورة حياة فعّالة وبذلك يستطيع أن يجعل ما تتضمّنه سيرورة الحياة تلك ملكا له. يمكن التعرّف

بذلك على سيرورة كونيّة ضمن الحياة الروحيّة حيث يتجلّى الكون باعتباره كلاّ حيّا ويُنجز تحويلا للحالة الموجودة سابقا من خلال بلوغ العمق. يبدو ذلك العمق، في مجال الإنسان، شيئا يصعد في البداية تدريجيا، ولكنّ الصعود لا يمكن أن يحدث باطّراد دائم دون أن يكون هناك سبب ذاتيّ بشكل من الأشكال. فالحركة باتّجاه الكلّ وعودة الحياة إلى ذاتها لا يمكن أن يحصل عندنا، نحن الكيان الفردي المشتّت والمحدود، إذا لم يكن الواقع ينشئ كلاّ ويقود الحياة انطلاقا من الكلّ. يجب أن توجد حياة روحيّة أسمى من الإنسان، ولكن تنفتح له ويمكن أن تصبح كيانا له.

نتعرّف في ذلك الآن تحديدا على العظيم المحدّد لطبيعة حياتنا بحيث تصبح الحياة الأسمى تامّة الحضور لدى الإنسان، وتصبح خاصّة وأصيلة بحيث يمكن أن ينتقل مركز ثقل وجوده إلى هناك. يبدو أنّ الوضع الأساسيّ للحياة الإنسانيّة الذي فيه يتحوّل الواقع حقّا إلى ذاته فضلا عن ذلك، للحياة الداخليّة للكون، ليس إلى شيء غريب بل إلى كيانه الخاصّ، ذلك الوضع وحده يسمح للحياة الروحيّة أن تنشأ أصلا. إذ أنّ الأمر يخصّ علاقة دائمة بحدث ينفتح في الإنسان ويتفاعل معه، فللإنسان أن يتحوّل إلى ذلك وينقل ذاته له وأن يعيش بمثل ذلك الامتلاك، التنوّع الذي يواجهه به مثل ذلك الحدث أوّلا، يختزله في كلّ شامل ويعيشه باعتباره كُلّاً. ولكن بإدراكه للكلّ الشامل لتلك الحياة من حيث كونها ملكا له، فبإمكانه أن يتقاسم تطوّراته وتجاربه، ويمكنه أن يجذب إلى ذاته ما يشمل ذلك من تجاوز للتناقضات وتقدّم للتعميق

الذاتي ليكسب حياة لا حدود لها، موجَّهَةً بالتأكيد نحو الوجود في ذاتها ويقودها ذلك الوجود في الذات، ولا يمكنها بأيّ حال أن تسير في اتّجاه غير محدّد، وتمسك بذاتها في كلّ عمل وتعود إليها.

إنّ هذه العلاقة للإنسان بحياة جوهريّة، تنبثق بداخله، تتقدّم على كلّ الظروف التي قامت عليها أنظمة الحياة التي سبق عرضها. ففي هذه الحياة وحدها يتمّ بلوغ التجلّي والحضور الداخلي الكامل والتحوّل إلى تجربة خاصّة واحدة، لا أحد يستطيع إنكارها دون أن يحطّم نفسه باعتباره كيانا روحيّا، إنّها الحياة الأكثر يقينا والأكثر أصالة التي عرفتها حياتنا. وهكذا يجب على كلّ الظروف الأخرى أن تتأسّس انطلاقا من ذلك وأن تخضع هناك للمحاسبة، وهناك تولد التجارب الأساسية التي عليها تَحَمُّلُ كلّ حياة. فقط في تجارب الحياة الروحيّة يمكن أن تتجلّى لنا ألوهيّة تسمو على كلّ التباسات وضع العالم، فقط فيها يتجلّى عقل الكون، يوحّد العالم المرئي والعالم اللاَّمرئي، ويجمعهما ضمن وحدة متناغمة. انطلاقا من ذلك فقط يمكن أن تأتلف علاقتنا بالطبيعة في كلّ ويتمّ اختبار معناها، وانطلاقا من هنا فقط يمكن أن تتكوّن جماعة داخليّة للبشر، ووحده الاستناد إلى حياة لانهائية بإمكانه أن يمنح الفرد سندا ومعنى. وكما أنّ كلّ هذه الحركات تنشأ من أساس مشترك، فإنّه يجب عليها أيضا أن تبقى على علاقة به عند تطوّرها وأن تترك نتائجها تصبّ في الكلّ الشامل. وهكذا تفتح مثل تلك العلاقة المباشرة للإنسان بالحياة الروحية، باعتبارها علاقة بذاته الحقيقيّة، الإمكانية لكي تبقى حياة شاملة أسمى من أيّة تفريعات، وأنّ الحقّ والإنجاز يختبر كلّ

ازدهار خاصّ ويعيد إلى الأصل كلّ تجاربه درجة إضافية ويحوّلها أكثر فأكثر إلى الخصوصيّ وإلى الأصليّ. وانطلاقا من هنا فقط يمكن العمل لمعالجة تشتّت عصرنا، ولا يمكن لذلك أن يحدث إلاّ انطلاقا من موقع الحياة الروحيّة وليس انطلاقا من الإنسان المجرّد.

إنّ حياة الإنسان تتشكّل بذلك في اتّجاه مهمّة ومطلب كبيرين. يقدّم الإنسان نفسه، في نظرة أوليّة للعالم، باعتباره وجودا خاصّا ويملك دائرته الخاصّة ولا يعيش إلاّ بقدر ما تسمح له تلك الدائرة. ولكن عندها تنفتح له في انفصال الحياة عن النقطة المجرّدة وفي الانتقال باتّجاه التحوّل إلى الذات، إمكانية إدراك كلّ ما يحدث على أنّه ملك له وبذلك انتزاع نفسه من كلّ خصوصيّة للوضع المُفْرَد. ولا يعني ذلك مجرّد انتقال من نقطة مفردة إلى المستوى العامّ، بل انفتاح حياة في كليّتها، وفيها يوهب عند البحث عن الذات في كلّ تنوعها بالدرجة الأولى أفقا لمضمون الحياة، لتملّك الروح للواقع. فإذا لم يكن للحياة عمق فإنّ كلّ مجهود من أجل منح وجودنا عمقا يغدو بلا جدوى.

أن يكون الإنسان هكذا في ذات الوقت داخل وفوق اتساع مدى التجربة، فهو ما يضفي على حياته تشويقا وحركة كبيرين، وذلك ما يشكّل مفهوم الإنسان بدوره في بُعدين: باعتباره كيانا إلى جانب آخرين داخل الوجود لا يمكنه ادعاء أيّة أولويّة، ويُصبح كلّ تجاوز لدائرته الخاصّة تشبيها[25] في غير محلّه. فهو في تساميه فوق الوجود وفي انتقاله

(25). التشبيه بمعنى إضفاء الصفات الإنسانيّة على الكائنات الأخرى ولا سيما على الله، هو من مفاهيم علم الكلام الإسلامي.

إلى سيرورة الحياة الخلاّقة، ضمن تحوّل الحياة إلى ذاتها، يجوز له تعظيم نفسه وبإمكانه السعي إلى الحقيقة في أشمل معانيها. ليس انطلاقا من قوّة نوعه الخاصّ قطعا، بل انطلاقا من قوّة الكلّ الشامل، تلك القوّة التي عليها أن تقوده. وهكذا فإنّ الإنسان كيان يتطوّر فوق مجال ذاته، شيء يجب علينا السعي، من ناحية، انطلاقا منه ومن ناحية أخرى إليه. وتبعا لذلك يقف الإنسان المجرّد والإنساني العظيم جنبا إلى جنب، وكون كلا الجانبين كثيرا ما يتداخلان ويفيض تقييم هذا الجانب على الآخر، فهو ما ولّد التباسا لا حدود له.

نفهم من خلال مثل ذلك الانفصال كيف أنّ شيئا يوجد فوقنا يمكنه في ذات الوقت أن يُعْتَبَرَ قوّة لحياتنا. ويتجلّى الالتقاء بين ما هو "فوقنا" وما هو "فينا" في فكرة الواجب، ويظهر في القواعد التي تحكم كلّ عمل روحي. إنّها تخاطبنا بصيغة الأمر، ولكن يمكنها في ذات الوقت أن تصبح الأقرب والأكثر ألفة، شيئا نصادق فيه على أنفسنا عند المحافظة عليه، ونحفظ وجودنا. ويصبح واضحا أيضا بالنسبة إلينا، كيف يمكن لمزايا توجد خارج كلّ أشكال رفاهة الإنسان المجرّد أن تمتلك سلطة علينا، وكيف أنّ الخير يستطيع أن يتجاوز ما هو مريح ومفيد.

عندما يكون ذلك الكشف للحياة الروحية كشفا للإنسان نفسه في حقيقته يضمن له عظمة لا تُقارَن، فإنّ تلك العظمة هي في المقام الأوّل من عمل الكلّ الشامل، ولذا فلا يمكنها تبعا لذلك قيادة الإنسان إلى وعي ذاتي فخور. إنّنا لسنا نقاط حياة روحيّة ومواقع حياة روحيّة تدخل لاحقا في علاقة مع الكون، انطلاقا من طبيعتنا الخاصّة، بل إنّنا نصبح

في درجة مثل تلك النقاط فقط انطلاقا من حياة الكون، فقط فيه وليس في مقابله نكتسب ذاتا روحيّة. إنّها المعجزة الكبرى والدليل على نظام جديد، وعلى بروز نقاط حياة مستقلّة أصلا، وأنّ الحياة في كليّتها لا تمارس فقط تأثيرا معيّنا، بل إنّها تولّد قوّة ذاتيّة النشاط وحياة أصيلة. في ذلك تمثّل النزعة الصوفية[26] تفكيرا أساسيا ضروريا، وأنّه يجب أن تكون الحياة اللامتناهية حاضرة مباشرة لحالة الفرد، وأنّ الإنسان لا يقوم فقط بإنجاز عمل من الأعمال، بل ينبغي عليه أن يحقّق التحرّر من نوعه الأوليّ وأنّ عليه أن يكسب حياة وكيانا جديدين انطلاقا من اللانهائي. بغير مثل ذلك التحوّل الجذري تبقى الحياة الروحية بالنسبة إلينا مُلحَقا ثانويا، ولا تصبح أبدا في قلب كياننا، ولا تكتسب أبدا تأصّلا كاملا. وتفترض أديان الخلاص الكبرى، في مسار فكري مشابه، "انبعاثا" للإنسان، ولكن بقطع النظر عن الدين لا يُعتَبر العمل في أعلى مستوى للفعل الروحي عملا للفرد المجرّد، بل رسالة وتجلّيا لقوّة أسمى، تظهر في الإنسان وتسمو به فوق نفسه، ولا تحطّ من قيمته بأيّ حال من الأحوال إلى مستوى الآلة المجرّدة، بل توقظه فقط حقّا للنشاط الذاتي. ويدخل في ذلك الباب أيضا أنّ النفوس المؤثّرة في العادة، مثل الأبطال في المجال الروحي ضمن التاريخ الكوني، سواء أكانوا بشرا من ذوي النشاط الأعلى، وفي نفس الوقت قدريين بشكل حاسم، فإنّ مَلَكَتهم الخاصّة تتراجع إلى الخلف تماما وراء صيرورة وعي تحمله

(26) Mystik : هي المقصودة هنا ولعلّ الصوفية التي نشأت في سياق الثقافة الإسلامية لا تتطابق تماما مع المفهوم المذكور وإن وجد تشابه.

وتدفعه قوّة أعظم.

ولكن عندما يكون هذا الجانب المتعلّق بالنشاط الذاتي محجوبا قليلا عن وعي الفاعل وتجد نفوس متأثّرة بالدين عظمة حقيقيّة في طمسه كليّا، عندما تتعرّض النزعة الصوفية في أحيان كثيرة لخطر تَرْكِ الإنسان يتلاشى تماما في الكون، فإنّ الأمر يحتاج في الحقيقة أيضا إلى قراره ونشاطه الذاتي. إذ مهما بدا لنا يقينيا أنّه يتعيّن تعويض طاقة الحياة في هذا الوضع المخصوص بقوّة أعلى، تصبح تلك المَلَكَةُ طاقة حيوية، تتحوّل إلى واقع كامل فقط من خلال اعترافنا بها وامتلاكنا لها، فقط بمساعدة مواقفنا وقناعاتنا. ليس الإنسان مجرّد مسرح يحدث فيه شيء ما، فالحدث يجب لكي يكون من نوع روحي حقيقي، أن يحدث ليس فقط له بل فيه وانطلاقا منه. من المؤكّد أنّ الموهبة هي دوما صيرورة ارتقاء أيضا، ولكنّ البَرَكَةَ تجد عندها تجلّيها الأعلى في فعل الحريّة، وقدرات الإنسان ليست اقتطاعا من قدرة الله، بل دعم لها وتأكيد. كذلك لا ينقص الوعي، المتجذّر في الكلّ ويحمله الكلّ بل والمرتبط تماما بالكلّ، بقوّة الحياة على أيّة حال، وهو لا يفعل ذلك بمقدار أنّ الحياة الكليّة ليست كيانا جامدا، بل هي تنشئ حياة لانهائيّة لا تصل إلى التأثير الكامل في الأفراد إلاّ ببلوغ ذلك الامتلاك المنشود.

ولكن مثلما هو الأمر بالنسبة للنشاط الذاتي، فإنّ خصوصيّة نقاط الحياة وثراء العلاقات الإنسانيّة ليست بحاجة إلى الذوبان في الحياة الكليّة. إنّ الحياة الكليّة لا تمحو كلّ تعدّد مثلما تفعل الشمس الساطعة بضوء النجوم، بل هي قادرة على استيعابها بداخلها، وإصلاحها

والسموّ بها، وهي تقودها بذلك فقط إلى رِفعتها الذاتيّة. إنّ الحياة الكليّة ترتقي بالتربية الأفضل للأفراد إلى مستوى المطلب، من حيث أنّها تجعل منه مكسبا للكلّ: فقط يجب عليها أن تحدث داخل ذاتها وليس ضمن عمليّة مقابلة وتمييز. وكذلك فإنّ الازدهار الكامل للعلاقات الشخصيّة داخل الدائرة الإنسانيّة لا ينبغي أن يُعْتَبَرَ نَهْبًا من الكلّ الشامل بما أنّه يمكن أن يعمل على إثرائه. كذلك كان الأمر متعلّقا بخطأ التصوّر الدينيّ، عندما ينشد بلوغ درجة اللامبالاة بالبشر كدليل على العشق الإلهي الكامل. فقط عند التأكيد على أنّ كلّ علاقة بين البشر، وكلّ حبّ بشري يتأسّس على العلاقة مع الحياة الكليّة وعلى محبّة الله، هو ما يحقّق السموّ إلى المستوى الروحي، والذي يتجاوز وحده الدافع الطبيعي المجرّد، ويمنح الموقف مضمونا وقوّة. وهكذا تُظْهِرُ التجربة التاريخية المسافة الأبعد بين مشاعر الحبّ والشفقة، كيف أنّ سطح الحياة يحملها في التقاء الأفراد، كيف أنّ المشاعر من نفس النوع والتي تنبع من علاقة أساسيّة مشتركة تتجلّى في الواقع وتتقاسم تعميق الحياة المترتبة عن ذلك. هناك تحصل زيادة أو نقصان للمزاج الذاتي، الذي قد يثير الفرد بقوّة، ولكنّه ليس له أيّ معنى بالنسبة لوضع الحياة العامّ، هنا تحوّل شامل لذلك الوضع، خلق دوائر حيويّة خصوصيّة في الأديان الكبرى، بناء البشريّة باعتبارها جماعة داخليّة، تجربة الأقدار الخاصّة من خلال المصير المشترك. هناك فرق كبير بين أن تكون الحياة متعلّقة بتشتّت السطح، أو أن تكتسب نصيبا من حياة الكون وفي ذات الوقت من العمق الخلاّق.

هكذا تحمل الحياة الإنسانيّة في ذاتها مشكلة أساسيّة واحدة، إنّها تتطلّب قرارا كبيرا، وهي تتحوّل إلى فعل مستمرّ. ولكنّ ذلك الفعل لا يعني أنّنا فقط بآرائنا نحتاج إلى الانتقال من جانب إلى آخر لكي نجد هناك خاتمة ثابتة وراحة مؤكّدة. إذ لا توجد في الحقيقة أيّة عودة إلى الذات في الحياة دون هيمنة على الحركة المجرّدة، دون راحة في الذات، ولكنّ الحياة لدينا نحن البشر لا تبلغ مضمونا كاملا إلاّ عند الصراع مع الاعتراضات، فقط بواسطة البناء الذاتي والتعلّم الذاتي الشامل. ولكن بالنسبة لذلك البناء يُعتبر جوهريا، أنّ الحياة في تشكيل التعدّد وعند اقتراح صور كبيرة تنجز في الوقت نفسه تعميقا ذاتيّا تطوريّا. إنّها لا تفعل انطلاقا من أساس مهيئ سلفا، بل إنّ عليها تعميق الأساس نفسه باستمرار ولا ينبغي أن يبقى شيء متروكا خلف نشاطها، يجب أن يعيدها دوما إلى الأصل. كلّما صارت حياة الإنسان في مثل هذه الحركة تحوّلا إلى الذات أكثر، إلاّ وازداد ما له أولويّة فيها، التحام مباشر بالكون، وأمكن لحقيقتها أن تكون أكثر ثباتا. فالحقيقة لا تعني هنا مُطَابَقَةً لواقع موجود في الخارج، بل مشاركة في سيرورة حياة شاملة وأصيلة ومتّجهة إلى ذاتها من خلال كلّ التنوّع، في سيرورة حياة يولّد ازدهارها الواقع الأكثر أصالة، وبقدر ما يكتسب الإنسان نصيبا في مثل تلك الحياة الأصيلة والمُشَكِّلَةِ للكيان، وبقدر ما تحوّله الحياة إلى نشاط ذاتي خلاّق فهو يمتلك الحقيقة ولا شيء غيرها.

يمكن العمل، انطلاقا من مثل تلك القناعة، على تجاوز التناقض

الذي يضغط على الحاضر بثقل خاصّ. يتنافر عندنا الإنسان والعالم داخليا، مهما تلامسا ظاهريا، فنحن لا نستطيع التخلّي عن أحدهما ولا عن الآخر ولا نستطيع مع ذلك الجمع بينهما. نتردّد، فيما يتعلّق بما ينبغي اختياره كمنطلق، وكذلك إن كان علينا أن نعطي للحياة الاتجاه من العالم إلى الانسان أو من الإنسان إلى العالم. لقد وجدت كلتا الإمكانيّتين تجسيدا في حركات التاريخ الكوني، ويبيّن اختلاف تلك التجسيدات، أنّ القرار الذي يُتَّخذ هنا هو الذي يحدّد طابع الحياة.

يشكّل نمط الحياة القديم نقيضا كاملا للنمط الجديد. فكلّ نمط منهما يربط الإنسان تماما بالعالم ويجعله ينشئ حياته منه. لقد كان ذلك فقط ممكنا بافتراض علاقة مباشرة للمحيط بالإنسان، وممكنا فقط عند الاقتناع بأنّ حالة الأشياء الخاصّة تتّجه إلى الروح، دون أن تتغيّر في حدّ ذاتها. ويُعْتَبَرُ الإنسان هنا مرآة صافية للكون. غير أنّ مثل هذه العلاقة المباشرة قد حطّمها العصر الحديث عبر صيرورة الوعي إلى استقلاليّة العالم الداخلي وبواسطة أولويّة الأنا المفكّر. إنّها توجد اليوم تحت انطباع التناقض وتفرض على الإنسان عندها استعادة الارتباط الضائع مع المحيط انطلاقا من قواه الذاتيّة. صارت طبيعة الحياة القديمة في نفس الوقت غير كافية بالنسبة لها. لقد كان الحسّي والروحي غير منفصلين بما يكفي، إذ لا أحد منهما كان قادرا تبعا لذلك على أن تزدهر خصوصيّته في صفائها، كما أنّ الإنسان أفرط في إضفاء خصوصيّة نوعه على صورة الواقع وبقي في الفعل كذلك مفرطا في الاتّجاه ذاته. في مقابل ذلك اتّجه العصر الحديث إلى الذات وسعى إلى الاندفاع نحو العالم انطلاقا منها،

بل وتطوير عالم استنادا إلى قوّتها. ولكن يكمن في ذلك توتّر مفرط في قدرة الإنسان، وتواجه حقيقة صورة العالم التي ينشئها الإنسان شكّا متصاعدا. وكذلك فإنّ الحياة التي وقع تطويرها هنا لا تمسك بمضمون الواقع في كلّيته. إنّ طلب الوصول من الإنسان إلى العالم لم يكن قابلا للإنجاز إلاّ بطريقة أن تكون هناك قدرة خاصّة تُفْهَمُ على أنّها أعلى من الإنسان المجرّد وتُستعمل لتطوير عالم معيّن. لقد حدث ذلك تحديدا مع الفكر الإدراكي، إذ أنّ ذلك الفكر بدا الأقلّ ارتباطا بالنوع الإنساني الخاصّ. ولكنّ العصر الحديث أفرط، من خلال ذلك، في اعتبار الواقع ذهنيّا وتجريديّا وصوريّا، فالأفكار اعتُبرت، بسهولة، طاقات حيّة، والمبادئ قوى تامّة النشاط، فيما يُعتبر العقل مَلَكَةً كونيّة مُطْلَقَةَ الحركة ومقياس كلّ شيء، فضاع بذلك الكثير من طراوة الحياة، وأوشك الواقع أن يصبح مجرّد ظِلاَلٍ. أن يكون الإنسان الحديث قد اعتبر ذلك ضررا كبيرا وانتفض ضدّ مثل تلك الاستنتاجات، فهو ما يبيّنه الصراع المرير الذي تخوضه الجهات الأشدّ اختلافا ضدّ هيمنة العقل. إنّنا نريد الذهاب إلى أبعد من صُوَرِ التفكير ونبحث عن الطريق المؤدّي إلى واقع مفعم بالقوّة والمضمون.

ومن أجل التخلّص من مثل تلك التناقضات والتعقيدات ليس للحياة سوى طريق محدّد، يتعيّن فيه على الإنسان أن يدفع باتّجاه الوحدة والعمق بعيدا عن كلّ الجوانب الفرديّة والملكات الروحيّة الخاصّة، حيث تتخلّص الحياة من النقاط المجرّدة وتغدو تحوّلا كاملا إلى الذات، عندها لن تكون في مقابل العالَم الأكبر وحينها يكون بإمكانها الاندماج

فيه. وطالما تحقّق ذلك، فلن تحتاج الحياة إلى أيّ إثبات من الخارج، باعتبارها تحمل حقيقتها في ازدهارها الذاتي. لقد رأينا كيف تُطوّر تلك الحياة في تساميها على التناقض، بين الإنسان والعالم وبين القوّة والشيء، عالما روحيا داخليا بعيدا عن العالم الذاتي، وما تشمله تلك الحياة الداخليّة من مضامين وقيم روحية فهو يوجد في أعالي أكثر أمانا فوق ضيق أفق كلّ خصوصيّة النوع الإنساني.

مثل تلك الحياة هي بالنسبة إلينا مثل أعلى، وليست منطلقا مريحا، ولا يستطيع الفرد بلوغها إطلاقا بشكل مباشر ودون جهد. وحده عمل التاريخ الكوني للجنس البشري يمكن أن يقود إليها بالتدريج. وكعلامة على الحقيقة يكون هناك، من ناحية، السموّ فوق طريقة التصوّر وغايات الإنسان المجرّد، ومن ناحية أخرى نشأة مضامين جديدة باعتبارها ازدهارا ذاتيا للحياة الروحيّة. وأن تكون الحركة نحو ذلك الاتّجاه في طور الحصول، وكون سعي ناجح إلى الحقيقة بذلك المعنى يحصل من خلال البشرية، فهو ما تُظهره الحياة المشتركة بشكل لا يُنْكَرُ في عملها المتعلّق بالتاريخ الكوني. عموما يرتقي من خلال ذلك نوع أسمى انطلاقا من نوع أدنى، ويتخّذ موقعا له في الحياة الروحية، يبلغ تأثيرات خاصّة به ويجعل من الإنسان الذي يمسك به كائنا مختلفا وأسمى بشكل جوهريّ.

قد لا يكون التعلّم المستمرّ عبر التحوّل إلى حياة روحيّة مستقلّة في أيّ موضع أكثر وضوحا ممّا نجد في مجال الدين. فهنا ينفصل دين الإنسان المجرّد بالشكل الأوضح عن دين الحياة الروحية، دين من المفترض أن

يمنح الإنسان، بما هو إنسان، السعادة والبقاء، ودين تتجلّى فيه الحياة الروحيّة بسِماتها الخاصّة، تنشئ مضامين ومزايا جديدة وتسمو في الوقت ذاته بالإنسان عن النوع البشري المجرّد وتمنحه كيانا جديدا. إنّ ما يتولّد عن مثل ذلك التركيب الإنساني المجرّد، الذي يحكم الوجود في اتساعه، يبقى في دائرة تصوّرات الإنسان ومصالحه، لا يحمل شيئا جديدا بشكل جوهري، ليس له أدنى حقّ في فرض نفسه أمام تلك الدائرة. ولكن إذا كان الدين لا يحوّل وضع الإنسان داخل عالم قائم ولا يمنحه عالما جديدا، يزعزعه بعنف عبر تحقيق حياة إلهيّة باعتبارها عمق كيانه الخاصّ وتملأ تلك الحياة روحه بالأصالة واللاتناهي والأزلية وتسمح بتحريك طموحه، وهكذا يستحيل لمثل تسامي الحياة هذا أن يعني عملا تافها مصطنعا، وهكذا يكمن في ذلك تفتّح ذاتي للحياة الروحية، يضع امتلاكُها الإنسانَ في قلب الواقع.

وبشكل مشابه يكون الأمر مع مجالات أخرى للعمل الروحي. فانطلاقا من الإنسان المجرّد لا يمكنها أبدا أن تصبح مجالات مستقلّة بمضامين ودوافع خاصّة، وإذا أصبحت كذلك فهي تقوم دليلا على تأثير مستقلّ للحياة الروحيّة. دائما وعلى سبيل المثال، حيث يُعتَبر القانون مجرّد أداة للرفاهة البشرية، مثلما يفعل المذهب النفعي الاجتماعي، هناك حيث يكون فقدان كلّ خصوصيّة للنوع، ولا يتولّد أيّ مضمون جديد للحياة، عندها لا يمكن أن تضع ضرورة الأمر في مقابل لهفة الإنسان على نفسه، وما عاد ذلك يعني مجال حياة مستقلّ.

ولكنّ ما يصحّ على المجالات المنفردة، ينطبق كذلك على عمل الحياة

المشتركة في كليّته مثلما تعرضه الثقافة. تقف هنا ثقافة الإنسان وثقافة الروح، إحداهما ضدّ الأخرى بوضوح. فثقافة الإنسان يقتصر طموحها على المنزلة الإنسانيّة، التي يستحيل أن تكفي الإنسان نفسه، في حين تنشد الأخرى انبثاق حياة روحية مستقلّة ومن وراء ذلك السموّ الجوهريّ بالإنسان. وبقدر اليقين في أن تصبح مثل تلك الثقافة الروحيّة واقعا لدينا، بقدر ما يتأكّد أنّ حياتنا لا توجد إلى جانب الكون بل بداخله.

انطلاقا من مثل تشكّل الحياة المذكور، يمكن تلبية المطالب التي ليس بوسع الإنسانيّة التخلّي عنها، والتي تقتصر مع ذلك، في نظرة متأنية، على خلق أكبر المصاعب، بل يحصل بينهما تصادم خفيف. إنّهما مطلبا تقييد الحياة وحريّتها. كلّما كان إضفاء الجانب الداخلي المتصاعد لسياقنا المباشر قد حطّم ارتباطنا المباشر بمحيطنا الحسّي، إلاّ وضعُفت قدرتنا على بلوغ الثبات من خلال الإمساك بوجود قائم خارجنا، وفُرض علينا البحث عن سند في أنفسنا. يبحث المرء أوّلا عن ذلك هنا من خلال الوصول إلى تحديد نقطة منفردة، ويعتقد أن يجدها تحديدا في الالتحام بالـ«أنا» المفكّر لديكارت، ذلك الـ«أنا أفكّر إذن أنا موجود»[27] الذي كان عِمادَ كلّ يقين. ولكن كلّما ازداد هذا الحلّ الذي يبدو للوهلة الأولى مُبهرا في إظهار تبعاته، إلاّ ووصل المرء إزاءه إلى المزيد من النقد، وازداد ظهور الالتباسات فيه. فهل يمكن للـ«أنا» الموضوع في مقابل العالَم أن يعود إلى الوراء أصلا؟ وحتى إن أمكن حدوث ذلك عبر دروب

(27) cogito ergo sum. باللاتينيّة في النصّ الألماني.

مصطنعة، أَفَلاَ تُعْلِي الذات هنا من شأن نفسها بقوّة، وأليس من السهل قياس كلّ الأشياء وتشكيلها انطلاقا من ذاتها؟ ويهيمن الفكر هنا أيضا على الواقع كلّه بصورة مبالغ فيها ويشكّل الحياة عندئذ بأسلوب ملائم للتفكير حدّ الإفراط. هل تمتلك نقطة واحدة أمانا كاملا، بل ألا يبالغ الإنسان في تقدير الذات عندما يبحث في نفسه عن نقطة ارتكاز أرخميدية؟[28] يمكن مواجهة مثل تلك الالتباسات بنجاح فقط عندما يتمّ البحث عن الجهود ليس في نقطة منفردة، بل ضمن الحياة في كلّيتها. غير أنّ ذلك لا يتسنّى اكتسابه بضربة واحدة، بل فقط عبر سيرورة توحيد تصاعدية، من خلال النموّ في التشابك والبناء الشامل للتعدّد، ولكن ضمن ذات شاملة، والذي يزدهر بين ثنايا كلّ شيء ويضفي بذلك الطابع الروحاني على كلّ ما يحيط به. وكلّما طوّرت الحياة نسيج الواقع انطلاقا من ذاتها، ولكن في الوقت نفسه مع اكتساب تحوّل كامل إلى الذات، إلاّ وكان التحصين أقوى، وازداد الفرد أمانا، وازداد ارتباطه الوثيق بالكلّ الشامل، وازدادت حياة الكلّ حضورا فيه. وهكذا نتبيّن في مطلب الثبات مهمّة غير قابلة للتحديد، عندما لا يستطيع التقدّم حلّها إلاّ تدريجيا ويتعيّن على الأمان الكامل أن يُعتبر غاية سامية وبعيدة، وهكذا تبقى الحركة باتجاه مثل تلك الغايات، بتفوّقها على كلّ اعتباط بشري، واقعا لا مِرَاءَ فيه. إنّنا لا نستطيع البحث عن مثل تلك الغاية، ولا توجيه أنفسنا إليها، إذا لم تؤثّر منذ البداية كقوّة دافعة فينا، وإذا لم

---

(28). نسبة إلى أرخميدس العالم اليوناني الذي قال يوما "لو وجدت نقطة ارتكاز لرفعت الأرض".

تكن متجذّرة فينا بشكل من الأشكال.

إنّ ما يصحّ هنا عن الحياة في كليّتها، ينطبق أيضا على حامليها من الأفراد. فالفترات الثقافيّة والشعوب والأفراد أيضا لا يبلغون ثباتا للاقتناع وأمانا لطريقهم من خلال التفكير الجاهد، فيمكن أن يتلوه دائما جهد تفكير جديد، بل فقط عبر اتحاد داخلي لحياته ولتموضعها من أجل نقطة ارتكاز مهيمنة. ذلك فقط ما يبدّد الشكّ ويمنح الفعل ثقة مرحة، وانطلاقا فقط من هنا تتحوّل الحياة بالنسبة إلينا من نصف الواقع إلى الواقع في اكتماله.

تُعْتَبَرُ الحريّة والثبات نقيضين، وإنّهما كذلك في الحقيقة إذا كان الثبات يُنتظر من ارتباط بوجود صلب ويتوقّفان عن أن يكونا كذلك عندما يعتبران الأمر تحصينا ذاتيا وهكذا يتمّ البحث ليس خارج الحياة بل داخلها. ولكن فيما يتعلّق بحريّة العمل، فإنّ الاعتراف بها تقف ضدّه، على وجه الخصوص، الخاصيّة المميّزة للحياة الحديثة لأنّ العمل العلمي اقترح صورة للعالم ونموذجا للواقع، لا تتلاءم معها الحريّة، ولأنّ التركيبة الآلية السببيّة للطبيعة يتمّ سحبها على أعماق النفس. سيكون عندها من الجنون في الحقيقة أن ننشد أيّة حريّة.

إنّ سياقات تأمّلنا تطرح المسألة بشكل مختلف جوهريا. علينا أن نَلِجَ باب المعرفة ضمن صيرورة استقلاليّة الحياة الروحيّة، فبغيرها تصبح كلّ حياة روحية ظِلاَلاً شاردة وأحلاما. فالمعرفة بذلك المعنى تغدو طابعا أصيلا للحدث، وتحوّلا إلى استقلاليّة كاملة، وبذلك يمكن

اكتساب حالة الحريّة أيضا ضدّ كلّ تقييد. ليست تلك الصبغة الأصيلة تحديدا مجرّد حالة بداية، بل هي ترافق كلّ نشاط روحي بشكل دائم وتحوّل الحياة إلى فعل متواصل. ففي عالم الحياة الروحيّة لا يحصل الفعل مثلما في الطبيعة، حيث ما يحصل مرّة، يتواصل بشكل مؤكّد، بل إنّه ينهار بمجرّد أن تنسحب الروح منه، ولا تجدّده بشكل مستمرّ، وكذلك فيما يتعلّق بالبقاء الظاهري يتحوّل الأمر إلى تعوّد ميكانيكي ويخرج بذلك من دائرة الروح. ذلك ما يبيّنه تاريخ الدين والأخلاق ألف مرّة في تجارب قديمة وحديثة. إنّ آخر سبب لإنكار الحريّة يكمن في إنكار الخصوصيّة النوعيّة للحياة الروحيّة، ويكون ذلك عندما تُفهَم الحياة على أنّها سيرورة مجرّدة، كحركة لجهاز دفع سواء أكان ميكانيكيا أم ذهنيا حيث لا مكان للحريّة.

ولكن لا يكفي أن توجد حالة الحريّة بشكل من الأشكال، بل يجب أيضا أن يشارك فيها الإنسان، ويمكن أن ينتقل إليها. ولكنّ مثل ذلك التحوّل يصبح مفهوما عندما يجد الإنسان في تلك الحالة وحدها عودة الحياة إلى ذاتها، عندما يمسك عند تحوّله إلى هناك بكيانه الخاصّ. لا تنمو حياتنا الروحيّة، في الحقيقة، وفق تطوّر تدريجي انطلاقا من درجة أدنى، بل هي تتضمّن باستمرار تقويضا وتأسيسا جديدا وانقطاعا. إنّ سعينا لا يبني نفسه بشكل يشبه الهرم فوق مساحة معيّنة واتجاه محدّد، بل إنّ الأساس نفسه ينبغي أن يُكْتَسَبَ أوّلا، وتمتدّ شكوك الحياة ذاتها إلى حدّ هناك وتجبرنا على إتمام التحوّل الأساسي بشكل متجدّد على الدوام. إنّ تحريك الحياة والصراع معها لا يقفان عند إنجازات منفردة، فهو يمتدّ

ليشمل الوجود كلّه. وبهذه الطريقة علينا فهم حركة البشرية وكذلك حركةَ الأفراد. إنّ التاريخ ليس مجرّد تطوّر بمعنى انبثاق اللاَّحِقِ من السابق في تتابع مؤكّد وضرورة قاهرة، بل إنّ ما يبلغه الماضي وما يجلبه الحاضر هو من الزاوية الروحية مجرّد إمكانيّة للتاريخ، مطلب يحتاج قرارا خاصّا. بغير ذلك لا يوجد حضور حقيقي، ولا صبغة أصليّة، ولا حياة خاصّة. وشبيه بذلك أيضا ما يتعلّق بحياة الفرد التي ليست تَعَاقُبًا ثقيلا لأيام متشابهة، أو إنّها لا تحتاج على الأقلّ إلى أن تكون كذلك، حيث تكتسب مضمونا روحيا وتنشد طابعا روحيّا. هنا يتعيّن دائما إنجاز انفصال وتحوّل، هنا عليها الارتقاء الدائم المتجدّد لسموّها الخاصّ، هناك يتعلّق الأمر بالكفاح الدائم المتجدّد من أجل معنى الماضي أيضا. إنّ ما تُظهره حياة البشريّة في هذا الاتجاه على الدوام وكذلك حياة الفرد من تجارب يمكن أن يتلخّص ويكتسب المزيد من القوّة والوضوح، متى حصل الاعتراف باستقلاليّة الحياة الروحيّة.

يسمح كلّ ذلك مجتمعا بأن نرى أنّ مجال وجودنا يتضمّن إمكانيّة جديدة، أي تحديدا إمكانيّة حياة جديدة بشكل جوهري، حياة يمكن بلوغها فقط عبر قطيعة مع الوضع القائم ومن خلال التحوّل، ولكن كذلك من خلال الاهتزاز والصراع المتواصل تضع أمامها الغايات الأسمى وتبشّر بالإشباع الأتمّ. في هذه الحياة الجديدة يحصل تحرّر من كلّ وضاعة الدوافع البشرية المجرّدة، بغير ذلك تصبح لدينا هي الكون كلّه وبالتخلّص من ضيق أفق الأنا الصغيرة فإنّ الحياة لا تنصهر مع ذلك في اللانهائي، بل إنّ كلّ واحد يمكن أن يصبح داخل اللانهائي

نقطة حياة مستقلّة، وحاملا للكلّ. وإذا أمكن للإنسان أن يدفعه ويسيّره تيّار الكلّ، وأن يدرك أنّه تقيّده قوّة الكلّ، فعليه أن يأخذ ويواصل في موضعه ذلك التيّار بمحض إرادته، وهكذا يتسرّب إلى كامل وجوده «إمّا–أو»[29] كبير ويحوّل ذلك الوجود إلى دراما كبيرة. عندها فقط يرتقي النشاط إلى فعل ذاتي ويكسب في فعله وجودا، ويطوّر طابعا روحيّا ويمنح للحياة بذلك مضمونا، في حين أنّ النشاط المجرّد مع كلّ الامتلاء والإصرار يمكن أن يترك لدى الإنسان فراغا داخليا.

تنشأ بذلك، في كلّ الاتّجاهات، الحركات الأكثر إثمارا. فاكتساب الطابع الروحيّ وتحوّل الحياة إلى ذاتها، ذلك هو المقصود عند تحوّل الفرد إلى شخصيّة. فبغير تَجَذُّرٍ في الكون تصبح الشخصيّة كلمة خاوية، مجرّد ارتماء في غياهب الحيرة. ذلك الطابع الروحي، الذي يتطلّب خلخلة الحياة والتحوّل إلى مقام جديد، يبقى مختلفا بشكل أساسي عن الفردانيّة التي تمنحها الطبيعة والتي لم تصل إلى فصل الطبيعة الروحيّة عن الطبيعة المجرّدة والتي تهدّد العناية اللامتناهية بها بالانحطاط الروحي. إنّ اكتساب طابع روحي يصبح مهمّة وجوبية وارتقائيّة أيضا لشعوب وعصور بأكملها، وحلّها وحده يسمح لها بالفوز بمضمون حياة ومعنى باق على اختلاف العصور. كذلك يمكن أيضا في العلم وفي الفنّ أن ينشأ إبداع أسمى من كلّ تقنية مجرّدة، يمنحها روحا، ويتقدّم بالإنسانيّة عبر بلوغ أعماق جديدة. ومن أجل أن يتمّ التمكّن من قول شيء للبشريّة

---

(29) . أي ضرورة الاختيار التي تعتبر تجسيما للحظة الحيرة في حياة الإنسان، أي الاختيار بين طريقين وهي تذكّر بكركيجارد Søren Kierkegaard. (1813-1855) الفيلسوف الدنماركي في كتاب له يحمل ذلك العنوان.

والوجود، يجب على المبدع أن يتجذّر في ذاته وأن يكون شيئا من أجل ذاته، ولكنّه لا يستطيع ذلك إلاّ في تلك الظروف. إنّ إنشاء طابع روحي يضمن بالدرجة الأولى تفوّقا على خليط الثقافة السائدة، إنّه يسمح بفصل الثقافة الروحيّة الحقيقيّة عن الثقافة الإنسانية المجرّدة ومهاجمة كلّ كوميديا ثقافية محضة، تهيمن على الحياة اليومية وتواجهها بقوّة.

وإلى ذلك الحدّ تعمل صيرورة استقلال الحياة الداخلية بشكل يسمو بالبشر، حيث يواجه المثل الأعلى لبناء الإنسان في كليّته كلّ تهديد بتضييق الحياة. وتجهد مجالات الحياة المنفردة دون كلل لجلب الإنسان إليها تماما ووسم روحه بميسمها الخاصّ. كذلك يفعل الدين وتحديدا في تشكّله جماعة دينيّة، وبصورة مشابهة تفعل الدولة بقطع النظر عن كلّ أشكال الأنظمة، ولكنّ الفنّ والعلم بدورهما يبنيان إنسانهما الخاصّ ويتركان جانبا بسهولة بناء الإنسان في كليّته بعيدا عن الثقافة الجزئيّة التي يمنحانها. نحن نشعر بوضوح بعدم كفاية كلّ ذلك بجانب الثقافة، ولكنّ تجاوزها لن يكون ممكنا إلاّ متى حملنا بداخلنا مهمّة شاملة، يتغلّب الإمساك بها ورعايتها على كلّ الجزئيات ويسمح لنا من خلالها باتباع غاية شاملة.

شبيه بمطلب بناء الإنسان الشامل، ذلك الذي ينشد تأسيس حياتنا على التشبّع بنشاطها الخاصّ ولكن فقط عند الاعتراف بعمق الواقع وربط الإنسان به. إنّ النداء من أجل المزيد من الفعل، وفي سبيل وضع الحياة الخلاّقة قبل كلّ وجود قائم صار يخترق عصرنا، ولكنّه سيصبح حتما كلاما أجوف، عندما يحيط تسلسل التجاور البسيط بالإنسان

بشكل كامل ولا يترك له سبيلا إلى عالم الحياة الأصيلة. بدون عمق للواقع وإحيائه لنا لا يمكن لوجودنا أن يتحوّل إلى فعل.

عندما يصبح الإنسان هكذا ناضجا لمتطلباته وحدها من خلال اكتساب مشاركة في تحوّل الحياة إلى ذاتها، تقرّر مصير نجاح وجوده، فإنّ كلّ جهد وعمل يصبح أقوى من الطمأنينة والفرح. إنّها تلك الحياة التي تُفْهَمُ لدى الإنسان فقط عند الصعود، وبالتالي فهي غير مكتملة بما يكفي، ولا تخلو أيضا من الشكّ المتعدّد الأوجه. ولكنّ كلّ شكّ وكلّ نقصان لا يمكن بأيّ حال أن يزعزع الحقيقة الأساسيّة المتمثّلة في التحوّل الكبير. فلا يتعلّق الأمر هنا طبعا بتجلّيات منفردة ضمن حياة قائمة، بل بحياة جديدة في كليّتها والتي يستحيل أن تكون عملا من أجل المظاهر، فالإمكانيّة ذاتها تضمن لنا هنا واقعا. وإضافة إلى ذلك يولّد التحريك الذاتي ببنائه وتثبيته لوجود في طور الفعل وبنائه لواقع وإدماجه للكون بأسره في سيرورة الحياة، ابتهاجا مختلفا تماما عن النشاط البسيط باستعماله للقوى، ابتهاج هو بتوسيعه لعاطفة الحياة إلى اللانهائي، يكون مختلفا تماما عن أيّة متعة أنانيّة. يتمّ هنا تحرير الحياة من الدافع الطبيعي لحفظ النفس ويمكنها طبعا مواجهة الإنكار الباهت بإقرار حازم. إنّ الابتهاج المنبعث من ازدهار الحياة الروحيّة الحقيقيّة يظهر أمام أعيننا في أشكاله المختلفة بكامل الوضوح: كذلك في إدراك الحقيقة عند البحث العلمي وكذلك في إبداع الفنّ وتأمّله، وكذلك في الحبّ الحقيقي وفي العمل المحفّز للإنسان. كلّ ذلك يمكن له أن يأتلف ضمن كلّ شامل على الأساس الذي عرضناه، وبالتالي أن يكتسب المزيد

من القوّة والعمق.

فلنأخذ، فضلا عن ذلك، أنّ ما يفعله الإنسان هنا ويكسبه لنفسه، يوجد داخل الكلّ ويخدم الارتقاء به، وكذلك أنّه في هذه الحياة الجديدة تبهت الفروق المعتادة للكبير والصغير أمام تحوّل حاسم من عالم إلى عالم، بل تتلاشى، بحيث يكون لكلّ في منزلته معنى، بل قيمة يتمّ اكتسابها وينشد نماء عالم الروح، وهكذا لا يمكن أن يكون هناك شكّ حول معنى هذه الحياة وقيمتها. كذلك كانت الاعتراضات وتجازوها.

لقد تناولنا إلى حدّ الآن النوع الداخلي للحياة الجديدة التي تتجلّى للإنسانية، أمّا العوائق التي تظهر داخل وجودنا ووضعنا العالمي، فبقيت في الخلفيّة. ولكن يجب علينا الآن النظر إليها، فظهورها وحده والاشتغال عليها يحدّد طابع الحياة الإنسانيّة الخاصّ بها. ولكن تبقى هناك عوائق وتحديدا في اتجاهات ثلاثة: من علاقة الحياة الروحية بوسائلها وشروطها، من عدم اكتمالها، بل طابعها الغائم في ذاتها، ومن عجزها الظاهر في الكون كما في دائرة البشر. سيجري النظر في هذه الاعتراضات وما ينقضها.

الحياة الروحيّة والوجود الإنساني

تمثّلت النقطة الأساسيّة من الفكرة المعروضة في أنّ الانتقال باتّجاه تحوّل الحياة إلى ذاتها لا يمكنه أن يترتّب عن الطبيعة المجرّدة عبر ارتقاء تدريجي. كما لا يمكنه أن يتولّد عن خليط للالتقاء الإنساني، وأنّ كلّ

سعي تَوْقٍ روحي يحرص على خدمة الإنسان المجرّد. وهكذا فإنّه بدون انتزاع النفس والعيش المستقلّ للحياة يستحيل الخلاص، ودون أن يصبح المرء ثابتا في نفسه لا يمكن إتمام أيّ بناء. مثل تلك الضرورة تمتدّ إلى كلّ أوجه النشاط، وبدون اكتساب نقطة انطلاق مستقلّة لن يكون التفكير العلمي ممكنا ولا الإبداع الفنّي. ولكنّ مثل ذلك القطع مليء بالمخاطر، فهو يحمل معه غواية كبيرة، كثيرا ما خضعت لها حتّى نفوس بعض العظماء. وإذا توجّب على الحياة الارتقاء إلى علوّ جديد، فإنّ الأمر يقترب أو بالأحرى يكتسب في فترات زمنيّة خاصّة قوّة ساحرة لتطوير الحياة كلّها انطلاقا من مثل ذلك العلوّ وفي رفض كامل لعالم التجربة قدر الإمكان. فقط مثل ذلك التطوّر انطلاقا من القدرات الذاتيّة وحده بدا من شأنه أن يضمن بالتأكيد الاستقلاليّة التامّة والتأثير الخالص للحياة الروحيّة. كذلك حصل في الدين، وفي الأخلاق والفلسفة أيضا. ولكن تبيّن في كلّ موضع، أنّه عند مثل ذلك التخلّص من عالم التجربة، وعند مثل تلك المحاولة لتوليد عالم جديد انطلاقا من حركتنا الذاتيّة، تكون الحياة الروحيّة البشرية ذاتها مهدّدة بالإفقار وبالسقوط في اللاَّمِيَّةِ. ذلك ما حصل للتصوّف عندما أراد تحويل الحياة كلّها إلى تأمّل للكائن الأزلي وسقط بذلك في الفراغ، وغرق أيضا بسهولة، بعد الصعود إلى أعلى الدرجات، في إحساس من وقع التخلّي عنه. وهو أيضا ما حصل للأخلاق الدينيّة عندما جعلت من حبّ الله مهمّة حصريّة ومن حبّ الإنسان أمرا يأتي بعد ذلك وأنّه إذا لم يحطّمه فإنّه ينتقص منه بالتأكيد. وكذلك حصل للفلسفة عندما ولّدت في تحوّلها إلى تأمّل

تجريدي، الحركة الذاتيّة للفكر والواقع بأكمله، وبذلك اكتسبت بالتأكيد نسيجا فكريّا مغلقا، ولكن لم تستطع منح ذلك النسيج مضمون وقوّة الواقع في اكتماله. وتبيّن بشكل شامل أنّ رفع الحياة الروحيّة فوق العالم المباشر، لا يجوز له أن يصبح انفصالا، إذا لم يكن على الحياة أن تصبح فقيرة وجامدة. وهكذا يتعلّق الأمر بالعودة من العلوّ المكتسب إلى عالم التجربة، ونسج خيوط بين هذا وذاك، وجذب ذلك العالم قدر الإمكان إلى النفس، والتقدّم في تكوين النفس من الداخل ضمن جدال مع ذلك العالَم بعين الاعتبار. فليست الحياة الروحية، عندنا نحن البشر، ازدهارا خالصا، بل تقدّما في مواجهة اعتراضات حادّة. إنّها ليست خَلْقًا سهلا ضمن لعب مرح للفكر، بل عمل جاهد ولكنّه عمل مثمر أيضا في بناء الواقع. كوننا لا نستطيع التقدّم بطريقة خطيّة، بل وجب علينا العمل من جانبين، فإنّ ذلك يجعل حياتنا ليست بذلك المعنى جمعا بين الأعلى والأدنى. فالمعرفة مثلا ليست نتاجا للإحساس والذهن، بل يبقى العقلي مهيمنا، ويحصل الربط انطلاقا منه وداخل مجال حيوي من بنائه. فالأدنى يُنْقَلُ قدر الإمكان إلى هناك ويعاد تشكيله في ذلك الانتقال، وللأعلى أن يواصل القيادة داخل ذلك المجال الحيوي وقيمته تكمن في العمل من أجل ذلك.

ولكن ينشأ عندها تداخل كبير من جرّاء ذلك، من حيث أنّ الأدنى لا يبدأ تلك الحركة صافيا ومصقولا بأيّ حال، وأنّه يسعى إلى إظهار استقلاليّته في مواجهة الارتقاء وأنّ الحياة تتشبّث بذاتها بإصرار وصَلابَة ممّا يسبّب ضررا للأعلى. وهكذا فإنّ طبيعة البشر الحسّية لا تنقاد بسهولة

إلى الروح بأيّ حال، بل هي كثيرا ما تجذب بدورها القوى الروحيّة بشدّة إليها، وحتّى دون الكثير من الإرادة البشريّة، انطلاقا من قسر الضرورة. وهكذا يُفرض علينا صراع لا يهدأ من أجل حفظ النفس الطبيعي لا نستطيع خلخلته، وكثيرا ما يكون ذلك الصراع من القسوة بحيث يستغرق الجهود كلّها. لا يكون ذلك عند الأفراد فحسب بل أيضا لدى الشعوب والبشريّة بأسرها. ليست الأفكار بل المصالح الماديّة تحديدا هي التي تهيمن على الوجود البشري في كليّته، بقدر ما تساهم كذلك في إعادة البناء الداخلي، كما في عمليّات التجديد الديني مثلا. ذلك ما جعل حتى الزمن المعاصر بطريقته الاقتصادية في النظر إلى الأشياء، يعترف بها. ويدخل في هذا الباب أيضا أنّ التصادم في الصراع من أجل الوجود، وتنافس الساعين إلى تقدّم سير الإنسانية أمر لا يمكن اجتنابه، وبانتفاء قوّته المحرّكة تغدو الحياة بسهولة ذبولا وارتخاء. وهكذا يفرض حفظ الحياة بمعناه الحسيّ نفسه باعتباره القوّة الدافعة الأقوى للوجود الإنساني. تخترق تلك الحقيقة كلّ غطاء دائما وباستمرار وتؤكّد هيمنتها. إنّ الحياة الروحيّة قد تبدو انطلاقا من هنا مجرّد غشاء خارجي، لا يمكن أن تقوم بذاتها. ما أشدّ تواضع الحياة الروحيّة في الوجود الإنساني أمام الآلة الصاخبة للمصالح الحسّية والأنانيّة، وما أصعب الصراع من أجل الوصول إلى نجاح ما! إنّ هذه التأملات تصبح أكثر متانة بفضل الحقيقة المتمثّلة في أنّ أشكال الوجود الحسّي في الزمان والمكان تبقى وتهيمن على سعينا في مواجهة كلّ تطوّرات الحياة الروحيّة. إنّ تَجاوُرَ الوجود الحسّي يحيطنا بوقائعية ثابتة ويعزل الواحد

عن الآخر، في حين يتطلّب كلّ تحريك روحي فعلا ينطلق من الكلّ الشامل، وليس أقلّ من ذلك أنّنا نجد أنفسنا في صلب تعاقب الزمن، حيث لا يتّسم أيّ عمل أو وضع بالديمومة، وحيث يجري كلّ شيء ويدفع تيّار الأشياء دون توقّف وبسهولة، ما يعتبر اليوم حقّا، لكي يجعله غدا موسوما بميسم الباطل. أمر يكون بمثابة تغيّر سريع للمثل العليا، للقناعات وللأذواق يشهد عليه الوجود الإنساني، في حين أنّ الإبداع الروحيّ يقدّم مضامينه على أنّها أسمى من الزمن، يترتّب على غياب الإصرار على مثل ذلك المطلب فقدان كلّ قوّة للطموح. بعد كلّ ذلك تبدو الحياة الروحيّة لدى البشر وكأنّها لا تكتسب أيّ وجود مستقلّ ويتعيّن عليها الخضوع في الختام لعالم من نوع آخر. إنّ النور المُشِعَّ من ذلك العالم لا يخترق ضباب الحياة اليوميّة، وهو وإن لم يتلاش كلّيا فإنّه مع ذلك في غاية السطحيّة والذبول من أن يبعث الدفء في حياتنا ويمنحها نجما هاديا. إنّه يبيّن لنا بالأحرى حدود قدرتنا وبُعد المسافة التي تفصلنا عن الحقيقة أكثر ممّا يمنحنا اليقين فيها.

كلّ ذلك لا يمكن إنكاره ولا إهماله إذ يبقى الأمر عند الحقيقة المتمثّلة في أنّ الحياة الروحيّة لها أن تتطوّر داخل وسط من نوع آخر بل غريب. ولكنّ فحصا شاملا ودقيقا لوضع الحياة يجعلنا نتأكّد بسرعة من أنّ تأثيرا مضادّا في طور الحدوث، ليس من خلال تفكير الإنسان ونواياه بل من خلال فعل مُرَبٍّ ومعلّم للحياة ذاتها. فما يقوم به الإنسان تحت ضغط الحاجة وحفظ الذات يتحوّل ويتسامى له عبر مسار حياته الخاص. إنّ ما كان في البداية ظاهريا محضا، يكتسي صبغة داخليّة، وما

كان مجرّد وسيلة يغدو عظيم القيمة في ذاته، وينتج في طول الحياة وعرضها ارتقاء إلى الأعلى وتقوية للروحانيّة.

فلننظر في العلاقات الشخصيّة بين البشر، في الحبّ وفي الصداقة. فما يعنيه الحبّ قد يمتزج في مرحلة أولى بدوافع الطبيعة وهو كثيرا ما يكون من نوع زائل، ولا يكتسي سمات روحيّة إلاّ بشكل جانبي، ويبدو الإنسان الآخر في الغالب بمثابة وسيلة للتسلية الذاتيّة. ولكنّ الحياة تنجز شيئا فشيئا، ضمن اللقاء، تحوّلا في ذلك الاتجاه، بحيث يكتسب أيضا قيمة في ذاته. ويستطيع الأنا إخضاع مطالب المتعة بداخله، بل وحتّى التضحية بنفسه. ولا يختلف الأمر مع الصداقة. فما يقود الناس إلى الالتقاء غالبا هي أسباب خارجيّة متعلّقة بالمنافع والمزايا، والتقاء المصالح هو الذي يوحّدهم عادة. ولكن مع بعض الديمومة تتّجه العلاقة المتبادلة للتحوّل إلى الداخل، وتكون لكلّ عضو مشاركة داخليّة، بل اكتساب فرحة من مخالطة الآخرين. فقد تبيّن منذ أرسطو كيف أنّ مسار الحياة انطلاقا ممّا كان يبدو للوهلة الأولى مجرّد مفيد ومريح، يصل إلى جعله ذا قيمة في ذاته، شيء خيّر، وكيف أنّ الإنسان بذلك يتمّ السموّ به فوق مسبّبات أفعاله، وكيف أنّه هنا، حسب تعبير الفيلسوف، حتّى لدى الإنسان من نوع أدنى، يؤثّر شيء ما إلهي، يكون أقوى منه.

كذلك فإنّ علاقتنا بالأشياء التي تخصّ عملنا تشارك في ذلك التسامي. إنّنا نعتني في البداية بالعمل من أجل حفظ الذات ويجب علينا، من خلال الصراع من أجل الوجود، أن نطلب جزاء له بدافع

الحاجة، ويمكن أن تكون العناية بالأمر هناك غير ذات أهمّية للوهلة الأولى. ولكن يصبح العمل، مع مرّ الزمن وبفضل مضمونه الخاصّ، محبّبا شيئا فشيئا إلينا وذا قيمة، ويغدو استكماله أمرا متعلّقا بشغاف قلوبنا، ويمكن أن يؤدي الانشغال بنجاحه إلى جهود وتضحيات كبيرة. وهكذا تحديدا عندما يقع تشكيل العمل بعيدا عن الإنجازات المعزولة على أنه مهمّة حياة، وعندما يقود إلى مهنة خاصّة وبذلك يبيّن لكلّ نشاط اتّجاها ومهمّة محدّدين. يشكّل ذلك المقاومة الأكثر ثباتا للّهفة الوضيعة على النفس، وارتباطا وثيقا للإنسان بغايات الحياة الروحيّة حيث لا يمكن إنكار تَسَامٍ داخلي لوجوده.

وكما أنّ القوّة والحياة في العلاقة مع البشر ومع الأشياء تتحوّل من الظاهر إلى الباطن ومن الطبيعي إلى الروحي، فإنّ الفرد يحمل أيضا في ذاته قوّة دافعة إلى الأمام. ذلك ما يمثّل خصوصيّة نوعه وما يصنع فردانيّته. إنّها للوهلة الأولى ما تنقله له الطبيعة حيث يسير الأدنى والأعلى سويا دون انفصال ولكي تحفظ تلك الحالة كما توجد وتفرضها فهو ما يوافق الدافع الطبيعي لحفظ الذات ويظفر بسهولة بميل الإنسان وبعمله. ولكنّ الحركة التي تدخل بذلك طور الانسياب تصل شيئا فشيئا بعيدا عن المنطلق. إنّ العناصر الروحيّة تنفصل بأكثر وضوحا وتتجمّع أكثر فأكثر في كلّ شامل، وكلّما حدث ذلك إلاّ وظهرت بوضوح أكبر مهمّة سامية ترتقي بالإنسان وتوجّه عمله إلى غايات روحية، بل وتضع ذاتا أعلى في مقابل ذات أدنى وكيانا تامّا في مقابل تشتّت السطح. وبذلك يبدو النوع الفردي بمثابة الركيزة التي تدور

حولها الحياة طلبا للسموّ.

ولكنّ مثل ذلك الصعود من الأدنى إلى الأرقى، مثل ذلك السموّ بالإنسان فوق نوازعه يصل إلى البشريّة في كليّتها ويؤثّر هنا في بناء أشكال حياة جديدة، وتناسبه درجة الحياة الروحية وتخدم تطوّره. ذلك ما تبيّنه حركة الاجتماع البشري، فهناك للوهلة الأولى تجاور ظاهري وضرورة حفظ الحياة التي تجمع البشر وتشدّهم إلى مجموعات أصغر أو أكبر. ولكن انطلاقا من الارتباط الخارجي تصنع التجارب والصراعات المشتركة والنجاحات والآلام المشتركة بالتدريج جماعة من نوع داخلي، وتتكوّن هنا حياة شاملة ذات سمات خاصّة، تحكم عمل الفرد وتُلْجِمُ وَلَعَهُ المفرط بذاته، حيث ينبغي على الإنسان أن يدرك أنّه جزء من كلّ شامل، يحمله ويرتبط به وثيق الارتباط. إنّ حياة وعملا انطلاقا من المجموعة ومن الداخل يتمّ بلوغها هنا

ويتهيّأ بذلك مكان للحياة الروحية داخل البشرية. إنّ ذلك يمثّل لديه اكتساب نقطة اختراق، مثلما أنجزت ذلك خطب فيشته[30] إلى الأمّة الألمانية بشكل آسِر. ولكنّ ما يبيّنه الشعب والوطن في تحديدات محسوبة، فإنّ بناء كلّ شامل وقلب للحياة يصبح غاية للإنسانيّة بأسرها، أي أن يكون طرف داخلي حاضرا كهدف في تصوّراتنا ويؤثّر باعتباره

---

(30) Johann Gottlieb Fichte . (1762-1814): فيلسوف ألماني كبير من رواد المثالية، ويشير المؤلّف هنا إلى كتابه الشهير "خطاب إلى الأمّة الألمانية" (وهو العنوان الذي اشتهر باللغة العربية وإن كانت الترجمة الأصح هي "خُطَبٌ إلى الأمّة الألمانيّة").

قوّة محرّكة في الروح الفرديّة.

وكما أنّ بناء جماعة بشريّة خاصّة يقود إلى أبعد من التجاور في المكان، فإنّ التعاقب الزمني يتمّ تجاوزه كذلك بفضل بناء تاريخ بشريّ خاصّ. إذ أنّ ما ينشأ، ليس لدى الإنسان بإطلاق، ولكن تحديدا في عمله العقلي على التاريخ، يبقى مختلفا جوهريا عن النتائج المجرّدة وتراكم الأفعال حيث تبقى الطبيعة محدودة التأثير. إذ أنّ التاريخ الخاص بالبشر ليس اندفاعا مع الزمن، بل صراع ضدّ الزمن المجرّد وسعي إلى استخلاص ما يبقى من سيل الأحداث. ذلك لوحده يولّد تاريخا خاصّا بالإنسانيّة يمكن أن يثبّت فيه الإنسان داخليا ما يمرّ أمامه في الخارج، وهو لا يستطيع ذلك بدون أن يفصل النواة عن الغشاء، والروحي عن الإنساني المجرّد وأن يتمسّك بذلك. وتحديدا فإنّ فترات الازدهار هي التي تولّد صعودا إلى الحقيقة الباقية من خلال كلّ ما هو زمني وبشري. ولكن كما أنّنا نريد المحافظة بشكل دائم على الأشياء الخالدة فيما يسمّى بالعصور الكلاسيكيّة، فإنّنا نسعى إلى التمييز في التاريخ بإطلاق بين ما ينتمي إلى الزمن المجرّد ويسقط بمروره، وبين ما يمكن أن يدفع باتجاه مضمون للحقيقة لكلّ العصور ويكون متعاليا على الزمان. بذلك يصبح التاريخ مجالا لازدهار واقع روحاني، وهو الذي يضمن سندا أمام تيّارات السطح المتغيّرة، بل إنّه يمنح في مواجهة حاضر اللحظة البسيطة حاضرا شاملا للزمان، فيه يستمرّ داخليا كلّ أمر عظيم وبَانٍ للكيان، وما يندثر ظاهريّا فهو يبقى داخليّا، ويمارس تأثيرا متجدّدا على الدوام. إنّ الحضور الروحي هو موطن كلّ بناء حقيقي داخل الزمن ويرفعه فوق

الزمن المجرّد. وهكذا يناقض التاريخ البشري الخاصّ الادعاء القائل بأنّ حياتنا تنتمي بكليّتها إلى الزمان، وتبيّن فيه لقاء بين الزمان والخلود، إنّها ذاتها تبني وساطة بين الزمن المجرّد الذي يتحكّم في الوجود المباشر والخلود الذي يتطلّب الحياة الروحيّة. بذلك لا يتجاهل المرء أنّ بناء المجتمع والتاريخ يولّد تعقيدات جديدة، فيها يضيّق المجتمع بسهولة على حريّة الفرد ويقمع التاريخ الحياة الأصليّة للحاضر. ولكنّ هذه المخاطر بصراعاتها تكمن في المجال الخاصّ للحياة الروحيّة، وهي تسمح بظهور الحقيقة المتمثّلة في الارتقاء بشكل كامل فوق مجرّد التَجَاوُرِ أو التَعَاقُبِ، كما أنّ التعقيدات التي تولد هنا تدعم ارتقاء الإنسان فوق الطبيعة المجرّدة أكثر ممّا تجعله مشكوكا فيه.

وانطلاقا من ذلك تبيّن الحياة ذاتها في مجال الوجود الإنساني، تأثيرا تربويا وتعليميّا، وتُنْسَجُ خيوط كثيرة بيننا وبين الحياة الروحيّة، في جانب واسع حتّى وإن كان كثيرا ما يخترق ذلك التأثير تيّار خفي في مجال الوجود بأكمله. ذلك الصعود للحركة، ذلك التسلّق صُعُدًا للحياة يقرّب كلّ تأثير من الإنسان، ويُدْنِي كلّ نشاط بنّاء من الفرد وصولا إلى الإنسانيّة في كليّتها. هذا ما يشكّل التفنيد الأكثر حسما لكلّ نزعة تشاؤميّة كئيبة، فلا يستطيع ذلك التأثير فرض نفسه في وجه كلّ الاعتراضات وأن يواصل مسيرته ظافرا، لو لم تكن هنا موضع الرهان قوّة أعلى من كلّ اعتباط إنساني. وهكذا يمكننا أن نرى في ذلك تأكيدا لقناعتنا بوجود عالم روحي في المجال البشري ويمكننا انطلاقا من مثل تلك القناعة وحدها أن نبدأ فعلا في فهم مثل تلك الحركة. لا يتعلّق

الأمر هنا إلاّ بإدراك الكلّ، أي ما يحدث يوميا فينا ومن حولنا، وأن نصبح قادرين على مواجهة الشكّ القائم في قدرات الحياة الروحيّة.

هكذا نفهم أيضا كيف تحدّث أفلاطون عن تَوْقٍ لِلْخُلُودِ، كامن داخليّا في المستوى الأدنى واستطاع البحث عن سلّم ارتقاء لمثل ذلك الطموح في الكون. غير أنّ ذلك لا يعني مجرّد تطوّر للطبيعة، بل ارتقاء نحو الأعلى بواسطة قوّة الحياة الروحيّة. فالطبيعة يستحيل عليها ولوج مثل ذلك الطريق واتباعه، إذا لم تقم على أساس أعمق وتستشعر استنادا إليه دافعا للارتقاء. وهكذا فلا تنفصل الطبيعة والحياة الروحيّة أصلا بشكل حادّ، مثلما قد يبدو لأوّل وهلة. إنّ علاقة الإنسان بالطبيعة تبقى مزدوجة، فهي تناقض وارتباط. ينبغي في البداية فصل الحياة الروحية بشكل حادّ عن الطبيعة واجتناب اختلاطها بها، فبغير ذلك لا يمكنها أن تكون مستقلّة أو متميّزة بشكل خالص. ولكنّ الحياة الروحيّة بحاجة للعودة إلى الطبيعة، إثر تثبيت مناسب من أجل مواصلة تشكّلها، وهي لن تكون ظاهرة عندها كشيء غريب، بل قريب بحيث يمكنها أن تلتقي به وترتبط من أجل عمل مشترك. إنّ الموطن الرئيسيّ للعمل الروحيّ يبقى دائما العالم اللامرئي، ولكنّ هذا العالم لا يجد عندنا تكوينا جيّدا كاملا إلاّ بإدراك الوجود القائم حولنا وامتلاكه.

إنّ التعبير عن ذلك الالتقاء بين الروح والطبيعة بشكل ملموس يتجاوز قدرات العلم، ولكن قد يجد يُعبر عنه في الفنّ. إذ يتجلّى هنا بوضوح أمام أعيننا كيف أنّ الحسّي يصبح شِريانا للروحيّ ويمكن أن يخدم تطوّره، مثلما تكون الكلمات والأصوات والألوان قادرة على

تجسيد الانفعالات الأكثر حميمية وإذكائها. وليس أقلّ من ذلك أيضا أنّ الروحيّ يحتاج لدى الإنسان إلى مثل ذلك التجسيد ويصبح بذلك فقط واقعا مكتملا. وهكذا يبيّن الفنّ ارتباط كِلاَ العالمين ويمنح، على حدّ قول غوته، انطلاقا من وجود التناغم الأبديّ الضمان الأكثر سعادة. ولكنّ تجسير الفجوة يساعد الحياة بأكملها، من حيث كونه يمنحها ثباتا وبهجة لا تصل إليها بغير ذلك. فالطبيعة الكونيّة للحياة الروحيّة تتأكّد أكثر انطلاقا من ذلك. يمكن بالتالي في الصورة العامّة للحياة أن يبقى شيء لا يتأثّر بالحركة الروحيّة، بل ويقاوم تأثيرها، غير أنّ الحقيقة المتمثّلة في أنّ تطوّرا على نطاق واسع بصدد الحدوث، بقطع النظر عن رأي الإنسان البسيط وإرادته، يحمي من الشكّ في ما إذا كانت الحياة الروحيّة تعني لنا أيضا قوّة. وحده من يصرّ على التشبّث بالجزئيّات ولا يرى الغابة قبل الأشجار، قد يُنكر هنا تيّار الحياة القويّ.

عدم النضج وانعدام الأمان الظاهري للحياة الروحيّة

احتراز آخر يتولّد انطلاقا من الطريقة المتعلّقة بكيفيّة ظهور المضمون الخاصّ بالحياة الروحيّة للإنسان. إنّ الذي يريد إنكار أنّ الأمر حسب الانطباع الأوّلي يُظهِر ملامح فضفاضة بأشدّ ما يكون وأنّه تحديدا، حيث لا يوجد نظام حياة منغلق، وبخاصّة الديني، متشكّلا بطريقة قابلة للإدراك، فإنّه يكون مهدّدا بأن يصير غائما تماما. ثمّ إنّ العصور المختلفة تُدْرِكُ ذلك بطرق مختلفة، وتبدو حركاتها وتحوّلاتها إزاء ذلك ليّنة ومرنة، كشيء يستسلم لكلّ طلب ويتأقلم بسهولة مع كلّ الأوضاع. إنّ

مثل تلك المرونة تفتح للتفكير البشريّ الهامش الأوسع، ويجذب صراع الأطراف المسألة إليه، حيث يبدو كلّ شيء منبثقا عن آراء البشر وتأويلاتهم، ويوجّه تغيّر المصالح البشريّة حركة التفكير تارة في اتّجاه وطورا في اتّجاه آخر. غير أنّ ذلك لا يمكن أن يتفّق مع الاستقلاليّة والثبات والتفوّق التي تتطلّبها الحياة الروحيّة بل ويجب أن تتطلّبها. لقد شدّدنا بقوّة على تلك المطالب، وعلى قدر ذلك نتلقّى تناقض الانطباع الأوّل بِقُوّةٍ، وخطر التلاشي.

هناك خطر إذن، ولكنّ تصوّرنا للحياة الروحيّة يقاوم بقوّة، في ذات الوقت، مثل ذلك التلاشي ويحرّرنا من مثل ذلك الخطر.

لقد رأينا أنّ كلّ حياة روحيّة تنجز انفصالها عن النقطة المجرّدة، بحيث تهيمن على التناقض بين الحالة والشيء، بين الذات والموضوع بواسطة النشاط الكامل، والحياة الروحيّة لا تتقدّم شيئا آخر، بل تضع نفسها سندا ونقطة ارتكاز. إنّها ليست مجرّد تأويل أو تنظيم لحالة معيّنة، بل تكون بمثابة تحوّل للحياة إلى ذاتها وفي سبيل إظهار وجود في الذات تولّد في مجالها الخاصّ واقعا هو الوحيد الجدير حقّا بتلك الصفة. إنّ هذا النوع من الحياة لا يحتاج إلى ضمان وقائعيّته من الخارج، بل هو يحملها في ذاته، فيما يحمله من مضامين ومزايا، وأيضا في مطالبه وحركاته، وكذلك فإنّ ما تقع ملاحظته انطلاقا من الإنسان ويبدو على أنّه مجرّد إمكانيّة، يملك في هذا السياق وقائعية ويسمو فوق كلّ اعتبار إنساني.

في مثل ذلك التعميق تكمن الوقائعيّة قبل كلّ شيء داخل الحياة،

وليس في مقابلها، إنّها تكمن في الطبيعة الأقرب، التي تتطوّر انطلاقا من ذاتها، وكذلك فإنّ التَّوْقَ يشهد هنا على قدرات وفي ذات الوقت على حالة أساسيّة خاصّة، وهي تصبح مباشرة حال تجاوزها لوضع الذات المجرّدة وجذب الشيء إليها، إنجازا وفي الوقت نفسه برهنة من نوع روحي. وعلى سبيل المثال فإنّ ما يستيقظ في الإنسانيّة، مثلما رأينا، هو السعي إلى نوع جديد من التاريخ في مقابل التعاقب البسيط، وذلك ما يبرهن على القدرات المعلنة في التأليف بين العصور المتفرّقة وإدماجها في صورة شاملة، واستخلاص ما يبقى من تغيّر الأزمنة وبناء حاضر لازمني عبر استيعاب ذلك الباقي. أفلا تبرهن مثل تلك القدرات على خصوصيّة نوع الحياة الروحيّة وبذلك على وقائعيّة لا يستطيع أيّ تأويل أو تأليف أن يولّدها؟ مثل هذا المطلب المتعلّق بإرجاع الوقائعيّة في النسيج الأساسيّ للحياة الروحيّة يجعل المعالجة المألوفة للمشكل تبدو اختزاليّة ومفرطة في السطحيّة. فسؤالها يقتصر على النتيجة الختاميّة شأن تعلّق التاجر بالسلعة الجاهزة، لا يهمّه العمل وهو لا يضمن أنّ العمل أيضا ينطوي، في ازدهار القوى، على حقيقة خاصّة. نعم، يكمن في هذه الأسئلة الجوهريّة كيف أنّ العمل يكون أهمّ من نتيجته، وأنّ تشكيل العمل ذاته يبعث الحياة في قوى جديدة، يمكن أن تعمّق سيرورة الحياة. يمتدّ ذلك ليشمل تقييم الشخصيّات المبدعة المنفردة التي يكون إنجازها الأساسي هو مسار الحياة الذي تمّ تطويره بداخلها، طريقة رؤيتها للأشياء ومعالجتها، الطبيعة الخاصّة لعملها الذي يمكن أن يحافظ على قيمته، بعد أن تصبح النتائج قد تمّ تجاوزها وتقادمت بشكل كبير،

باعتبارها مشروطة في جانب لا بأس به. ولذا فإنّه من الخطأ الاقتصار على الاهتمام بالإجابة وتقييمها لدى المفكّرين الكبار، حيث أنّ أهمّيتهم تكمن قبل كلّ شيء في طرح السؤال القادر على تحويل الوضع في كليّته.

ولكن مهما كانت وجاهة مثل هذه الملاحظات فهي لا تستطيع كبت المطلب المتمثّل في أنّ التجربة المشتركة تدفع الحياة الروحيّة إلى اتجاه محدّد وتمنحها بذلك مضمونا ملموسا، ولكنّ ذلك يحدث بالفعل، يحدث حيث أنّه من ناحية، تنبني داخل الكلّ ظروف حياة محدودة، مجالات حياة متعلّقة بقوانين ودوافع خاصّة مثل الفنّ والعلم والأخلاق والدين، في الوقت الذي يتقدّم فيه السعي من جانب آخر إلى تصوّر مخصوص للحياة الروحيّة في كليّتها وإلى اختزال في عمل واحد يدفع حركة التاريخ الكوني دائما إلى الأبعد. ومن حيث أنّ الإثنين يتكاملان ويُقاس الواحد منهما على الآخر، يصل التطوّر المنشود للحياة الروحيّة إلى طريق ثابت ويتعالى بشكل يزداد أمانا فوق الاعتباط البشري.

يتسبّب السِّجال حول التصوّر الأكثر وجاهة لدى مجالات الحياة المختلفة، في إغفال الحقيقة الأساسيّة المتضمّنة لنشوءها وبقاءها. ولأنّ التصوّرات الأكثر وجاهة في الأخلاق وفي الدين مثلا تتنافر فإنّها تبدو بسهولة أعمالا مفتعلة من صنع الرأي البشريّ. ولن يعود ذلك ممكنا عندما يتمّ إدراك شيء عظيم في مقابل كلّ الأنواع الخاصّة للأخلاق والدين، بحيث أنّ الدين والأخلاق بإطلاق ينشآن في دوائر بشريّة لا تقتصر على مجرّد التأثير في الأفراد منفصلين بل تشكّل الحياة في مجملها بصورة خاصّة. إنّ ما يفصل الأديان المختلفة ويتسبّب في النزاع حولها،

يكمن أساسا في الظاهرة الأصليّة للدين بإطلاق، فهناك يظهر داخل حياتنا انفصال وتداول على التأثير بين نوعين أحدهما أدنى والآخر أرقى، وهناك يظهر تطوّر للنبل والرحمة من ناحية، والرهبة والإيمان من ناحية أخرى. يظهر نزاع عميق في حياتنا، بل انعدام للقيمة لها، ولكن تولد في نفس الوقت قوى جديدة وتوضع غايات جديدة، فما بدا إلى ذلك الحدّ الحياة بأكملها يصبح عندها مجرّد درجة. ويبيّن التاريخ الكوني أيضا هنا صعودا لا يتوقّف من حيث أنّ الإنسان وما يعرفه ويُجِلُّه على أنّه أعلى ويتصوّره أكثر فأكثر ضمن كلّ شامل، ويفهمه أكثر فأكثر على أنّه قوّة روحيّة، ويشكّل العلاقة به داخليا وأخلاقيا أكثر فأكثر، غير أنّه يحمل معه بالضرورة حركات كبرى وتحوّلات لوضع الحياة إجمالا. ومهما كان من أخطاء قد تتداخل مع مثل هذا العمل فهو لا يلغي بأيّ حال الازدهار الخاصّ بالحياة الروحيّة. ويكون الأمر شبيها بذلك فيما يتعلّق بالأخلاق. يبقى فوق تنازع المنظومات الأخلاقية، الحقيقة المتعلّقة بأن يحدث لدى البشريّة بإطلاق تحوّل نحو الأخلاق، وأنّه يكتسب سلطة عليها، ولكنّها تطالب بنبذ كلّ الغايات الذاتيّة وقرارا واهتماما خاصّين، إنّها تقدّم نفسها في ذلك على أنّها أسمى بكثير من كلّ الغايات الأخرى. قد تتقدّم مثل هذه الحركة لدى البشريّة بشكل بطيء وتجد باستمرار مقاومة حادّة، إنّها تتقدّم وتفرض نفسها في مقابل كلّ مقاومة، وهي تستطيع ذلك فقط لأنّها تتضمّن قيما ودوافع خاصّة، لا تقدر الحياة على التملّص منها. أيّة قوّة يمكن أن تمارسها مثل مركّبات الحياة النشيطة بالكامل تلك، فهو ما يبيّنه العلم، قبل كلّ شيء،

باستقلاليّة تفكيره. ففيه يتمّ تطلّب تسلسل موضوعيّ، يلخّص كلّ التنوّع في نظام كامل، وفيه تتقدّم كلّ فكرة بنتائجها بشكل ثابت لا يقبل الخطأ، وفيه لا يحتمل الأمر أيّ تناقض، ومن خلال اجتماع الكلّ تؤثّر في داخل الإنسان موضوعيّة تسمو على كلّ منفعة وكلّ رأي للإنسان المجرّد. وهكذا يكون لكلّ مجال من مجالات الحياة قوى خاصّة وقيم لا تقتصر على إثارة النفس، بل أيضا تشكّل الموضوع بصورة خاصّة، وتفصل فعله الخلاّق عن كلّ اعتباط بشريّ.

إنّ مثل هذا الردّ للوقائعية يعرض أيضا قناعات الإنسان عن الواقع في كلّيته على أرضيّة أوسع وأصلب ممّا تفعل ذلك الطريقة المألوفة، تلك التي تنتظر كلّ حقيقة من الفهم المجرّد. وكما أنّ مجالات الحياة المنفردة تكون خلفها حركة الحياة الكليّة وتعبّر عنها، فإنّ كلّ واحد من تلك المجالات يحمل في سعيه قناعة تنبع من الكلّ الشامل، وكذلك داخل المجالات المنفردة لا يبلغ أيّ عمل عظمة لا تتضمّن أو تمثّل اعترافا بالكلّ. مثل تلك القناعة ومعها النظرة الثاقبة إلى الواقع تبقى مختلفة حسب نوع المجالات. لقد رأينا كيف أنّ الدين يكشف، في صلب الحياة، مفارقة حادّة، وهو لا يستطيع ذلك دون أن يمزّق العالم وأن يبرز تناقضاته، ولذا فإنّ فكرة الدين المُحَايِث ليست سوى تناقض مثير للشفقة. هناك تجربة قديمة أخرى تكمن في الفنّ وتكمن كذلك في فعل التربية. إذ ومثلما يتبيّن، يشجّع الفنّ علاقة ودّية وتأثيرا مثمرا متبادلا بين العالَمين الداخلي والخارجي، إنّه يتجاوز التناقض بين الإثنين عبر مواصلة خلقهما، كذلك يعترف ويفسّر الإيمان عملهما بسياق الكون.

ويمثّل عمل التربية أيضا صيغة أكثر ودّية للوجود البشريّ من الدين بتناقضاته أو التي يمكن أن يتضمّنها. إذ كيف يكون إنجاز مثل ذلك العمل وكيف يمكن أن يكون ناجحا، إذا لم تكمن داخل كلّ كيان بشريّ قوّة روحيّة، وإذا لم توجد فرصة ليتمّ إيقاظها بفضل عمل مخلص؟ إنّ ذلك في ذاته ليمنع هيمنة الكنيسة على المدرسة، بحيث تبرز عند إعمال طريقة تفكير منسجمة حقائق مختلفة بينها وتحكم قناعات أساسيّة مختلفة. وبصفة مشابهة يولّد العلم والأخلاق أيضا تصوّرات خاصّة للحياة وللعالم في كليّتهما. وبذلك يتّضح كيف أنّ قناعات الأفراد، شأنها شأن عصور بأكملها، ترتبط أساسا بمسألة أيّ مجال للحياة يهيمن على عملها، بحيث نجد على سبيل المثال أنّ طَرِيقَيْ الباحث في الطبيعة والباحث في النفس يتباعدان كثيرا في العادة.

ولكن حتّى وإن أمكن بتلك الطريقة ضمان بناء مجالات حياة مغلقة مثل الحياة ذاتها وكذلك نقاط استناد ثابتة للواقع وغايات بالنسبة للقناعات، فإنّ لذلك الإنجاز حدودا ويتطلّب بالتالي استكمالا. تقود الحركات المختلفة في البداية إلى اتّجاهات شديدة التباعد، بل إنّها تولّد تناقضات حادّة، فعلى سبيل المثال ينخرط الفنّ والأخلاق والدين والعلم في نزاعات لا تهدأ. قد تتفكّك الحياة ويبقى السعي في انعدام أمان مُخْرِج إذا لم يتمّ بلوغ طابع عامّ وفي نفس الوقت اكتساب موقع، يحصل انطلاقا منه الإعداد لتوازن بين التيّارات المختلفة.

إلى نفس الاتّجاه يُشير مطلب آخر. إنّ ما تنشؤه تلك المجالات المنفردة في تحديدها من وقائعيّة، لا يتجاوز مستوى المشاريع والمخطّطات، إنّه

يطرح مهمّات أكثر ممّا ينجز منها، إنّه يشير إلى الهدف أكثر منه إلى الطريق. إنّها وقائعيّة ولكن من نوع غير جاهز، حيث يتمّ عرض أشكال ولكنّها تدفع إلى ما يتجاوزها باتجاه مضمون حيّ. ومهما قد يبدو التفكير صحيحا، فإنّه لا يصبح بذلك معرفة حقيقيّة، وأنّ اتّباع قوانين الإبداع الفنّي لا يعني تحديد طبيعة للفنّ. انطلاقا من الخطوط الأوليّة التي تكشف المجالات المنفردة، لا يمكن الوصول إلى بناء شامل إلاّ عندما تدفع الحياة في كلّيتها ضمن تجاوز للتعارض بين الحالة والشيء، باتجاه وحدة داخليّة وتُكسبه بذلك سِمَة متميّزة بالدرجة الأولى ويمكن بعدها سحب ذلك على المجالات المنفردة، والبرهنة عليه واختباره أيضا.

وهكذا تتمّ انطلاقا من أسباب مختلفة، المطالبة بوحدة الحياة الذاهبة إلى أبعد من المفهوم الأعمّ للحياة الروحيّة وتبرز تلك الحياة في الصراع من أجل التحكّم في الوجود واختراقه. مثل ذلك النوع من الوحدة ليس، فيما يبدو، أمرا حاصلا لنا سلفا في شكل جاهز، ولكنّ حركة تتجّه إليها عبر التاريخ الكوني في كليّته، بل إنّها تكوّن نواة ذلك التاريخ. كلّ قمم السعي الإنساني حاولت مثل ذلك التطوير. كذلك أنشأت الحضارة اليونانيّة في أوج ازدهارها وحدة حياة من نوع فنيّ وذات طابع تشكيليّ تقريبا وأضفت خصوصيّتها على كلّ مجالات الحياة. وأنتجت مثل تلك المعالجة، الشبيهة بطريقة عمل فنّي تشكيليّ، صورة خصوصيّة عن الكون وطريقة خاصّة للنشاط الروحيّ. ويقدّم العلم بدوره للجماعة-الدولة، مثلما يمنح لروح الفرد، غاية شاملة ومبدأ للتنظيم. إنّ الحركة التي ظهرت انطلاقا من ذلك قد التحمت بالجوانب

الخصوصيّة للواقع وأيقظت قوى ذات أهميّة، وفي قمّة إبداعها أمكنها الاعتقاد في بلوغ الغاية. ولكنّ التجربة بيّنت أنّ تلك الوحدة بكلّ إنجازاتها لا تَسْتَنْفِدُ الحياة في اتّساعها ولا في عمقها، فهي ليست في نهاية المطاف تحديدا سوى محاولة حتّى وإن كانت عظيمة، فلا يمكن سواء للمجالات المنفردة أو لحالة الروح في كلّيتها أن تقدر على مقاومته. مثل تلك المقاومة ناتجة في الحقيقة عن النظام القديم، إذ أنّ تطوّر العصور القديمة قد ولّد تجارب ومشاكل، لم يكفها الحلّ الكلاسيكي، وفي النهاية كان على مثل ذلك الحلّ الفنّي التنازل لصالح الوضع الطبيعي للتصوّرات الأخلاقيّة الدينيّة للمسيحيّة الرائدة التي ألقت ضوء آخر على الواقع وأحيت قوى أخرى. وصارت تلك بدورها مطعونا فيها ومكبوتة لأكثر من سبب من قِبَل تصوّرات الحياة في العصر الحديث الذي جعل من الرفع اللامتناهي للقوّة سواء باتجاه الخارج من خلال التقدّم التقني، أم باتجاه الداخل بفضل التفسير العقلي والتقدّم من أجل التقدّم مهمّة المهمّات التي مازالت تشدّ الحاضر إلى الأعمال الأكثر توتّرا، مع أنّ ملامح الحياة الداخليّة صارت تدفع بوضوح كاف من جديد إلى خارج ذلك الحاضر. لقد وضعنا حياتنا تماما في القوّة، وانتظرنا من تطوّرها إشباعا كاملا للروح. ولكنّنا أصبحنا نقنع أنفسنا أكثر فأكثر بأنّ الأمر ليس بمثل تلك البساطة، إذ أنّ الإنسان لا يضع كلّ جهده في القوّة ويجب عليه أن يتساءل عن معنى العمل. وهكذا تنشأ المطالبة بتصوّر شامل جديد للحياة، مثلما يبيّن ذلك عملنا أيضا، مطالبة أكثر بتحوّل الحياة إلى ذاتها، فانطلاقا من الامتلاك المزعوم نجد أنفسنا مرّة أخرى

وقد انتقلنا إلى بحث متعب. وهكذا وجد ويوجد بين التصوّرات الشاملة المنفردة عصور تحرّرت فيها الحياة من محاولة الارتباط باعتباره تضييقا، عصور مثّلت توسّعا في مقابل التركيز ونزوعا زائدا إلى النقد في مواجهة الإثبات الواثق. إنّ تأمّلا سطحيّا قد يرى في كلّ هذه الحركة محض موازنة دون قواعد ويعتقد أنّ التصوّرات السابقة بتراجعها الظاهريّ قد انمحت تماما، وهي تبقى في الحقيقة فاعلة أيضا حتّى مع التراجع الظاهريّ، وتعيد جذب الناس إليها وتحدّد للحياة أهدافا يجب عليها بالتأكيد أن تتوافق مع أخرى. وكذلك فلا ينبغي للعصور الإنكاريّة والنقديّة أن تُعتبر بأيّ حال مجرّد محْوٍ لما سبقها. إذ كيف يمكن لها أن تمنح لنفيها تأكيدا وتستطيع أن تقوده إلى الانتصار دون أن يكون وراء النفي إثبات يدفع نحو الأعلى، لا بدّ له أوّلا أن يجد الطريق إلى تمام التصوّر. وعندما يرفض النقد النوع الخاصّ للتصوّر، فضلا عن ذلك، فإنّه بذلك لا تضمحلّ الفكرة الشاملة لسياق حياة شامل. فالنفي لم يكن، وهو الذي يتمّ تمجيده في الحركة بتمامها، خاتمة وغاية في ذاته، بل تهيئة لتركيز جديد. وفي الختام فإنّ الإثبات والنفي يكوّنان مع العصور الخلاّقة والنقدية وجوها مختلفة لحركة واحدة شاملة، وتبدو تلك الحركة انطلاقا من ذلك حركة ذاتيّة للحياة الروحيّة، يتعيّن عليها أن تبحث في المجال الإنساني عن نوعيّتها الأقرب ومضمونها الكامل، وأن تستجمع قواها من أجل ذلك الهدف. ولكنّ الإنجاز يجد نفسه إثرها مفرطا في الصغر ومُجْبَرًا بذلك على محاولات جديدة، إلاّ أنّه مع الإثبات والنفي يزدهر في ذاته أكثر فأكثر ويشتغل في نفس الوقت على واقع حقيقيّ

وعميق. كلّ ذلك يمثّل وقائعيّة ثريّة ولكن نوعا آخر من الوقائعيّة المختلفة عن تلك الناتجة عن الانطباع الحسّي. إنّ من يبقى متمسّكا بذلك، فهو ينقصه النظر إلى الجانب الآخر.

لقد رأينا سابقا كيف أنّ المجالات المنفردة أيضا تتضمّن حركات ومعايير تقيس عليها كلّ عمل إنساني. وهكذا يصبح هناك فعل انطلاقا من جانبين من أجل وضع ثابت للحياة، مرّة انطلاقا من المجالات المذكورة بنوعها الخاصّ، ثمّ من الجهد التاريخيّ الكونيّ في سبيل وحدة الحياة الروحيّة، بحيث يلتقي الطرفان ويُختبر الواحد منهما من خلال الآخر، ويمكن أن ينمو الواحد بفضل الآخر وهو ما يثبت المسألة بالدرجة الأولى ويخلّصها من كلّ اعتباط بشريّ. إنّ التأثير المشترك لكلا الحركتين يولّد وضعا تاريخيّا كونيّا للتطوّر الروحيّ الذي يرسم لكلّ جهد غايات محدّدة ويفرض نوعا معيّنا من التأثير، وذلك الوضع يجب أن يناسب كلّ شيء، ممّا يريد أن يدفعه ويشجّعه بشكل دائم، أمّا ما لا يناسبه فهو لن يحرّك غير السطح. هل تقبل طريقة التفكير العلمي الحديثة مثلا، بفصلها الحادّ بين الإنسان والعالم وبتفتيقها الأقوى للنقد والتحليل، أن يتمّ سحبها أو إنكارها؟ هل يمكننا إنكار أنّ العمل قد أنشأ في الحياة الحديثة سياقات مستقلّة وابتعد في الوقت ذاته عن حياة الفرد أكثر بكثير من أيّ وقت مضى، وبالتالي فإنّ المطلب المتعلّق بالمشاركة في اتّساع حقيقة الأشياء وبالتحرّر من ضيق الوضع الخاصّ يلعب عندنا دورا أكبر بكثير؟ هل نستطيع إنكار علم طبيعي خاصّ وطريقة تفكير تاريخيّة واجتماعيّة والاعتراض عليهما؟ نستطيع ذلك

فقط طالما تنازلنا عن المشاركة في الحركة الروحيّة التي لن يمكنها عندها بناؤنا وتوجيهنا، وسنسقط في نفس الوقت في الفراغ الداخليّ وفي الانحلال الروحيّ.

هكذا يكمن هنا قرار كبير، لا يمكن إلاّ أن يتخّذه كلّ شخص بنفسه. إنّ من تبقى الحياة الروحيّة غريبة عنده، والذي لا يتأمّلها لذلك إلاّ من الخارج، فلا يكون بداخله ممّا لا مفرّ منه سوى التغيير والتحوّل والاعتراض والنزاع، وقد لا تكون عنده غير خيال ظلّ شارد. أمّا الذي يمسك بالحركة بنفسه فهو سيقف في الحال على الوقائعيّة الهائلة وعلى القوّة الغالبة، التي تؤثّر فيه، وسيدرك أنّه أيضا في الجهد والبحث يكون هناك إبداع في طور التشكّل، وأيضا أنّ الثبات الروحيّ لا يصل من الخارج بل يُكْتَسَبُ فقط من الداخل باعتباره تثبيتا ذاتيّا. يجب بالتأكيد على من يتقاسم الحركة أن يتقاسم أيضا تعبها وكفاحها، وحتّى الشكوك لن تكون بعيدة عنه.

ولكنّ الشكوك تكمن عندها داخل الحركة، بل إنّها تتولّد عنها أوّلا وهكذا فلن تستطيع أبدا زعزعة وقائعيّتها وتبقى الثقة المرحة غالبة على كلّ أنواع الحيرة.

العجز الظاهري للحياة الروحيّة في الكون

كون طبيعة الحركة المتّجهة إلى الروحانيّة تمارس مقاومة متعدّدة الجوانب داخل الدائرة البشرية، وكون الحياة الروحيّة، حسب نظرة أوليّة، تبدو لنا فضفاضة وشبحيّة حقّا، فإنّ ذلك لا يمكنه بكلّ

إشكالاته أن يهدّد القناعة بالحياة الروحيّة. فنحن لا نحتاج إلاّ إلى اختزال كلّ التجارب المعروفة، لكي ندرك حركة شاملة لإضفاء الروحانيّة على الطبيعة، وكلّ تأمّل ثاقب يكتشف في الحركة الخاصّة لحياة الروح تيّارا قويّا من الوقائعيّة. سيكون الاهتزاز أثقل وستنتابنا الشكوك بصورة أعمق، عندما يصبح وضع الحياة الروحيّة وقدراتها غير متأكّد في الواقع بكليّته. ويُسْتَشْعَرُ مثل ذلك الشكّ بقوّة خاصّة من فهم الحياة الروحيّة على أنّها نواة الواقع ويدعوها بذلك إلى السيادة الكاملة.

لقد صار الوجود المشترك للطبيعة والروح مليئا بالالتباسات. فإذا تصرّفت الحياة الروحيّة والطبيعة باعتبارهما درجة عليا وأخرى دنيا، فإنّه يكون من المنتظر أن تشير الطبيعة إلى علاقة شاملة وإلى اتّجاه للحياة الروحيّة. والإشارة إلى مثل تلك العلاقة هو ما خاطرت به العصور الماضية بشجاعة. كذلك مثلا بحثت القرون الوسطى في عالم النباتات والحيوانات إجمالا لاكتشاف دلائل على حياة المسيح وآلامه وانبعاثه. فالتأويل الرمزيّ ينسج وشائج بين العالم الظاهري والعالم الباطنيّ. ما أبعد تلك الطريقة في التفكير عنّا اليوم، حتّى فقط من خلال التوسيع الهائل للطبيعة في اتّجاه الكبر والصغر! حسب الصور التي تبيّنها الطبيعة لنا، فهي تبدو أنّها تعود إلى ذاتها وتحدث في ذاتها، ويبدو مجال التكوين العضوي وكأنّه لا يشير إلى ما هو أعلى منه. أيّة علاقة يمكن أن تكون مثلا بين امتلاء الحياة الباهر وثراء الأشكال المدهش لعالم أعماق البحار وبين تطوّر الحياة الروحيّة؟ ضمن الطبيعة في كليّتها يقود حقّا خيط إلى العلوّ حيث تزدهر الحياة الروحيّة، ولكنّ هذا الخيط ليس سوى واحد

إلى جانب خيوط كثيرة أخرى، وفي المواضع الأكثر اختلافا تتفرّع خيوط غيرها، وتمرّ دون أن تكتسب أيّة علاقة بالحياة الروحيّة. ثمّ ألا تقف الطبيعة في كليّتها أمامنا مثل لغز غامض؟ لا يمكن إنكار الارتقاء، ولكنّه يبدو وكأنّه يحصل داخل وسيط غريب ويواجه مقاومة عنيفة، وبدون المرور بالدرجات الأدنى لا يصل إلى الأعلى. وستجد الطبيعة بصعوبة تفسيرها النهائي في الآلية المجرّدة، ولكن لدى الاعتراف بقوى مُسَيِّرَة يتحوّل الأمر إلى تناقض مُلْغِز، فالطبيعة تشير دون كلل إلى التحطيم المتبادل، فيه تبدو وكأنّها تردّ الفعل على نفسها من خلال تقوية أسلحة هجوم البعض وتحصين دفاعات البعض الآخر. غائيّة في بعض المواضع ولكن مع انتفاء أيّة غاية قابلة للإدراك ضمن الكلّ! وهكذا فليس من الممكن للوهلة الأولى رؤية كيف يمكن أن تجد الحياة الروحيّة ارتباطا داخليّا مع ذلك العالَم، ولكنّها إذا لم تجده فهي بذلك تبدو وحيدة وسط الاتساع الهائل للكون الذي تزعم أنّها روحه.

وهكذا تنشأ شكوك جديّة. غير أنّها تتعلّق أكثر برؤية الكون من وضع حياة البشر الذين تصيبهم بشكل أكثر إيلاما التجربة المتمثّلة في أنّ مسار العالم الأكبر الذي نتواشج معه نحن أيضا، والذي لا يمكننا التملّص منه، يبدو لامباليا تماما بأحوالنا. ومنذ القِدَم شغل الناس وأثارهم وكثيرا ما دفعهم إلى اليأس إدراك أنّ ما يعني لهم داخليّا الأسمى وما يكلّفهم من جهد لا يوصف وتضحية، يبدو وكأنّ العالم إجمالا في غنى عنه. وتحطّم الطبيعة وكأنّها في حالة لعب، سواء بالقضم البطيء أو بكوارث عظمى، كلّ ما يكتسي القيمة الأعلى من الناحية

الروحيّة، فهي لا تعرف خيرا ولا شرّا، ولا تميّز. وأيضا في الدوائر البشريّة لا يوافق مصير الفرد قيمته الذاتيّة وتسقط مصائر الأفراد في أعلى درجات انعدام المساواة. حتّى وإن لم يحدث نقص في الجهد من أجل مواجهة مثل ذلك الوضع بعالَم العدل والنظام الأخلاقي، بل عالم المحبّة والعناية الخيّرة، ولكن يمكن ألا يكون ذلك سوى تجاوزًا لعالم التجربة عبر الهروب إلى مملكة الإيمان. هنا تنشأ عوالم تفكير كبرى، فيها تشعر دوائر واسعة وعصور طويلة بالأمان، ولكن دائما ما يتيقّظ الشكّ فيما إذا كان كلّ ذلك أمرا واقعا، وإن كان أكثر من دليل على آمال الإنسانيّة وأحلامها.

وفي النهاية يصل عجز الحياة الروحيّة أيضا إلى ثنايا النفس. هنا كثيرا ما تنفصل القوى الروحيّة عن أسسها وتسقط عندها بسهولة تحت سلطة الأدنى ذاته الذي من المفترض أن ترفعه عمليّة التحوّل إلى الروحانيّة. يترتّب عن ذلك تسلسل كامل من خلال مثل ذلك الانقلاب الكامل لقوى الأعلى إلى خدمة الأدنى، وانطلاقا من هنا تكتسي الشهوانيّة الطابع الظريف للمجون الذي يحطّم، مثل مرض السرطان، ثقافات بأكملها. ومن هنا يتعالى حفظ الذات الساذج للطبيعة، ويمكن للمرء أن يقول البريء، إلى أنانيّة بلا حدّ، تضع نفسها في مقابل اللامتناهي بأكمله وتُخضِعه لرغباتها. بل إنّه لا يمكن إنكار ما يبدو أمرا شيطانيا في الدائرة البشريّة أيضا، ذلك الرفض المتعمّد للخير، وتلك الرغبة في التحطيم والاستعداء والإنكار من أجل الإرادة الشخصيّة. وحده التنوير السطحي بإمكانه إنكار هذه الحقيقة. ومهما

كان انقلاب الميل والاتّجاه المقصود إلى الشرّ وإخضاع الإنسان له بشكل كامل فإنّه لا يمكن نفي الانقسام الحادّ في الروح البشريّة. وعندما يتميّز الأفراد في ذلك بشكل حادّ عن بعضهم البعض، فهو ما يعني أنّ كلّ الاعتبارات الدينيّة وأيضا الفلسفيّة الأعمق تبقى مرتبطة بالوضع العامّ وتجعل التناقض المتعلّق بما يتطلّبه الطابع الروحي للبشر وما تبيّنه تجربة حياته قابلا للملاحظة بقوّة. نجد من جانب، حيرة كاملة إزاء مصير الإنسان باعتباره كرة تتقاذفها قوى غامضة، ومن جانب آخر، بالدرجة الأولى، الضيق البائس للـ"أنا" واللامبالاة والخُمول الروحيّ وطريقة التفكير غير الحقيقيّة وغير الصادقة التي تهيمن على متوسّط الحياة البشرية والحطّ من شأن الحياة الروحية إلى مجرّد آلة للأهداف الصغيرة للأفراد وكذلك لجهات بأكملها.

لم تغب المحاولات لإبعاد الشرّ والذي لا مراء في وجوده من حيث أنّ المرء يضيف سياقات أكبرَ إلى ذلك ويعتزم هنا إظهارها على أنّها ذات فائدة. ويشير الاتجاه الأساسيّ، على اختلاف العصور، إلى دروب متباينة. فقد تشبّث المفكّرون اليونانيون بفكرة التناغم الكوني، التي وإن كانت مليئة بالمعاني وقويّة، فهي تفترض النشاز أيضا، وهو نشاز يتمّ تجاوزه انطلاقا من الكلّ الشامل. وطالما تعلّقت القرون الوسطى بتفسير الشرّ، كان هناك ميل إلى فهم الذنوب والآلام على أنّها وسائل لا غنى عنها وشروط للبرهنة على المحبّة والرحمة في أسمى معانيها، فالمحبّة الأبويّة بكلّ امتلائها لا تتجلّى، فيما يبدو، إلاّ للابن الضالّ العائد بعد ندم. وعلى النقيض من ذلك فإنّ العصر الحديث يبيّن خصوصيّته في

اعتبار السعي والعوائق والألم محفّزات ضروريّة للنشاط، وكمِحْرَارٍ لإيقاظ القوّة وتحويلها بالتالي إلى الخير. مثل تلك المحاولات لا ينقصها كلّ الحقّ، ويمكن لمسار الحياة الكامل في الحقيقة النظر إلى المسألة بشكل مختلف تماما، كما يفعل ذلك الانطباع المباشر، ولكنّه لا يستطيع بلوغ غايته الرئيسيّة، إذ هو يضع في مقابل الوقائع الملموسة إمكانيّات مجرّدة وتُعَامَل تلك على أنّها وقائع، ويتمّ بالأساس فقط تأجيل اللغز إلى النقطة التي يكون فيها محجوبا عن الإحساس. وبالخصوص فإنّ محاولات التفسير تسقط دائما في المأزق التالي: إذا ما اعتُبر أصل الشرّ هو السبب الأبعد فإنّنا عندها نسحبه إلى صلب الالتباس، أمّا إذا ما اعتبرناه أصلا خاصّا في مقابل ذلك، فعندها ينشأ انقسام لا يُحْتَمَل للواقع.

ولكن عندما لا يجد لغز الشرّ أيّ حلّ ويكون عجز الحياة الروحيّة غير قابل للتفسير في عالم التجربة، فإنّ التساؤل عمّا يمكن أن يترتّب عن تلك الحقيقة يطرح نفسه. إنّها لا تستطيع الخلخلة أو التحطيم إلاّ إذا أجبرها على التضحية بما نتج للحياة الروحيّة بالنسبة لمسار بحثنا، وعندما نُجبَر على التخلّي عن القناعة المتمثّلة في أنّ الواقع يجد عمقه الخاصّ في الحياة الروحيّة، ولكنّه لا يستطيع ذلك. إذ في مقابل كلّ مثل تلك الحواجز يبقى تواصل البناء الداخلي للحياة، وإنشاء مستوى جديد للواقع بمضامينه ومزاياه شديدة الثراء. وكما أنّ تلك الحقيقة ليست عملا للإنسان المجرّد، فإنّ وضعا مناقضا لوجوده لا يمحو ذلك أصلا. لقد صار واضحا لدينا بما يكفي كيف أنّ هذه الحياة في الدائرة البشريّة أثّرت سواء في الوجود الطبيعي تصعيدا أم بنموّها التربوي من خلال

عمل التاريخ الكوني، ولم يظهر بأيّ حال مجرّد تجاور مشتّت، بل إنّ الأنشطة المتنوعة تسعى سويّا إلى الكلّ الشامل، لم يكن هناك عرض لرؤى وتأويلات مجرّدة وصور وظلال لموضوع غريب، بل إنّ بناء الحياة في ذاته ولّد وقائعيّة ومنحها في ذلك القرب الداخلي أمانا لا شكّ فيه. إنّ هذه الحقيقة الأساسيّة، هذه التجربة الأصيلة لحياة جديدة على مسافة من الطبيعة وأيضا عن الوجود الإنساني المجرّد، تلك الصيرورة الداخليّة نحو الاستقلاليّة تفرض نفسها أمام الاعتراضات الأشدّ للمحيط الكوني، وأيضا فإنّ طبيعتها الكونيّة لا يصيبها بذلك أيّ ضرر. فالاعتراضات قد تمثّل اللغز الأكبر، من خلال الإشارة إلى المسافة الكبيرة بين مطالب حياة الروح وحالة العالم، وقد تجبرنا على تقييم وضع الإنسان بشكل سلبي وتفرض علينا الكثير من التحفّظ بإطلاق. فالحقيقة الأساسيّة ذاتها وفي نفس الوقت التوجه الأساسي للحياة لا يمكنه أن يجعلها مشكوكا فيها لدينا، فهي التجربة الأصيلة الأولى والحاسمة التي يتوقّف عليها كلّ شيء آخر، والتي تجعل الشكّ أيضا عندها فقط ممكنا. إذا سيطر الشكّ على نفس الإنسان فإنّ ذلك يعود دائما إلى حالة ضعف في قلب الحياة الذي متى كان قويّا، فهو كثيرا ما يُدفع، فقط من خلال الاعتراض إلى التطوّر الكامل، عندها يشعر بالأمان وبالثبات وتحديدا عند الاعتراض الأكثر حدّة.

وتبيّن التجربة التاريخيّة أيضا أنّ تأثير وضع العالم على مجمل القناعات يكون أساسا وفقا لاختلاف الأبعاد، وما يكون للحياة الروحيّة من موقف داخلي ومن حركة خاصّة في مواجهة مثل ذلك الوضع. هكذا

مثلا كانت حاضرة في الأذهان عند المسيحيين القدامى قَتَامَةُ هذا العالم إلى أبعد مدى، ولكنّها لم تلحق الضرر بثبات إيمانهم، لأنّ قوّة بداخلهم تحمل حياتهم وتجعلها أسمى من كلّ الالتباسات بكثير. وعلى العكس من ذلك، كان كثيرا ما هنالك أثناء عصور مليئة بإنجازات لامعة وازدهار للقوّة لم تقدر على مقاومة الشكوك لأنّ حياتها ينقصها جذر ثابت وفي نفس الوقت سياق آمن مع عالم للحقيقة الأصيلة. بل وأكثر من ذلك، إذ لا شيء جعل حياة أناس تهيمن عليها الطبيعة أكثر يقينا من إدراك وعيش نزاعات كبيرة داخل نفوسنا. إنّ عدم توافق هذه الأزمة مع قوّتها المزعزعة كان الدليل الأكثر تأكيدًا على ذلك، وكون الكلّ الشامل يبقى أكثر من مجرّد خيال، فإنّ الانشغال بتلك النزاعات جعل الحياة تراوح مكانها وتصبح تابعة لمحيطها. وحتّى قوّة الألم، بسبب غياب مزايا لا غنى عنها، فقد ولّدت الاعتقاد والأمل واليقين الثابت ثبات الصخر في أنّ ما نتخلّى عنه هو بشكل من الأشكال موجود وسيدركه البشر في نهاية المطاف. وحيث لا توجد نزاعات داخليّة، يغيب كذلك ضغط المشاكل الداخليّة، وإذا حصل ذلك فلن تستطيع الحياة اجتناب التورّط في عالم غريب عنها، حيث تبقى في الغالب مُتَّجِهَةً إلى الخارج، وعندها يكسب الشكّ اللعبة. وهكذا يكمن القرار، عند نهاية المطاف، في قوّة الحياة ذاتها وفي مضمونها، فإذا كانت قويّة وممتلئة، فستنمو حينئذ بفضل مواجهة الاعتراض عليها، أمّا متى ضعفت وخَوِيَتْ فهي ستنكسر أمامه.

ولكن مهما كان مؤكّدا أنّنا لا نُضْعِف القريب بالبعيد، ولا اليقين

بالشكّ وألا ننحني أمام مقاومة المحيط الدنيوي، فإنّ حياتنا تكتسب من خلال الاصطدام بتلك المقاومة ملامح طبع خاصّة. عندها يتعلّق الأمر بالمحافظة بشجاعة على عالم الروح ضدّ كلّ اعتراض بما في ذلك النابع من النفس، والبقاء على الوفاء لها وسط كلّ استعداء، وممارسة بطولة حتّى في العمل الهادئ للحياة اليوميّة. انطلاقا من هنا يصبح من المطلوب عدم ربط القرار المتعلّق بالعالم الروحي بأيّ ثواب أو بأيّ نجاح خارجي، وتثبيت الخير من أجل ذاته حتّى في حالة اعتراض قويّ للعالم الخارجي. في مثل هذا المسار الفكري اقترح أفلاطون تصوّره عن العادل الذي يشقى – بعيدا عن التصوّر المسيحي لهذا المفهوم–والذي لا يفعل سموّه وثباته الداخلي سوى تقوية كلّ ألم وكلّ ملاحقة، ليكسب من ذلك وعيه بعظمته الغالبة. وفي تصوّر مشابه لم ينشد كبار فلاسفة التربية إقامة البناء الأخلاقي على النظريّة التي مفادها أنّ الإنسان الخيِّر ينال السعادة والشرّير يلحقه الشقاء، بل إنّه ينبغي تقوية الروح بما يكفي في الخير لجعل السعادة فيها أقوى من كلّ ألم. وهكذا يكون الأمر حسب فرويبل[31] متعلّقا بتنوير النّاس بذلك، بحيث أنّ الذي يريد الخير حقّا «عليه العيش بالضرورة تحت الضغط الخارجي، إذ أنّ التخلّي عن الخارجي أو الحرمان منه أو إهماله من أجل كسب الداخلي هو الشرط لبلوغ التطوّر الأسمى» و«حتّى الانتصار أو بالأحرى اختراق وبالتالي تدمير الحواجز الخارجيّة للحياة بفضل الإرادة الذاتيّة، بواسطة زيادة قوّة

(31) . Friedrich Fröbel (1782-1852) هو عالم بيداغوجي ألماني يعتبر أحد أهمّ المنظّرين لفكرة تعليم الأطفال قبل المدرسة أي في رياض الأطفال.

الفعل، هو ما يضمن للإنسان داخل وعيه الشخصي السلام والبهجة والحريّة». وجدت طريقة التفكير تلك في المذهب الرواقي[32] تعبيرا كلاسيكيّا، وبدون شيء منها تفقد الحياة القوّة الضروريّة.

ولكن مهما أعلينا من شأن تلك الطريقة في التفكير فهي لا يمكن أن تكون غايتنا. إنّها تضع نصب عينيها الفرد والحفاظ على استقلاليّته قبل كلّ شيء، أمّا وضع المجموعة وبناء سياق روحي فلا تهتمّ به إلاّ قليلا. إنّها بذلك تعتبر الفرد قويّا وقادرا على مواجهة عالم يُنَاصِبُهُ العداء ومواجهة التباسات روحه، وتحافظ بشجاعة على القناعة الأساسيّة ضدّ كلّ أنواع الشكوك والاعتراضات ولكنّها لا تعرف تطوير الحياة عبر الاهتزاز والشكّ والألم. ولكنّ مثل تلك الطريقة في التفكير لا يمكن التنازل عنها، إذا كان ينبغي أن تبقى الحياة في بهجة وانسياب وسط كلّ العوائق. لو كنّا فقط في موضع الدفاع تحديدا ولو كانت الحياة لا تكسب شيئا بواسطة الصراع، فإنّه لا يمكن عندها اجتناب التوقّف، وسيكون الجمود لا مناص منه، ولا بدّ لغياب الهدف أن يشلّ كلّ قوّة فاعلة. وهكذا يتعيّن تجاوز مثل ذلك الجمود، وفعل ذلك هو ما يبشّر به الدين.

كان لبحثنا أن يتماسّ مع الدين في مواضع مختلفة، ولكن لم يتمّ تقدير مضمونه وأهميّته بالشكل الكافي. ولكنّ الدين يستطيع تسجيل هذا السؤال دون الاعتراف بأنّ كلّ ازدهار للحياة الروحيّة يحمل في ذاته

(32) . المذهب الرواقي أو الرواقية (Stoicism-Stoïcisme): مذهب نشأ في القرن الثالث قبل الميلاد خلال الفترة الهيلنستية، يقوم على مبدأ أنّ الانفعالات والمشاعر مثل الغضب والحبّ وغيرها ناتجة عن خطأ في الحكم ولذا فمن واجب الحكيم أن لا يخضع لها.

عنصرا من عناصر الدين، حتّى ولو كان في الكثير من الأحيان محجوبا عن وعي الإنسان. فكما أنّ انتقال الحياة نحو الوجود في الذات لا يمكنه أن ينطلق من النقاط الجزئيّة بل فقط من الكلّي، فكذلك يجب على كلّ عمل روحي حقيقي أن يكون مرتبطا بحياة الكلّ ومحمولا من جانبها. ذلك لا يعني مجرّد تدعيم للقوّة، بل تحوّلا داخليا لسيرورة الحياة. لقد رأينا أنّ الحياة الروحية الحقيقية لا يمكن أن تتحقّق إلاّ في تجاوز التناقض بين القدرات الذاتيّة والتأثير في الأشياء، وأنّ السموّ إلى النشاط الكامل يترتّب عنه وحده الوجود في الذات ويولّد مضمونا حياتيا. ولكن الآن يكمن كلّ شيء، مما يجعل الجهد والسعي الإنساني يمكن أن يتظافر، في جانب الذات المجرّدة، إلاّ أنّها لا تصل إلى الإبداع الذي يشمل الموضوع أيضا، وبالتالي ليس الواقع بأكمله. وحدها الحياة الكليّة هي التي تضمّ الناس وتجذبهم في تيّارها، ويمكنها أن تتجاوز الفجوة الحادّة، وتحوّل الأمل والإرادة المجرّدة إلى فعل وإبداع. كون الإنسان هكذا تحديدا، فيما يشكّل أدخل دواخله وأخصّ خصائصه، يتعلّق تماما بالكلّ ويستمدّ منه القوّة وكذلك الاتّجاه لسعيه، فهو ما كان حاضرا في مراحل ازدهار الحياة بكامل الوضوح. ولذا فإنّ البناء الفنّي ذا الأسلوب العظيم لا يعتبر نفسه من صنع قدرات فردية، بل هِبَةً من لدن قوّة أعلى. إنّ نفوسا مبدعة مثل غوته تقبّلتها باعتبارها هديّة من العناية الإلهية بامتنان وجداني وتعاملت معها بإجلال عميق. وقد توجّب على المفكّرين الكبار أن يكونوا تحت ضغط داخلي، إذ استطاعوا أن يواجهوا تطلّبات كيانهم بجرأة وبثقة في الانتصار، ممّا اعتُبِرَ منذ القديم وفي جميع العصور حقيقة.

يحرص أبطال الفعل، حتّى وإن كانوا كثيرا ما ينتقدون الدين المحيط بهم، على النظر إليه من جهة كونه وسيلة وآلة في يد قوّة مهيمنة على العالم، وبالخصوص فإنّ نفوسا أكثر جدّية لا تستطيع، بغير مثل تلك القناعة، تحمّل المسؤولية الهائلة التي يحملها عملها معه. ولكنّ مراحل الازدهار تبيّن بوضوح خاصّ ما يسري في ثنايا كلّ حياة روحيّة، ألا وهو الانتماء إلى حياة لا متناهية والارتباط بها، ولكنّ كلّ اعتراف بها وامتلاك لها يترتّب عنه نوع من الدين.

غير أنّ ذلك الدين الكامن في الخلق الروحاني هو مدخل للدين أكثر منه الدين ذاته. إنّه لا يُنشئ عالما خاصّا بقدر ما يحيط الحياة كلّها بجوّ مفعم بالنبل، وهو كذلك يترك دون تفسير كيف يمكن أن تنشأ الأديان التاريخية وتصبح قوى هائلة. وراء ذلك الجوّ تدفع الاعتراضات الهائلة التي تجدها الحياة الروحيّة نحو دين مستقلّ وقويّ، مثلما رأينا، في عالم البشر. طالما جاءت تلك فقط من الخارج فيمكن احتمالها، وهي تصبح غير قابلة للاحتمال عندما تتسلّل العوائق إلى أساس الحياة الأعمق، عندما يحصل انقسام حادّ في كياننا الأكثر حميمية. إنّ البقاء على ذلك الانفصام يضغط على الحياة بأكملها حتما ويوصلها إلى الجمود، وكذلك فلا يوجد هنا أدنى أمل في تطوّر تدريجي وتقدّم هادئ. إنّ أيّ تجاوز ينبغي أن يتمّ البحث عنه، تبعا لذلك، في قوّة تهيمن على الالتباس وتبعث في الإنسان حياة جديدة وتجعله يبلغ عمقا إضافيا للواقع وترفعه من خلال ذلك في كيانه الخاصّ فوق تلك الفجوة.

كون مثل هذا العمق الجديد ينفتح للإنسان في الحقيقة، فذلك هو

الزعم المشترك للأديان التاريخية، حتّى وإن تباعدت أشكالها كثيرا في التفاصيل. وتَصَوُّرُنَا للحياة الروحية أيضا لديه مكان لمثل ذلك التطوير، إذ يمكن للحياة الروحيّة الاعتراف عن طيب خاطر بإمكانيّته. فهو عندما يضيف إلى كلّ نشاط روحي حياة شاملة ويسمح بأن تُحمل من قِبَلِ قوّتها، فإنّ المواضع المنفردة لم يبلغها إلى ذلك الحدّ الكلّ إلاّ من خلال عمل في بناء العالم وكانت إلى ذلك الحدّ حاضرة فقط بصورة غير مباشرة، تبقى إضافة إلى ذلك الإمكانيّة الأخرى المتمثّلة في أنّ الحياة الكليّة تنفتح للمواضع المنفردة مباشرة أيضا وتُشركها في عمقها الخلاّق. إنّ ذلك من شأنه توليد حياة جديدة إزاء العالم، وأنّه في هيمنته يبلغ بالدرجة الأولى وجودا كاملا في الذات. إنّ فكرة الحياة الروحيّة من شأنها أن تصبح بذلك فكرة إلهيّة ويرتفع عالم الروح إلى منزلة ملكوت الله.

ولكن كون مثل هذه الإمكانيّة تصبح واقعا، فهو ما يتعذّر بيانه انطلاقا من مفاهيم مجرّدة، ولا يمكن التدليل عليه إلاّ بالظهور الفعلي والتقدّم لنمط حياة جديد، وهو الذي لا يمكن أن يولّده أيّ تفكير أو جهد إنساني. فقد يكون موجودا سواء في نفس الفرد أو في حياة البشريّة للوهلة الأولى دفعا ومطالبة أكثر منه عملا جاهزا، ثمّ إنّ ذلك يعني وقائعيّة بالنسبة للحياة وتحديدا عندما تلتقي الدروب المنفردة، وتشير إلى نفس الاتجاه، وتعترف بنفس المنبع أصلا لها.

عندما تريد كلّ الأديان حمل الإنسان على علاقة مباشرة بالألوهيّة، فإنّ الدين المخصوص يكون من الارتفاع بمكان، كلّما ازداد تحويله

للعلاقة نحو الداخل والكلّ، وكلّما ازداد الإلهي تماسّا مع الإنسان ليس فقط بتأثيرات منفردة، بل ويتواصل مع حياته، ويسمح له في أدخل أعماق الروح بالانفتاح على عالم الألوهيّة. ولكنّ ذلك التحوّل يتبيّن في كونه، لدى الإنسان أيضا، لا تظهر الحياة الروحيّة إلى العالم في الفعل، بل إنّها ترتدّ ضدّ نفسها وتولّد مضمونا جديدا في المجال الخاصّ، تستطيع أن تتمّ بناء كيان وتتفوّق على كلّ عمل. إنّ أمورا مثل الرأي والقناعة والطبع، مثلما رأينا، تؤثّر في العمل الروحي أيضا. ولكنّها لا تصل في ذلك إلى الاستقلاليّة التامّة وإلى الانطباع الخالص، وهي لا تفعل ذلك إلاّ إلى الحدّ الذي تكون فيه هناك حياة متفوّقة على العمل بشكل كامل، وهو ما لا ينشأ إلاّ بحضور الحياة الإلهيّة وفي علاقة بها. فحتّى في مجرّد المطالبة بذلك يتبيّن تكوّن طبقة حياة أكثر عمقا، حيث تصبح الحياة أكثر تركيزا ودفئا بل يمكن القول مُشَخْصَنَةً أكثر، وتنفصل حالة الروح عن كلّ إنجاز مجرّد.

ولكنّ كلّ تلك الأشكال تكتسي من خلال ذلك فقط مضمونا حيّا، بحيث أنّ الانفتاح المقصود للحياة الإلهيّة يولّد في الإنسان ارتباطا داخليا واتّحادا روحيا مع الواقع في كلّيته، مثلما أنّ ذلك في مفهوم الحبّ لا يجد بالتأكيد غير تعبير مجازي. ولكن مع كلّ النقصان يشير هذا المفهوم قطعا إلى اتجاه محدّد، إلاّ أنّه قد يكون أُزِيلَ عنه كلّ ما ينتمي إلى العاطفة المجرّدة، وأنّه لا يعني دعما للأنا المجرّد بواسطة آخر، بل بناء دائرة حياة مشتركة، زيادة عظمة الحياة واتّساعها مع تجاوز كلّ ما يكمن من فجوات وحواجز بين الذاتي والغريب. مثل تلك المحبّة يدركها المرء

في التوليد الرائع لحياة جديدة وكيان جديد بداخله، في تسام داخلي من شأنه وحده أن ينقذه من انحلال يهدّده. فقط حين تصبح المحبّة المُطْلَقَةُ القُوَّةِ كيانا للإنسان، يمكن أن يحصل تحرّر من ضيق الأفق البائس للأنا الطبيعي دون أن نسقط في الفراغ. مثل تلك المحبّة الإلهيّة ربما تستطيع القضاء على كلّ تصلّب وعداء، وكذلك أن تمنح قيمة للقليل وللخاطئ. إنّها تدفع إلى المشترك ضمن علاقة متبادلة بين البشر، بل إلى المُسَاوِي، إنّها تجدّد وتضفي الروح بذلك على كلّ التقاء إنساني. ولكنّها تبلغ فوق ذلك أيضا علاقتنا بالطبيعة وكذلك بالثقافة، إنّها تجعل من كلّ العالم يتحوّل لدينا من غربة بلا روح إلى وطن، وتجعلنا نعيش الأساس الخلاّق على أنّه ملك لنا، مثلما يمكن أن يعبّر لنا الفنّ تحديدا عن ذلك. كون مثل تلك المحبّة، مثل تلك الوحدة الحميمية مع الكون كلّه، تنشأ في الإنسانيّة ويمكن أن تصبح روح الحياة، فهو ما يشهد بالتأكيد على حضور الحياة الإلهيّة. ذلك ما عبّر عنه عصر الإصلاح الديني في اتّجاه محدّد من خلال القول بأنّ: «**العفو عن الآخر يجعلنا واثقين ومطمئنّين إلى أنّ الله سيعفو عنّا**»، ينطبق بكلّيته على هذه الحياة الجديدة. فحضورها في الإنسان يشهد على أنّه محمول من قِبَلِ الحياة الإلهيّة. إنّها المعجزة الكبرى المتمثّلة في أنّ الحياة الإلهيّة والمحبّة الخلاّقة يمكن أن تصبح حياة خاصّة بالإنسان، دون التخلّي عن السموّ المهيمن. إنّها معجزة وهي أيضا واقع بدونه تنهار الحياة الروحيّة.

ولكن متى أصبحت هذه الحياة الجديدة معترفا بها تماما ومملوكة بقوّة، فيمكن تجاوز العائق بشكل كامل وتحويل الحياة المحتبسة إلى التدفّق من

جديد. من المؤكّد أنّ ذلك التحويل لا يدفع الألم والظُلمة إلى التلاشي بأيّ حال، بل هو يزيد على الأرجح من ثقلها. إذ حيث أنّ المستوى الجديد يرفع المطالب دون استثناء، فإنّه يعرض حالة الوجود على أنّها لا تزال أقلّ اكتمالا إلى حدّ كبير، ومن النقص المسجّل عندها يظهر الآن تناقض حادّ. وهكذا يتحوّل القصور الأخلاقي ساعتها إلى خطيئة، والأخلاق المتعارف عليها تبدو بسهولة مجرّد كاريكاتور، وكذلك وضع العالم بلامبالاته إزاء غايات الحياة الروحية، ويصبح أكثر غموضا بصراعاته وآلامه، حيث تسود المحبّة الإلهية باعتبارها قوّة مهيمنة على العالم. ولكن حتّى وإن تعاظمت الألغاز وقويت الاعتراضات، فهي لا يمكن أن تزعزع حقيقة انبثاق حياة جديدة انطلاقا من الأساس الأعمق. ولكنّ تلك الحقيقة تمنح الإنسان موقعا ثابتا يجعله قادرا على مواجهة كلّ الاعتراضات. وهكذا لا يعني الحلّ الديني لمشكل الألم، بأيّ حال، تجاهلا للمعنى أو أيضا مجرّد إضعاف، بل إنّه يرفع الحياة الجديدة فوق مجالها كلّه ويضع في مقابلها عالمًا للمحبّة والبهجة. بالتأكيد فإنّ عمق الحياة المنفتح حديثا له قوّة لا تتزعزع ضدّ اعتراض العالم المباشر عليه وفرض نفسه وبذلك إثبات نزعة بطولية هي أعظم من كلّ ما يسمّيه العالم نزعة بطولية. ولكن قد يكون الدين قادرا ليس فقط على تجاوز الألم، بل على تحويله إلى حافز أيضا، وتلك هي تحديدا سمة لتشكّل الحياة الخاصّة به. إنّ تحويل الألم إلى مكسب ليس بأيّ حال من السهولة أو البساطة التي كثيرا ما تبدو. فعندما يقال إنّ الألم يسمو بالروح ويمنحها عمقا، فإنّ ذلك يتعارض تحديدا مع النظرة المحايدة

للتجربة. بل إنّنا لنرى على الأرجح أنّ الألم يجعل البشر ضيّقي الأفق وصغار النفوس ويملأ الحسد قلوبهم، في حين أنّ التحرّر من الحاجة والهموم يمنح القلب سِعَةً ويجعله جاهزا للمساعدة. لا يمكن للألم أن يعمّق النفس إلاّ متى كانت هناك وراء حياة العمل طبقة أخرى يمكن أن تنفتح للبشر، وبدون تلك الإمكانيّة فإنّ أيّ حديث عن تأثير نبيل للألم ليس أكثر من كلام أجوف. ولكنّ مثل ذلك العمق يصل، في الدين بالدرجة الأولى، إلى مستوى الاعتراف والتطوّر، ويمكن للألم عندئذ أن يؤثّر في اتّجاه التسامي، من حيث أنّ قوّته المخلخلة والمزعزعة تهيّء الروح لتقبّل حياة جديدة، وتوقظ فيها بداياتٍ بِكْرًا. عندها قد يدفع الألمُ الإنسانَ إلى منتهى عمق كيانه، وحينها يمكن الإشادة بمثل تلك الكلمات الكبيرة المعبّرة عن الألم، وربما أمكن، في اهتزاز الوضع الحالي، الوقوف على أنّ ما يُظهر كياننا كلّه ويبدو أنّه يربطنا بشكل وثيق، كان درجة معيّنة، بمقدورنا تجاوزها. ولكنّ ما يصحّ على الفرد، ينطبق أيضا على الشعوب وعلى الإنسانيّة بأسرها، فهي بدورها تحتاج إلى الخلخلة والتجديد وانبثاق بدايات أصلية، حيث أنّ الثقافات حتّى عندما تنجح، فهي تهرم وتزول. هنا ينفصل نوعان من الحياة يمكن تسميتها حسب الظروف التاريخية، يونانيّة قديمة أو مسيحيّة. هناك يبدو الروحي ثابت الجذور في الإنسان وموجودا بشكل مباشر، نوعا من طبيعة أسمى، حيث تجد الحياة مهمّتها في تحقيق ازدهار ذلك الجانب الروحي وفرضه في وجه كلّ هجوم، والفعل الحقيقي هو هنا استعراض ذاتي، استمتاع ذاتي بالقدرات الداخليّة. ويمكن أن يقال الكثير في تمجيد هذه الحياة

السامية والفخورة، ولكن هناك حاجز صلب: فكما أنّها تُقدَّم على أنّها كاملة ومنتهية، فإنّها لا تعرف أيّ ارتقاء داخلي، ولا أيّ استيعاب للألم أو أيّ تطوّر من خلال ذلك. ولكنّ ذلك يصبح غير كاف، عندما يكون وضع حياتنا مليئا بالالتباس ومحتاجا إلى التحوّل. إنّ نمط الحياة المسيحي الذي يصل أيضا إلى ما هو إنساني أساسي بعيدا عن الصياغات الكنسية، يضع المشاكل الداخلية للروح في المقدّمة، وتُكسِبُهُ حركة الحياة، من خلال ذلك، قيمة وتشويقا، بحيث ينفتح على عمق جديد فيه بواسطة التجربة والاهتزاز التي يعيشها الإنسان، وتتطلّب القوّة الأكبر لتملكّها، ولكن في ذات الوقت بواسطة تطوّر الحياة الجديدة تقودها فوق كلّ التباس. وهكذا يمرّ عبر النفي طريق إلى الإثبات المرح ولكن حيث أنّ الألم يبقى حاضرا في الانتصار أيضا، بل وينمو أكثر من حيث القوّة، فإنّ هذه الدرجة تُحيي كلا قطبي الحياة أي الألم والفرح، الحاجز والتجاوز، يتعايشان ومن خلال الاثنين يبقى وجودنا في حركة دائبة. هنا فقط يصبح تاريخ الروح ممكنا، وبذلك وحده يصبح للتاريخ الكوني أيضا روح، ويصبح تاريخا حقيقيا وليس مجرّد تطوّر. وانطلاقا من ذلك يتّضح أيضا، أنّ السِيَرَ الذاتية الثريّة في الأدب العالمي لا تكاد توجد إلاّ في أرضيّة مسيحيّة.[33]

(33) . ربّما كان الأمر بحاجة إلى المزيد من التوضيح أو إلى دليل حتى لا نسقط في الانطباعيّة وينفتح المجال إلى شبهة نوع من "المركزيّة المسيحيّة". ثمّ إنّ مثل هذه الأحكام قد لا تتّفق مع التصوّر الفلسفي بما هو تفكير كوني، من المفترض أن يكون متحرّرا من الأحكام المسبقة. قد تكفي هنا الإشارة إلى أنّ مساهمة كتّاب ومفكّري العصر الحديث في باب الاعترافات، وهي المتحرّرة من الدين أصلا في الغالب، ربما كانت أكثر ثراء من الأعمال التي ظهرت ضمن الثقافة المسيحيّة.

وعموما فإنّ ذلك جوهري بالنسبة لحياة المرحلة الجديدة، أن تحافظ على مهمّات الحياة الروحية ليس فقط ضدّ عوائق كبيرة، بل إنّها ترتقي بها أكثر، وهكذا تحمل هذه الحياة كذلك بشكل شامل طابع المفارقة الحادّة. هنا فقط يتطوّر وجود الحياة في ذاتها في مواجهة الارتباط بالغريب، وتنشأ في مقابل الصراعات والشكوك للعمل، راحة أكيدة في المحبّة الأبدية، وإزاء التسلسل الصارم للظواهر عالم للحريّة والفعل، وإزاء الالتباس المتنامي للثقافة عفويّة ونزعة طفولية، وإزاء العزلة المهدّدة في الصراع من أجل الوجود، تناغما للنفوس في عالم مشترك للحريّة الأبديّة والمحبّة الإلهيّة. ولكنّ كلّ ذلك ليس في الماورائي البعيد، بل في الحاضر المباشر. إذ أنّ تصوّرا خارجيا وحده بإمكانه أن يفهم عالم الدين على أنّه مَاوَرَائِيَّاتٌ أساسا، فهو بالنسبة لأتباعه الخُلَّصِ كان الأقرب دوما والأكثر يقينا، والموضع الذي يخوضون غمار الحياة انطلاقا منه، وانطلاقا منه يكون عليهم الاهتداء إلى طريقهم في العالم.

ولكنّ مثل ذلك التسامي فوق العالم المرئي لا يعني خروجا للدين من الحياة العقليّة. فقط حيث تثبت الحياة العلاقة بذلك، وحيث تحيي العمق الأبعد للحياة الروحية عند الإنسان، فإنّها تستطيع في ذات الوقت أن تحافظ على السموّ الغالب وأن يكون لها قرب روحي مباشر ودفئ. كلاهما ضروري لها بنفس الدرجة، ولكنّ كليهما يقع لدى الإنسان بسهولة في تضارب حادّ ويدفع باتجاه مناقض للآخر. إنّ السعي إلى رفع الإلهي قدر الإمكان فوق كلّ ما هو إنساني، يمكن أن يؤدّي بسهولة إلى معالجة المفاهيم الشكليّة المحضة والأكثر تجريدا مثل

الوحدة والوجود المطلق باعتبارها قضيّة أساسيّة، في حين أنّ مثل تلك المفاهيم لا يمكنها أصلا توليد دين حقيقي انطلاقا من قدراتها الذاتيّة. ومن جانب آخر فإنّ السعي إلى أكبر تقارب ممكن مع الإلهي، يجعل الدين بسهولة تشبيها مبالغا فيه، وعندها لا تصبح المفاهيم فقط بل رغبات الإنسان أيضا متموضعة بسهولة في صلب الكون ومكتسية صبغة الواقع. مثل هذا النوع من تصوّر الدين لا يسقط فقط تحت اتّهامه بكونه مجرّد انعكاس لضيق الأفق الإنساني وخصوصيّته في الكون الكبير، إنّه لا يعارض إلاّ بشكل ضئيل النوع الإنساني الصغير والأناني، إنّه يُفْرِطُ في تثبيت الإنسان في ذاته. وأمّا إذا تمّ على العكس من ذلك تأسيس الدين وتصوّره انطلاقا من الحياة الروحيّة، فإنّ الهيمنة والقرب لا يقعان في أيّ تناقض، وهكذا يكون ما هو «فوقنا» وما هو«فينا»، وكلاهما ضروري للدين، مُعْتَرَفًا بهما على قدم المساواة. من المؤكّد أنّ القرب المنشود هنا لا يعني انفتاحا كاملا حسب مفاهيمنا. إذ أنّ تلك المفاهيم تقع تحت هيمنة الاشتغال على العالم، وهو ما يضع أمام اشتغالنا عمقا إضافيا، ولا يمكن عرضه إلاّ بالمجاز، وبالتالي فإنّ الطابع الرمزيّ للفكر الديني يكتسي صبغة جوهريّة. وفي ذلك ينبغي علينا أن نجد أنفسنا، حيث أنّ ما يحدث في الحياة البشرية يبقى أكثر ممّا تنشؤه التصوّرات، وحده مثل ذلك العمق الأكبر هو ما يمنح شكله للرّوح.

انطلاقا من مثل ذلك التفوّق للدين على عالم العمل يتبيّن أيضا كيف أنّه يكسب قوّة إقناع للبشر ليس عبر تأمّل العالم بقدر ما يحصل ذلك من خلال الارتقاء نحو حياة جديدة. إنّ من لا يجد الإلهي في مثل هذه الحياة

الجديدة، فلا طائل من وراء بحثه عنه في الكون على اتّساعه. وهكذا فإنّ بستالوزي[34] على حقّ بالتأكيد، حين يقول: «إنّ اندهاش الحكيم في أعماق الخلق والبحث في مجاهل الخالق ليس تربية للإنسانيّة على هذا الإيمان. فيمكن أن يضيع الباحث في غياهب الخلق، وفي مياهه قد يضلّ الطريق، بعيدا عن منابع البحار التي لا مجال لسبر أغوارها. إنّ العفويّة والبراءة والشعور الإنساني الصافي للامتنان والمحبّة هي منبع الإيمان. وفي المعنى الطفولي للإنسانيّة يرتفع الأمل بالحياة الأبدية، والإيمان الصافي للإنسانيّة بالله لا يحيى في قوّته بغير ذلك الأمل».

استعادة وخلاصة

سنعيد الآن إلقاء نظرة على الطريق الذي قطعناه وتلخيصه، أي ما تجلّى لنا من خلال التساؤل عن مضمون الحياة وقيمتها.

لقد انطلقنا من زاوية متميّزة. فلم نبدأ، مثلما يحدث غالبا، بمفاهيم عن العالم المحيط بنا كي نسعى انطلاقا منها إلى تأويل الحياة، بل إنّنا توقّفنا عند الحياة ذاتها، وبحثنا عمّا يعتمل بداخلها، من أجل تنظيمه وإدراكه ضمن كُلٍّ شامل. أردنا تحديد خصوصيّة ذلك الكلّ والتوصّل انطلاقا منها إلى نقطة ارتكاز لموضعه ومعناه داخل الكون. فقط عند مثل هذا السعي إلى إعطاء مفهوم الحياة مضمونا أكثر تحديدا مما يحدث في

(34) . Johann Heinrich Pestalozzi (1746-1827) هو عالم تربية ومفكّر سويسري يعتبر من رواد التربية الحديثة. والفقرة مأخوذة من كتابه الذي يحمل عنوان "مساء الناسك" (Die Abendstunde eines Einsiedlers)

العادة وكشف واقع خاصّ في الحياة ذاتها، يمكن أن يولد الأمل في توضيح معناها وقيمتها. أن يكون هكذا قد حصل، بدل التفكير في العالم من حولنا، وعي للحياة بذاتها، فذلك يتضمّن مزيّة، ولكن في ذات الوقت مطلبا. تكمن المزيّة في أنّ المشكل يقترب بذلك من كلّ فرد. فيمكن لكلّ إنسان مجتهد، وليس فقط الباحث العالم، بل يجب عليه أن يتحمّله، ولكنّ الإنسانيّة يمكنها انطلاقا من هنا الالتقاء على أساس من القناعات المشتركة. ولكن مع القرب الروحي، الذي يمنح مثل تلك العودة على نسيج الحياة الأساسي، ومثل تلك الحركة باتجاه التفكير الذاتيّ والتعميق الذاتي، تصبح تبسيطا، تحوّلا مرتبطا وثيق الارتباط بالإنسانيّة البسيطة، مثل تلك نحتاج إليها اليوم بقدر ما أنّ العمل الثقافي منغمس في مساره.

ولكنّ المزيّة يقابلها مطلب. فقط لأجل ذلك يمكن للحياة أن تصفو بهذه الطريقة التي تظهر بذاتها في الحركة، فتجارب وحالات الصفاء والتعمّق لا يمكن أن يتقاسمها إلاّ من تحمّل الجهد والكفاح. بذلك يتّضح اتّساع الفجوة بين البشر فيما يتعلّق بكلّ مسائل الحياة ذات الطابع المبدئي، وينجلي الأمر المتمثّل في كون ما يبدو للواحد بديهيا ويشكّل القوّة الدافعة لحياته، هو في نظر الآخر مجرّد وهم. إنّ الانتشار الواسع للشكّ وانعدام الثقة هما النتيجة الضرورية، بحيث أنّ الحقيقة، فيما يتعلّق بتلك المسائل، ليست موجودة بشكل مسبق بل يجب تحصيلها، وأنّ مقدار تعميق الحياة يشكّل هنا مقدار المعرفة، فكلّ شيء يصبح سطحيا لدى النفوس السطحيّة. أن تكون الرؤى للواقع انطلاقا من

ذلك الأساس مختلفة، فهو ما لا يجعل من كلّ شيء بأيّ حال مسألة ميول ذاتيّة، وذلك لا يلغي الحقّ الحصري للحقيقة المتعالية. يقول مَثَلٌ هندي صائب: *"لا ذنب للشمس إن لم يُبصر الخفاش في ضوء النهار"*.

إنّ أوّل ما يتبادر إلى الذهن حول هذه المسألة، عند النظرة الشاملة للحياة هو الحقيقة المتمثّلة في أنّ الانسان يلتقي فيه مستويان من الواقع. فهو ينتمي أوّلا إلى الطبيعة ويبقى مرتبطا بها وثيق الارتباط حتّى في تطوّره. إنّها تبني أساس حياته، وهو يتمسّك بها أيضا وبها يتوجّب عليه دائما تجديد الارتباط، ولكن تظهر لديه، في ذات الوقت، ملامح جديدة بشكل جوهري، لا يمكن فهمها على أنّها مجرّد ارتقاء للطبيعة، وهي الملامح التي تسمّى روحيّة. يحوّل ظهورها الحياة إلى مشكل كبير. فالروحي يقدّم نفسه على أنّه أسمى، ويطلب قيادة الحياة. ولكنّه يكمن بداية فقط في ظواهر منعزلة، وتلك تفقد في تشتّتها شكلا واضحا وكذلك قوّة النفاذ. تبدو الحياة عندها وكأنّها واقعة في تناقض لا يُحتمل، ولا تستطيع تلخيص ذلك الروحي في كلّ شامل، ولا أن تجعله يُؤثّر باعتباره كُلاّ وفي ذات الوقت إبراز مضمون محدّد. كون ذلك يمكن أن يحصل بل ويحصل بالفعل فهو ما يعني تحوّلا كبيرا وما يتطلّب مكانا جديدا للحياة، بل ذلك يعني تحويلا كاملا للمكان الأصلي. ولكنّ هذا التحويل وحده يمنح الحياة البشريّة خصوصيّة مميّزة، ومعنى واضحا وفي ذات الوقت قيمة رفيعة. فمعه يتجلّى إظهار عمق الواقع الخلاّق في الحياة الروحيّة، وبذلك يمكن أن يصبح اللامتناهي بأكمله ملكا لنا. كلّ خصوصيّة نوعنا تصبح بذلك منضوية تحت حياة كونيّة حاضرة لدينا

ومضافة إليها. ولكنّ مثل هذا التحوّل ليس هبة الأقدار، بل يفترض قرارنا وفعلنا، وتتوقّف حياتنا بذلك عن أن تكون مجرّد سيرورة طبيعية، فهي تكتسي طابع الحريّة، ويجب أن تحملها الحريّة على الدوام. وإذا لم يتعلّق الأمر لديها بأساس قائم من أجل إنجاز أمر ما، بل ببلوغ مكان جديد في التسامي على الوضع الموجود وبناء حياة جديدة بأكملها، فنحن نتلقى بذلك مهمّة شاملة واحدة تتخلّل السعي في كلّ تنوّعه وتَحَفَظُهُ. وإلى ذلك الحدّ يمكن الحديث حقاً عن طابع أخلاقي للحياة، إلاّ أنّ الأمر يتعلّق عندها ليس بمطلب مفروض من الخارج بل بارتقاء الإنسان إلى استقلاليّة داخليّة، إلى حياة حقيقيّة وجوهريّة، بل إلى اكتساب عمق الوجود الشخصيّ.

إنّ الحياة المنبثقة من مثل ذلك التحوّل، مختلفة تماما في الشكل والمضمون عن الحياة في وضعها القائم بصورة مطلقة. إنّ تلك الحياة متروكة تماما لتيّارات الزمن، يدفعها تسلسل السبب والنتيجة بلا انقطاع من نقطة إلى أخرى، دون أن يضمن لها توقّفا وتحوّلا إلى الذات. وهكذا لا يوجد هنا أيضا أيّ حاضر، ويكون طلب تشكيل معنى من تيّار الأحداث هذا حينئذ من باب التهوّر. أمّا المستوى الروحانيّ فهو، على العكس من ذلك، يقود تيّارات الزمن، ويحملها إلى التوقّف ويمنحها إمكانيّة الاهتمام بذاتها، وإنشاء تحوّل إلى الذات وحضور، وفي مقابل الحدث الزائل ينفتح هنا عالم للوجود، نظام أقوى من الزمن. فقط على تلك الأرضيّة يمكن للحياة أن تكتسب مضمونا، في حين أنّ الانتقال من نقطة إلى أخرى يتركها في فراغ كامل.

وتُظهر الحياة، في نسيجها الأصلي كذلك، نوعا جديدا تماما في مقابل الطبيعة المجرّدة. هنا لا يكون الإنسان مجرّد نقطة إلى جانب نقاط أخرى ويتمّ التفكير فيه حصريا على أنّه يفرض نفسه إزاءها ويهيمن عليها، بل هنا تنشأ حياة انطلاقا من الكلّ وانطلاقا من اتّحاد داخليّ مع الواقع، حياة تولّد قِيَمًا جديدة بشكل جوهري مثل الخير والحقّ والجمال، قِيَمًا تفتح عوالم جديدة وتصبح ركائز أساسيّة لنظام شامل جديد، ويحمل امتلاكها معه شعورا ذاتيا بالارتياح وسعادة أسمى بها لا يُقَارَنُ. إنّ الحياة لا تسقط هنا في النقيض أي الإنجاز الموجّه للخارج والعناية بالوضع الشخصيّ، بل اشتغال على النفس وعمل على العالم يمكنها هنا أن تحقّق الارتباط بالوحدة وتولّد حياة أقوى من الانقسام.

بعد كلّ ذلك لم يبق لدينا شكّ في مضمون حياتنا وقيمتها. إنّها لا تنساب بغير معنى إلى منتهاها، وهي تحمل في ذاتها غاية سامية وتحرّك من أجل ذلك قوانا بكلّ مداها، وفي مثل هذه الحركة لا نخدم أنفسنا ببساطة، بل إنّ سعينا وفعلنا له معنى يتعالى على وضعنا الخاصّ. إنّ حياة الكون تصبح تجربة خاصّة بالنسبة للأفراد وتولّد هنا مصدرا للإبداع الذاتي. في هذا الموضع تستدعي حركة الكلّ الشامل فعلنا ولا تستطيع هنا بدونها التقدّم. وبانضواء الحياة بذلك تحت فكرة الواجب، تكتسي عندئذ جديّة ثقيلة، ولكن في ذات الوقت عظمة لا تُقَارَنُ، وانطلاقا من ذلك يصبح كلّ الفراغ والعدم وراءنا. مثل تلك الحياة لا ترفعنا فوق السيرورة الطبيعيّة فحسب، بل كذلك فوق الدوافع السائدة بصغرها وطابعها الظاهري. نقف بعيدا جدّا نحن المشاركون في اللاتناهي فوق

أنفسنا بالفعل في خضمّ عمل متفرّع بشكل واسع وبحث جهيد، فإنّ مثل ذلك النظام الأسمى يضمن لنا ثباتا داخليا وابتهاجا رصينا. وفي ذات الوقت تتغيّر مقاييس الحياة، فعظمتها لن تعود مرتبطة حينئذ بالإنجاز الموجّه إلى الخارج، بل بإحياء العمق الأصلي. إنّ ما يُعدّه قدر الحياة من اختلاف، يتراجع أمام العمل الذي نشترك فيه جميعا. إنّ انعدام البساطة الظاهرية يصبح متناغما مع العظمة الداخلية، وهكذا فلا ينبغي لأيّ كان أن يقلّل من شأن نفسه وحياته. فنحن بصفتنا مواطنين للعالم الروحي، ومنابع لحياة أصيلة، بإمكاننا جميعا أن نساهم في تشييد ملكوت الروح، فكلّنا تسري في عروقنا دماء المُلُوك.

وفي ذلك تبيّن الحياة الإنسانية في كليّتها حركة تتقدّم، وارتقاء عبر مراحل مختلفة. تندفع فوق حفظ الذات الطبيعي وفوق خليط الوجود العادي من أجل ازدهار عالم روحاني، ولكنّ هذا التحوّل الرئيسيّ يُحْدِثُ داخل العالم الجديد قطيعة بين العمل الثقافي والدين. وهكذا تنشأ طبقات ثلاث للحياة، تتضمّن مزايا مختلفة، وتضع مطالب مختلفة، وتولّد نظرات مختلفة للعالم. يرتفع الخلق الروحاني، فوق الضرورة الخارجية والطابع الوظيفي لحفظ الذات الطبيعي والاجتماعي، يبني العالم ويطوّر الحقيقة والجمال والحقّ، ويُتَوِّجُهُ كآخر ختام عالم داخلي متغلّب على العالم ومحبّة متجاوزة له. ولأجل تحقّق الحياة بأكملها يجب أن تبقى تلك المستويات المختلفة في علاقة دائبة. ويجب أن تواصل المستويات الدنيا سعيها نحو العليا التي تعود إليها بدورها ويتعيّن على كلّ فرد أن يطالب بحقّه مثلما يدرك حدوده. في مثل ذلك التأثير المشترك

تكسب الحياة حركة داخليّة مستمرّة وثراء فيّاضا.

وهكذا يتمثّل الأمر الأوّل والأهمّ، ضمن مجال الإنسان، في ظهور حياة أرقى من الطبيعة، روحانية، وهي الشرط لكلّ حركة إضافية ويمكن أن تعتبر أساسية. ولكنّنا لا نستطيع رفع مفهوم الحياة الروحية بهذه الطريقة ضدّ التصوّر المألوف دون أن نستشعر العوائق بشكل أثقل، تلك التي يواجهها تطوّرها في الدوائر البشرية. وكأمر رئيسيّ ثان ندرك أنّ الحياة الروحيّة تصطدم لدينا بالمقاومة الأشدّ وتصبح منغمسة في صراعات لا تنتهي. ولكنّ ذلك، مثلما رأينا، في اتجاهات رئيسيّة ثلاث. إنّ الاعتراف بالحياة الروحيّة باعتبارها نواة كلّ واقع يجعل المرء ينتظر ارتقاء كاملا للطبيعة في حركتها باتّجاه الروح، ورأينا أنّ الأمر ليس على تلك الشاكلة، وأكثر من ذلك أنّ ما يُعرض الآن على أنّه أدنى، يتشبّث بذاته ويعترض بعناد على الارتقاء. وإضافة إلى ذلك فنحن ننشد انتظار أن لا نحتاج إلاّ للتوجّه إلى الحياة الروحيّة كي نلتقيها في صورة مكتملة البناء، وفي الحقيقة تظهر تلك الحياة نفسها لدينا غير تامّة، فيجب على الإنسان أن يبذل الجهد الأكبر لكي تتجاوز المستويات الهزيلة للبداية. مثل ذلك السعي يقود الدروب في اتجاهات متنافرة ويجعل البشر يقعون في نزاع حادّ، وفي ذلك النزاع تبدو الحياة الروحيّة كلّها متوقّفة على الآراء البشرية وخاضعة لكلّ أنواع الشكّ. ولكنّ الالتباس الأكبر ينمو من الاعتراضات التي تجدها الحياة الروحية ليس فقط في الخارج، بل أساسا في نفس الإنسان ذاته. إنّ ما يعتمل هنا من قوّة روحية، كان كثيرا ما ينجذب إلى خدمة غايات أدنى، بل إنّ المقاومة تتوسّع بشكل كلّي.

يظهر انقسام داخلي للكيان الإنساني، وتبلغ العوائق مداها الأقصى، بحيث لا يمكن أن تترك للإنسان تحمّل مسؤوليّة على كاهله وأن ترفع من المرارة التي تطبع الألم من خلال الوعي بالخطيئة. ويعبّر كلّ ذلك عن مستوى الروحانية المكافحة.

ولكن مهما كانت قوّة مواجهتنا للاعتراض، فإنّنا سنجده، حتّى وإن كان ذلك فقط في اتجاهات مخصوصة، ليس فقط قد تمّت مواجهته، بل أيضا تجاوزه. يتبيّن في المجال الإنساني إلى أبعد حدّ، صيرورة تسام للطبيعة نحو الروحانيّة، ويتبيّن إضافة إلى ذلك عمل ناجح سواء في مجالات الحياة المنفردة أو في كليّة الحركة التاريخية الكونية، باتجاه تشكيل الحياة الروحية،

ووجدنا ختاما في الدين ارتقاء فوق ميدان النزاعات وبداية حياة متجذّرة في الله. وهكذا تدخل إلى جانب الروحانيّة المكافحة أخرى متجاوِزة. ولكن مهما أظهر ذلك التجاوز أنّ كفاح الحياة ليس بلا جدوى فإنّه لا يعني انتصارا خالصا، وهو ببساطة لا يحلّ المشكلة. وكذلك فإنّ الشقّ المعادي يحتفظ بأكثر ممّا يلزم من الواقع. إنّ ذلك لا يمكن بالتأكيد أن يتركنا للشكّ، إذ أنّ الحقيقة الأساسيّة المتعلّقة بظهور حياة جديدة تبقى غير متعرّضة للطعن من أيّ احتراز، بل حتّى الاعتراضات لا يمكن، متى دقّقنا النظر فيها، إلاّ أن تؤكّد تلك الحقيقة الأساسيّة. ولذلك إنّ انتصار الشكّ لا يبيّن إلاّ أنّنا لا نقف على قاعدة

اليقين في التجربة الأساسيّة، والتباسات وضعنا لا تحتاج إلاّ من يضع في مواجهتها حياة أصيلة. وهكذا تصبح قوّة الشكّ دليلا على ضعف داخلي. ولكنّ ذلك الوضع يجبرنا حتما على إصدار حكم على كلّ العالم الذي يحيط بالبشر، بعدم جاهزيّته وتناقضاته، باعتماده على أعماق أخرى، لا يمكن لذلك أن يعني الواقع في كليّته ولا يحمل اكتماله في ذاته، إنّه شكل خاصّ من الوجود، يحتاج إلى أسس أعمق وسياقات إضافية، لكي يبقى أصلا ويكتسب معنى. كذلك فإنّ عملنا أيضا ليس له أن يبحث عن آخر غاياته في هذا العالم المليء بالتناقضات، يجب أن يبقى متّجها، وسط كلّ الصراعات بثبات، نحو عالم من الروحانيّة المستقلّة والمتفوّقة ويخدم تطوّرها في ثقة ثابتة في أن لا شيء ممّا يحدث من أجل بناء عالم الروح يمكن في النهاية أن يضيع أو يكون بلا جدوى. إنّ كلّ ما في عالمنا من نقصان لا يمكن أن يخيفنا، متى فهمناه على أنّه جزء من سياقات أخرى ورأينا فيه بداية أكثر منها نهاية. تحتفظ حياتنا إذن أيضا بمعنى وقيمة متى كانت تقدّما داخليا أكثر منها تجاوزا خارجيا وإيقاظا وتجميعا للقوى أكثر منها بلوغا كاملا للغايات، عندما تكمن في سياقات لا تستطيع استجلاءها بوضوح. لقد كانت تلك قناعة لوثر عندما قال: **«إنَّهُ لم يُنْجَزْ ولم يحدث، ولكنّه يكمن في المسار والمخاض، إنّه ليس النهاية بل الطريق. إنّه لايغلي ويلمّع كلّ شيء، ولكنّه كلّ شيء بمحو نفسه»**.[35]

---

(35) . مأخوذة من "كتاب الأناشيد" (Gesangbuch) لمارتن لوثر المصلح البرونستانتي (1546-1483). ويبدو أنّ الكاتب اعتمد على ذاكرته حيث أوردها بشكل مختلف قليلا فهي

مثل ذلك الوضع للأمور يقود بالضرورة إلى مشكل الخلود، ليس فقط اللهفة الوضيعة على الحياة والرغبة في المزيد التي لا يمكن إشباعها، بل إنّ تطلّبا لا يمكن رفضه للحياة الروحية يُطرح علينا بشكل قسريّ. من الواضح أنّ العصر الحديث يجعل الردّ بالإيجاب على هذا السؤال شديد الصعوبة. فالامتداد اللامحدود للعالم في المكان والزمان في حدّ ذاته يطرح ذلك تحت ضوء مختلف عن الذي كان حين مثّلت الأرض مركز الكون وحيث بدا مسار الكون بأكمله يتمّ في حيّز قصير من الزمن، وفوق ذلك دخلت تبعيّة كلّ النشاط الروحي للشروط الجسدية عندنا بشكل يزداد وضوحا أمام أعيننا على الدوام. وعندما تجعل الحياة الروحيّة وحدها الإنسان إنسانا، إضافة إلى ذلك، فيجب أن يرعب ضعف التأثّر الروحي في معظم النقاط، حتىّ حيث تمّ إيقاظ الحياة الروحيّة من خلال التربية والعمل كقوّة مؤلمة، فإنّها تعود من جديد إلى الكُمون بشكل يكاد يكون كاملا في مسار الحياة، ويتلاشى كلّ التأثّر الروحي في حالة فيلستية[36] وضيق أفق. تبدو الروح وقد تلاشت، في حين لا يزال الجسد حيّا. ماذا يعني تواصل حياة مثل تلك الأرواح الفانية ما بعد الوجود؟ فالمفاهيم الموسّعة للحياة الروحية تجعلنا نشعر في النهاية بضيق ومشروطيّة شكل وجودنا بصورة تزداد قوّة على الدوام، وما عدنا قادرين على اعتبارها سعادة لا مشروطة

في كتاب لوثر : « reinigt sich » أي "يصفي أو يطهّر نفسه" في حين أوردها هو هكذا: fegt sich أي يمحو نفسه.

(36) . Philistertum : يمكن أن تعبّر عن المحافظة في التفكير وربما بسبب الجهل أو ضيق الأفق والتحجّر.

بطريقة التفكير القديمة، وأن نجرّ ذلك الشكل الخاصّ من الوجود بكلّ ضيقه وعَرَضِيَّتِهِ على مرّ العصور، ويجوز أن يفضّل بعضنا خلاصا كاملا على مثل ذلك التثبيت الجامد.

ولكن بقدر ما يتمّ الاعتراض على الإيمان في العصر الحديث، فإنّ إنكارا واضحا يبقى غير ممكن لمن يعترف بصورة الحياة التي نقدّمها هنا. إذ تبدو الحياة حسب مضمونها الروحي ليس فقط لدى الفرد، بل كذلك عند الإنسانيّة كلّها، وكأنّها غير تامّة عموما، وكأنّها مجرّد بداية لطريق، ولا يوجد أدنى أمل في أن تتحوّل دائرة الوجود المباشر إلى عالم للعقل، بل إنّ كلّ تقدّم يُفاقم الالتباس على الأرجح. كذلك يجب أن يجعل ختام هذه الحالة كلّ الحركة باتّجاه الروحانيّة بلا معنى، ويصبح كلّ جهد عديم الفائدة عندما لا يصل تطوّر الحياة الروحيّة إلى أبعد من ذلك الارتباط وأيضا يرفع الكيان الفردي بشكل من الأشكال فوق ذلك. عندما يوجد حينها تطلّب لديمومة باقية، فإنّه لا يمكن لمثل تلك الديمومة أن تمتدّ إلاّ إلى النواة الروحيّة القائمة فينا، ونجد أنفسنا أمام سؤال ما إذا كان مسار الحياة لا يوقظ فينا الاستعداد القائم نحو الحركة الذاتيّة، وأنّ تلك النقطة تفرض نفسها بصفة دائمة وأنّ قدرتها لا يمكن تحويلها بشكل آخر.

وأهمّ من كلّ تفكير في المستقبل تبقى الحقيقة المتمثّلة في أنّ حياة أقوى من الزمن بصدد التكوّن لدينا، يمكن أن تجعل الإنسان يكسب نصيبا من نظام أزلي ولانهائي وتحديدا -وهو ما يتعلّق به الأمر- ليس فقط بأنشطة منفردة، مثل القدرات الفكرية، بل كطاقة روحيّة، ككيان يشكّل

العالم ويشمله، بوجود كامل، وما يتبيّن من خلال ذلك ويزدهر ممّا هو فوق الزمن، فهو لا يمكن أن يمرّ تماما في تيّار الزمن. إنّنا لا نتشبّث فقط بالأبديّة، بل إنّنا نوجد في الأبديّة. ذلك ما يعنيه غوته أيضا، عندما يقول:

«كذلك هي الإجابة عن السؤال الكبير

حول وطننا الثاني،

فما يبقى من أيّام أرضيّة

يضمن لنا البقاء الأبديّ»

ويبقى الأمر مع ذلك أشدّ غموضا من أن يتمكّن من بناء صدارة لحياتنا، وبذلك يتمّ فقط رفض الإنكار الدوغمائي. أن يكون لذلك الغموض فضل يتمثّل في تثبيت سعينا في هذه الحياة، وأنّه لدينا حقّا ما يكفي لنفعله، مع استبعاد العمل عن أفكار الثواب الصغيرة وفي ذات الوقت، فإنّ ذلك ما عبّر عنه فيلسوف بمنزلة **كانط** في نقده للعقل العملي باعتباره مُعتقده. فهو يختم تحليلا ثاقبا وعميقا لتلك المسألة بهذه الكلمات: «**وعليه، فإنّ ما تُعَلّمنا إيّاه دراسة الطبيعة والإنسان من مكان آخر بشكل كاف، إنّما يصحّ هنا أيضا، وهو أنّ الحكمة التي لا يُسبر غورها والتي بها نوجد، ليست أقلّ جدارة بالاحترام بسبب ما حرمتنا إيّاه، منها في ما أنعمت به علينا.** »(37)

---

(37). أنظر: كَنْت، إيمانويل: نقد العقل العملي، ترجمة غانم هنا، المنظّمة العربية للترجمة، بيروت، 2008 (ص. 250).

النتائج بالنسبة لحياة الفرد

المسار المشترك للحياة

كما أنّ كلّ نظام حياة يجب أن يخضع للاختبار على محكّ وجود الفرد، فإنّه يجب على نظام حياتنا أن يفعل ذلك، وهو يفعل ذلك من حيث أنّه يطرح على الحياة الفرديّة مهمّة شائقة ويمنحها سياقا داخليا ينتزعها من التناقضات التي تهدّد بتحطيمها. وتستمدّ تلك التناقضات جذورها من كون الإنسان، باعتباره كيانا مفكّرا يتعالى على الطبيعة المجرّدة ولم يعد يجد فيها إشباعا، ولكنّ وجوده في مجمله لا يظهر النشاط الروحيّ بصورة قويّة بما يكفي لتقديم حياة جديدة، وهكذا يحوم الإنسان في وسط غير آمن. ولأنّ محاولات المساعدة سرعان ما ينكشف نقصانها، فإنّ كلّ شيء ينتهي في تسليم قاتم، وتغدو الحياة، مثلما يقول شوبنهاور، تجارة خاسرة.

يبدو مسار الحياة عبر مراحل العمر المختلفة، مثلما تبيّن من التجربة، في البداية بمثابة ارتقاء، ولكن لينقلب إثرها انحدارا، وبالتالي خسارة جسيمة وخيبة كبيرة. فعند ولوج الحياة يجد الفرد لدى دائرته المقرّبة ترحابا ودودا واعتناء لطيفا، كما أنّ طريق الطفل الناشئ يحرسه الحبّ والخير، وحتّى إن وُجِدَتْ بعض الآلام والهموم الصغيرة، فإنّها لا تُفسد ازدهار الحياة ومتعتها. وباعتبار أنّ التبعيّة لا تؤثّر بشكل ضاغط في تلك

المرحلة، فإنّ عمر الطفل تنشأ فيه بذلك حالة من السعادة البريئة بعد أن تصبح في مرآة الحياة اللاحقة كثيرا ما تتراءى وكأنّها الجنّة المفقودة. ولكن إثر ذلك يتيّقظ مطلب الاستقلاليّة الكاملة، وتدفع الحياة باتّجاه التحرّر والاتّساع، ويبحث الإنسان عن دروبه الخاصّة ويعقد عبر الصداقة والحبّ روابط من اختياره. تتيقّظ دوافع جديدة، وتبرز آمال جديدة، وتضيف القوى الحسّية المتموّجة إلى الحياة الروحيّة أيضا حوافز مثمرة. يتّجه التوق والأمل هنا إلى اللانهائي، وتبدو أمام الروح الساعية إمكانيات لا محدودة للاختيار، ويولّد البحث الأصلي عن القوى الجديدة الإحساس بأنّ العالم يبدأ الآن فقط سيره الحقيقي، وأنّ الشمس تشرق الآن فقط بكلّ قوتها، وعندها فقط يحصل الازدهار الكامل لسحر اللّذة والحبّ. ويبدو الماضي بسهولة مجرّد مرحلة سابقة لما وصل عندها إلى نقطة القرار، وعندئذ يصبح المستقبل مُتَشَكِّلاً، ويتبيّن الطريق لكلّ الفترات اللاحقة. لا يستطيع الشباب أن يفكّر في ذاته بهذه العظمة دون أن يجلب لنفسه بعض الآلام والهموم، وحتّى المخطّطات المجنّحة إلى بعيد فهي تجعل ما هو غير كاف ومعارض للسعي لدى الوضع القائم يتمّ الشعور به بقوّة خاصّة. ولكنّ الوعي المرح بالقوّة يخلق من ذلك دافعا أكثر منه عائقا للحياة، وكذلك فإنّ إيمانا ثابتا يسود قوّة العقل والعدالة في الدوائر الإنسانيّة، وهو أيضا إيمان بهيمنة العقل الحرّ على كلّ موروث جامد.

ينتقل الإنسان مع تقدّم العمر من زمن المشاريع والمخطّطات إلى زمن العمل، حيث يتعلّق الأمر بأن يمارس العمل بنفسه ويحوّل القدرة

الكامنة إلى فعل، فيقع اختيار عمل وإنشاء أسرة. يحمل ذلك تضييقا محدّدا للحياة وانعطافا نحو طريق هادئ. ولكن عندما تزول عاصفة الشباب واندفاعه، فإنّ الحياة تتشابك لأجل ذلك بشكل أوثق مع محيطها وتكسب أرضيّة أكثر ثباتا. تصبح الغايات أكثر وضوحا أمام العين، ويكسب الفعل المزيد من الأمان. وينبثق الحبّ والفرح من العمل المثمر، ويمكن أن يولّد تفانيا وتضحية، إضافة إلى قوّة أخلاقيّة بنّاءة لذلك العمل لا يمكن إنكارها. غير أنّ الحياة سرعان ما تصل عند ذلك التحوّل إلى نقطة حرجة، وهي النقطة الأكثر حرجا في وجودنا كلّه. يُجبر التحوّل إلى العمل على توجيه النظر إلى الإنجاز ويصرف الإنسان عن التعلّم الذاتي، إنّه ينقل مركز ثقل الحياة بشكل تصاعديّ إلى العلاقة بالمحيط الاجتماعي ويجعل من الفرد خادما لرغبات ذلك المحيط. لا يترتّب عن ذلك التباس كبير طالما بقيت جذوة الشباب وبثّ الحرارة في النشاط اليومي. ولكنّ تلك النار تنطفئ تدريجيا وتخمد القوّة الطبيعيّة للشباب شيئا فشيئا، ويكون التساؤل عندها إن كان ما قد ضاع بذلك سيتمّ تعويضه بالمقابل. ولكن بذلك يكون بلوغ النقطة الحرجة وتقف الحياة أمام قرار مثقل بالتبعات. وحدها القوّة الروحية بإمكانها تعويض القدرات الطبيعيّة المتراجعة، ولكنّها لا تستطيع ذلك إلاّ متى كانت الدوافع الروحية التي انضافت للفرد قد ضربت بجذورها فيه بعمق، وبما يكفي لتوليد حياة مستقلّة والتهيئة للصراع ضدّ العوائق. ولكنّ هذا لا يحدث غالبا مثلما تبيّن ذلك الملاحظة التي لا تقبل الجدال. فالحياة الروحيّة لا تَتَسَنّى المحافظة عليها بالقوّة الخاصّة ولا عبر جهاز

الدفع المعقّد للحياة الاجتماعيّة. ولكنّ ذلك يعني تحديدا، وحسب تحليلنا إلى هذا الحدّ، تناقضا حادًا. فعندما تبقى الحياة الروحيّة في صيرورة الاستقلاليّة، فهي لا تقبل الخضوع لنظام غريب دون أن تتسطّح بشكل سيّء وتصبح مغتربة أمام ذاتها، ودون أن تسقط في مجرّد مظاهر. ذلك ما يجب على الفرد أيضا أن يجرّبه في جسده فهو لا يمكن أن ينظر بالأساس نحو الخارج ويحسب التأثير على المحيط دون أن تضعف قوّة الحياة وتذوي مشاعره، ويصبح بدل فرض الذات المرح مجرّد تبادل للتأثير والتأثّر، ويتحوّل عندها الخلق الأصلي إلى روتين العادة، وتتمدّد المكننة عديمة الروح أكثر فأكثر. يسقط العمل في الروتين، وما يبعثه الحبّ المضطرم، سيحفظه تعوّد الحياة اليومية وحساب بارد للمصالح بجهد كبير. ويتحوّل الحماس المرح لفترة الشباب، في ذات الوقت، إلى واقعيّة رصينة، ويصبح ثقل الظروف التي قلّل زمن الشباب من قيمتها بشكل كبير مبالَغا في قيمتها ويعطّل كلّ صعود جَسُورٍ، وينطبق الأمر ذاته على قوّة الصغير والتافه، وكذلك الصدفة التي كثيرا ما تحطّم عملا دؤوبا ومخطّطات معدّة بدقّة في لعب عابر. هل نؤاخذ الفرد عندما يتخلّى تحت مثل تلك الانطباعات والظروف والتجارب عن التحكّم في الأشياء وينشد التأقلم مع محيطه قدر الإمكان؟ كذلك فإنّ الحياة الاجتماعية التي يندمج فيها الفرد الآن برغبة في الخدمة وبحماس وانضباط، تقاوم الشعور بالفراغ الداخلي الذي يدفع إليه مثل ذلك التحوّل. إنّ المجتمع لا ينقص فيه الاعتراف بالإنجاز في العمل، إنّه يحفّز طموح الفرد ويداعب غروره، وكذلك فهو

يبتكر أساليب التسلية وتمضية الوقت بحماس لا يكلّ واللعب والرياضة كبديل للحياة الحقيقيّة التي تسعى إلى تغطية فراغ الكلّ بالاستثارة العاطفيّة للّحظة. ولكنّ طرد الشعور بالفراغ لا يعني تجاوز الفراغ ذاته، فالنفوس لا تعيش حياة حقيقيّة في كلّ تأثّر مولّد بطريقة اصطناعيّة، وهي نفوس ميّتة إذا نظرنا إليها من الداخل. وكثيرا ما يُستثار عندها حنين مفعم بالحسرة إلى الطفولة حيث كانت الحياة تتجلّى على اتّساعها أمام الإنسان وحيث كانت تبدو كلّ الإمكانات لا تزال مفتوحة والنبض أقوى بكثير.

وتخذل المرء في النهاية قواه في العمل، ويتحقّق الانسحاب منه ويبدأ عمر الشيخوخة. ذلك التوديع للعمل الذي يصير عبئا بشكل متزايد، يمكن أن يكون له في البداية وقع الارتياح، تصبح الراحة حينها لذّة، ويتلاشى الصراع المرير ويحلّ جوّ آخر ويصبح المرء أكثر عدلا في حكمه وهو في وضع المتفرّج الذي لا دخل له في الأمور. تمثّل سنّ الشيخوخة زمن التأمّل ولكنّه تأمّل منفصل عن الإنتاج، وهكذا فإنّ ما ينشأ من حكمة هنا يكون عقيما وباهتا، وهو يمكن أن يسهّل الانفصال عن الحياة أكثر من أن يمنحها قيمة. والتقييم الذي يحصل بشكل استعادي، يصبح مطابقا للتشاؤم أكثر منه للتفاؤل. لقد زوّدت الطبيعة كلّ واحد منّا برصيد في الحياة، غير أنّ ذلك الرصيد كان محدودا، وقضمنا منه بالتدريج، فما الذي ينبغي علينا الآن فعله؟ كان لنا بعض النجاح، ولكنّه جعلنا ننسى الروح ونقع في الهموم وحتّى النجاح فهو يسقط بدوره في انعدام الأمان عندما يتيقّظ الشكّ في معنى الحياة وقيمتها بإطلاق،

والذي يخدم كلّ عمل خاصّ. وكيف لا يتيقّظ هنا؟ لقد سعينا من لحظة إلى أخرى وتمنّينا على الدوام أن يكون بلوغ القمّة القادم خاتمة الارتقاء، ولكن تظهر دائما قمم جديدة وتدفعنا إلى مواصلة السير. إنّ الحياة لم تتحوّل إلى ذاتها ولم تأتلف في كلّ جامع، وهكذا فلم يكن لنا ما نواجه به تيّار الزمن، بل إنّنا اندفعنا بدون مقاومة معه إلى منتهاه. في الأمل وانتظار السعادة التي ينبغي أن تأتي في مكان محدّد، يهرب منّا الحاضر والحياة بأكملها في نهاية المطاف، لقد كان بحثا وطلبا للحياة ولهثا وراءها أكثر منه حياة حقيقيّة.

تجد الحياة ضربا من العزاء الحقيقي في فكرة أنّ عملنا يخدم تشكيل جنس جديد للإنسان، وأن تكون جهودنا في سبيل ذلك. ولكن هل يعطي ذلك للحياة معنى كافيا بشكل من الأشكال؟ ما الذي نكسبه عندما لا يفعل الجنس الجديد أيضا غير استدعاء جنس آخر، وذلك بدوره يفعل مثله، وعندما يتولّى كلّ واحد تأجيل السؤال، وتبقى الحياة بذلك دوما في طور البحث ولا تبلغ غايتها؟ وختاما يظهر السعي الذي لا يكلّ من جنس إلى جنس بمثابة مجرّد وسيلة للمحافظة على الحياة الطبيعيّة، ويصبح خطأ عظيما أن نعامل أنفسنا وكأنّنا غايات لذاتها وننشد مضمونا للحياة. إنّ كلّ مثل تلك المفاهيم، لم تعد عندها أكثر من مجرّد صور خادعة تعرض لنا كي تنتزعنا من الكسل. إنّنا كلّنا مجرّد نقاط عبور للحياة، موجات سرعان ما تتجمّع ثمّ تتبخّر بنفس السرعة، موجات نجد فيها وراء كلّ واحدة صاعدة أخرى لا تلبث أن تأخذ مكانها. حالة الأشياء هذه التي يمكن أن تبقى خافية طالما أنّ العين لا

تعترف إلاّ بالأحداث المنفردة. ولكن بمجرّد أن يلخّص التفكير الشامل التجارب، يصبح غياب المعنى للكلّ غير قابل للجدال، وتكون للإنكار بذلك الكلمة الأخيرة.

وتقود التناقضات الحادّة التي تتجلّى في حياة الفرد إلى النتيجة ذاتها. فتارة يبدو الفرد، وتحديدا مثلما ترى ذلك البحوث الحديثة، تماما مجرّد حلقة من تسلسل العالم، محدّدا ومكبّلا من الداخل إلى حدّ أعمق أعماقه. ولكن في الوقت ذاته من المستحيل إنكار قراره الخاصّ، فعندها لا يبقى له شيء خصوصي أصلا وتصبح حياته مجرّد تأمّل لحدث غامض ولا أهميّة له. ثمّ إنّ كلّ تجاور للأشياء يجعل الفرد، مثلما تبيّن ذلك التجربة، بكلّ أفعاله وأحواله وكأنّه لا معنى له تماما بالنسبة للكون اللامتناهي وأيضا بالنسبة للعيش المشترك بين البشر، بحيث يبدو من الحمق أن يكون متميّزا أو أن ينشد اكتساب أهميّة خاصّة. ولكنّ الفرد لا يمكن أن ينظر إلى نفسه بلا مبالاة، دون أن يصبح كلّ اندفاع إلى الحياة وكلّ عمل من أجل بنائها وكلّ سعي إلى بناء فرديّة وإلى اكتساب الشخصيّة، بغير معنى وينهار. وكذلك فإنّ الإنسان منحصر في عالم التجربة الخاصّ، بَيْتِ أَنَاهُ الداخلي، ويجب عليه أن يربط كلّ عمل وكلّ صيرورة بإسعاد تلك النقطة، يبدو مستحيلا تماما مغادرة ذلك البيت والمشاركة فيما هو غريب. ولكن في ذات الوقت فإنّه يعتبر هذا التحديد عزلة لا تُحتمل، فهو يتوق إلى المحبّة والتعاطف وينشد البرهنة بنفسه على ذلك. غير أنّ كلّ الإدراك والشعور للضيق الضاغط لا يقود إلى ما فوقه، فقط فإنّنا في ذلك نبدو أقوى من الطبيعة بحيث نستشعر الارتباط بها بألم

يبقى مخفيّا بغير ذلك.

ندرك في كلّ تلك النقاط تناقضا شاملا: يعتمل في أنفسنا شيء جديد ويجذبنا إلى غايات سامية، ولكن تنقصه الاستقلاليّة وفي نفس الوقت القوّة التي تتطلّبها مثل تلك الغايات. إنّ الطبيعة المجرّدة تصبح غير كافية للإنسان، ولكنّ الإنسان لا ينجح في بلوغ حياة جديدة.

هل يجب علينا الاستسلام لذلك التناقض وكأنّه قدر لا فكاك منه ونتخلّى بذلك عن معنى الحياة؟ يجب علينا ذلك إذا كان الوجود المذكور يمثّل الواقع كلّه. إنّنا لا نحتاج إلى ذلك إذا كان الاعتراف وامتلاك حياة روحيّة مستقلّة يجعل الانقلاب ممكنا، ويفتح عمقا للكون ويعلّمنا أنّ الوجود القائم المقصود يُفهم على أنّه درجة خاصّة من الواقع. من المؤكّد أنّ الالتباسات لا تتلاشى بذلك، تلك الالتباسات التي تضيّق حياتنا وتجعلها بغير معنى، ولكنّنا سنرتفع فوق مجالها ونكسب موقعا لا يمكن انطلاقا منه مقاومتها. إذ أنّنا نكسب من مثل ذلك التحوّل جزء من حياة أصيلة، حياة من الداخل ومن جانب كامل منها، نصبح مساهمين في العمل لبناء واقع حقيقي، بل إنّنا ندرك الحياة اللانهائية والأبديّة والخلاّقة في ذواتنا ختاما باعتبارها حياتنا الخاصّة. وهكذا فنحن لا نلعب ببساطة دورا مُحَدَّدًا لنا، بل تصبح الحياة ملكا لنا بالمعنى الكامل، وهكذا نكون ناشطين من أجل الواقع، كذلك يصبح ممكنا، أن نجنّب الحياة التناقضات المذكورة وحفظ مسارها من سقوط قاتم. من أجل ذلك يقع في الميزان بالخصوص ما يلي: تتعلّق الحياة الفردية حقّا بحياة الكلّ ولا تقدر على شيء أصلا بدونها، ولكن في هذا الموضع الخاصّ

تكون قرارات الفرد وميوله غير قابلة للاستغناء عنها من أجل الحفاظ على الحياة وتطويرها، هنا يكون الأمر بيده أيضا وهو مدعوّ إلى أن يصبح قادرا على الإضافة إلى عالم الروح.

بمثل ذلك التحوّل تدخل في مواجهة القدر حياة أصيلة وحرّة ويتحوّل وجود الإنسان إلى صراع بين الحريّة والقدر، ثمّ تتلاشى اللامبالاة بدورها وهي التي كان الإنسان سيجد نفسه متروكا لها بغير ذلك، وعندها يمكن لصيرورة الكلّ حاضرا في المواقع الفرديّة أن تفجّر ذلك البيت الضيّق وتتجاوز العزلة وتَسْكُبَ الموجات الكبيرة من الحبّ والشفقة في ثنايا الوجود الإنساني، وعندها تصبح أيضا أقدار الفرد محمولة على قَدَرِ البشريّة الشامل ومُصَفَّاةً وسامية بفضل ذلك. أمّا معنى ذلك، فهو ما تبيّنه أديان العالم الكبرى.

إنّ التحوّل والارتقاء مرتبط بالحقيقة الأساسيّة المتمثّلة في أنّ حياة الفرد مع مثل ذلك التحوّل تُعَدُّ في المقام الأوّل علاقة بمحيطها، بل علاقة بالحياة الروحيّة الحاضرة لديه، وذلك ما يجب أن يغيّر الطابع الشامل ضدّ التصوّر الحاصل إلى حدّ الآن. عندئذ فإنّ نجاح الحياة لم يعد يكمن في النجاح الخارجي بل في بناءه الخاصّ، ويجد في ذلك غايته الأسمى أن يصبح مركز حياة مستقلّ، وطاقة روحيّة. ذلك يعني أبعد بكثير من اكتساب شعور بالطمأنينة الذاتية، وأكثر من تطوير أنشطة خاصّة في الإدراك والشعور والإرادة وأكثر أيضا من بناء طابع أخلاقي. إذ أنّ ذلك ليس سوى جانب خاصّ وبالتأكيد شديد الجوهريّة لإنشاء طاقة روحية، ولكنّ هذا يعني بلوغا للوجود في الذات عبر النشاط

الكامل، الذي يشمل الأشياء أيضا، بناء دائرة بشريّة مستقلّة لا تخرج مع كلّ خصوصيّتها، من الواقع في كلّيته، بل تبقى داخله. إنّ لنا، بالمعنى الحقيقي، قابليّة الوجود في أنفسنا، مع أنّنا نبقى مباشرة، في الوقت ذاته، في صلب حياة الكون الأكبر.

بذلك ينفتح نشاط هائل أيضا بالنسبة للفرد، نشاط لا يتوق باندفاع عنيف إلى بُعْدٍ لا محدود ولا يحوّل الحياة بأكملها إلى مجرّد حركة، بل يمسك بنقطة الخروج في اتساع السعي ويعود إلى نفسه، إنّه طبعا لا ينشد في نهاية المطاف شيئا بعيدا وغريبا، بل كيانه الخاصّ، وكلّ حياة حقيقيّة هي بحث واكتساب لنفسها.

من المؤكّد أنّ الالتباس لا ينقصنا هنا أيضا. فالاعتراف باستقلاليّة الحياة الروحيّة يزيد من الإحساس بعدم كفاية القدرة الإنسانيّة والبون الشاسع بين المطلب والإنجاز ويصوّر وضع الإنسان على أنّه أكثر قُصُورًا. إنّ اللانهائيّ ينبغي أن يحصل في النهائيّ وما فوق الزمان في الزمان والخلق الحرّ فيما هو قائم ومشروط، والحبّ في عالم الصراع من أجل السلطة والتأثير. مثل ذلك المطلب يُولّد حركة قويّة لا تصل أبدا إلى خاتمة خالصة انطلاقا من البحث والجهد. كان هذا الوضع المليء بالتناقض في الواقع واضحا في قمّة السعي البشري وحاضرا بشكل جليّ. فأكثر الناس نبلا هم أكثر من تعتريهم الهموم على المستوى الأخلاقي. «**إنّ أفاضل الناس يعتبرون أنفسهم خطّائين والخطّاؤون يرون أنفسهم من الأفاضل**» (باسكال)[38]. فأكبر الفنّانين يشعرون

---

(38). جاء ذلك في كتاب "التأملات" لبليز باسكال :

بمعاناة خاصّة من البون الشاسع بين الإرادة والإنجاز، ويجد المفكّرون الأكثر عمقا مهمتّهم الرئيسيّة في مواجهة المبالغة في تقدير القدرات المعرفية البشريّة ووضع الحدود لها. ولكنّ الإنسان لا ينبغي له أن يفقد شجاعته بسبب ذلك. إنّ صِغَرًا يُعاش من الداخل، يشهد مباشرة على العظمة، والقوى المزعزعة للحاضر الحيّ والرافعة من شأنه والدافعة له إلى الأمام، تنتمي إلينا أيضا ولا تجعلنا مع كلّ النقص نشكّ في مضمون حياتنا. ذلك بالخصوص لأنّ مثل تلك الحركة لا تُستنفد في دوافع منفردة، بل تخدم عبر كلّ التنوّع غاية واحدة هي السموّ بالإنسان إلى طاقة روحيّة، وولادة إنسان جديد، إنسان روحاني. إذ «**يجب على الإنسان أن يولد مرّتين، مرّة طبيعيا ثمّ بعد ذلك روحانيا، شأنه شأن البراهماني**» (على حدّ قول هيغل)[39]. ولكنّنا كلّنا براهمانيّون بذلك المعنى، إذ أنّ كلّ واحد منّا، مهما بدت دائرة حياته في الظاهر شديدة التواضع، فهو، إذا نظرنا إليه من الداخل، كائن من هذا العالم يمكنه أن يشارك بشكل مباشر في حياة الكلّ وبإمكانه إثراؤها من موقعه.

«يلتقي الله دائما بنفسه، ويعكس نفسه في الإنسان. وبالتالي فما من سبب للحطّ من شأن أنفسنا أمام الأعظم منّا» (غوته) [40]

« Il n'y a que deux sortes d'hommes : les justes qui se croient pécheurs, et les pécheurs qui se croient justes. »
Blaise Pascal ; Pensées(1670)

(39) . جاء ذلك في كتاب "محاضرات حول فلسفة الدين "
Vorlesungen über die Philosophie der Religion

(40) . ورد ذلك في رسالة إلى صديقه فريدريش فلهلم ريمير.

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للإنسان، فإنّه يستطيع أن يواجه المخاطر التي تهدّد بدفع حياته، إثر فترة ارتقاء قصيرة، إلى الجمود والسقوط. فهو يستطيع مواجهة شباب الجسد بشباب الروح والمحافظة على الحياة في تيّار متجدّد أمام آلية جامدة. إنّ طابعها الشامل يكون من خلال ذلك قد تغيّر، حيث أنّها لم تعد الآن تمرّ أمامنا ولا تصادفنا من الخارج بل إنّنا نُعِدُّهَا بأنفسنا وعندها فقط نكسبها بحقّ، وأنّه الآن لم يعد هناك مسارات منفردة تتتابع في غموض بلا معنى، يثيرنا في زمن، ولكن ليختفي من جديد، بل إنّنا إزاء العواصف والتحوّلات نثبّت اتجاها رئيسيّا، وفي العمل من أجل مثل تلك الغاية الشاملة نبني حاضرا أقوى من الزمن، هنا كلّ ما يخدم التقدّم الداخلي نتمسك به ونستطيع أن نرفعه كلّه. من خلال التجارب والصراعات والمكاسب بل حتّى من خلال الخسائر يمكن هنا أن يتمّ بناء الحياة، ويمكن للحياة الاستناد إلى ذاتها أكثر فأكثر وأن تزيد من أصالتها ضمن صيرورة الاستقلاليّة في ذات الوقت. عندها يبشّرنا مسارها بكسب ثمين، وعندها يحتفظ بتشويق دائم. وحينها لم يعد يعني حكمة حقيقية أن نتملّص ببساطة من الألم الذي يصيبنا ونتخلّص قدر الإمكان من كلّ أثر له، بل يبقى حاضرا لدى كلّ شامل أقوى للحياة ويمكن أن يساهم في تعميقها، في حين أنّه في ذات الوقت يصفو ويرتقي في ذاته.

مثل تلك التربية الداخلية يمكن من خلال كلّ اتساع الحياة أن تبقى في صعود وأن يحصل عند تراجع شباب الجسد نموّ شباب الروح، والارتقاء بأصالة الروح، فالحياة ليست هنا قضما لرصيد معلوم

ومحدود، بل هي بناء لرصيد جديد يمكن أن يزيد بها لا يقاس. ويجب أن تُعتبر الحياة ضائعة إذا لم يجعل مَسَارُهَا الإنسانَ أكثر ثراء داخليا. انطلاقا من ذلك الشباب الروحي يمكن الاعتراف لمطالب المتصوّفين الكبار بحقّ ثابت في أنّ الإنسان ينبغي أن يتجدّد شبابه كلّ يوم، وأن يضع حياته كلّ يوم أكثر خارج الزمان وفي الأبديّة.

ولكنّ الاسترجاع العاطفي لزمن الشباب والشكوى والحسرة على خسارة أيّامه الذهبية يبدو الآن بمثابة تصريف لطريقة تفكير باهتة، بل بمثابة شهادة واضحة على أنّ الحياة أخطأت غايتها.

ولكن ليس أقلّ من تراجع قوّة الشباب نرى أيضا الاعتراض على مكننة العمل والسقوط في روتين بلا روح. هنا لا تسيطر علينا الأشياء الخارجيّة أكثر ممّا يفعل ضعفنا وفراغنا وعدم قدرتنا على أن نحفظ في مقابل العمل الخارجي عملا داخليا للإنسان بأكمله وإضفاء الروح على العمل انطلاقا منه. ولكنّ ذلك يمكن أن يحصل هناك تحديدا حيث سيتمّ الاعتراف بأنّ الأمر يتعلّق، عند التحوّل إلى الروحانيّة، بكسب حياة جديدة، ببناء كيان حقيقي وليس بمجرّد تقوية أنشطة منفردة. نصل في كلّ مكان إلى أنّ حياتنا لا تكتسي مضمونا وقيمة من الخارج ولا يمكن أن تكتسي أصلا، ولكنّنا نستطيع أن نعطيها من أنفسنا طالما اعتملت في أنفسنا حياة روحيّة وأصبحت جزء من كياننا.

عندما تُحوّل مثل تلك الملاحظة لمهمّة شاملة داخلية الحياة إلى عمل متواصل، وما يضيع في اتّجاه الخارج، يتمّ تعويضه من الداخل، وبذلك

تتضمّن مراحل الحياة اللاحقة أيضا طريقة خاصّة وقيمة خاصّة. ثمّ إنّ مزايا مثل القوّة والجمال لا يقتصران على سنّ الشباب، غير أنّها تتشكّل في صورة أخرى وتعود أكثر إلى الروحي في مقابل الفيزيائي. إنّنا نستسلم في العادة مبكّرا بشكل مبالغ فيه ونصنع من أنفسنا أقلّ بكثير ممّا نستطيع، وعدوّنا الأسوأ هو فقدان الشجاعة وخضوعنا للطبيعة المجرّدة. فَلِعُمْرِ الشيخوخة أيضا قيمته، متى فهمناه على الوجه الصحيح. إنّه ليس انتهاء باهتا، بل هو تأليف داخليّ للحياة وفي ذات الوقت ارتقاء فوق كلّ المقاييس الخارجيّة وتحرير من كلّ تقييم بشري مجرّد. حقّا، هنا تنجز الحياة في مقابل التطوّر السابق نوعا من الانكفاء والعودة إلى الذات، ولكنّها لا تسقط بذلك في الفراغ عندما يتمّ كسب نواة وعندما يجري الدخول في حركة الكون. انطلاقا من هنا يبدو عمر الشيخوخة بمثابة امتحان للحياة بأسرها، لنجاحها أو لفشلها.

وهكذا فإنّ الفرد مع كلّ القَتامة التي تلفّ مصائرنا ومع كلّ العوائق من الداخل ومن الخارج، ليس له أن يعتبر حياته ضائعة. فمن داخل الروح يشعّ النور وسط العتمة وتتجلّى القوّة في مواجهة الأعداء. في البناء الداخلي وفي الصراع الشجاع، في مواصلة العمل إلى نهايته، في السعي إلى أن نصير كيانا خاصّا روحانيا مع التجذّر في الواقع بكليّته، يمكن للحياة أن تجد العظمة والثبات ويمكن أن تبدّد كلّ شكّ في إيمان مرح. ولكن باعتبار أنّ كلّ ذلك لا يمكن أن يحصل إلاّ في سياق عالَم روحاني ومحمولا بقوّته، فكذلك يبقى وعي القوّة والقيمة بعيدا عن الخيلاء المغرورة، والعظمة ذاتها تبيّن عندها بوضوح مقنع مشروطيّة القدرات الإنسانيّة.

اختلاف المصائر الفرديّة

إذا كان صعود الحياة وانحدارها يشير لدينا جميعا إلى ملامح مشتركة، فإنّ المصائر تتباعد كثيرا فيما بينها داخل ذلك الإطار، بحيث يترتّب عن ذلك حتما الكثير من القلق وغياب الشجاعة والشكّ. إنّ للفعل والتسليم الإنسانيّ شروطا محدّدة، وهي محدّدة بمحيطها وتبقى في سياقات ثابتة، ثمّ إنّ محاولة خلخلة ذلك الارتباط والاعتماد على النفس وحدها، تقود الحياة إلى العزلة والفراغ. ولكن مع التبعيّة يبدو الإنسان واقعا تحت سلطة مصير قاتم، بل تحت الصدفة العمياء التي تكون صديقة للواحد، عدوّة للآخر. إذ تواجه الواحد ضربات القدر المزعزعة، في حين يأتي كلّ شيء عند الآخر وفقا لما يتمنّى، ويُحرَم شخص بألم ما يناله غيره بفائض. ويستطيع فرد أن يفتّق قدراته ويقوّيها من خلال ذلك، في حين يكون غيره مقيّدا في كلّ مكان ولا يصل إلى امتلاك نفسه بالكامل، وتحمل الواحد الموجة، في حين تعطّل الآخر، ولا تضرّ أحدهم كلّ الأخطاء، في حين تضغط على سواه كلّ تبعاتها، حيث يلعب في كلّ ذلك دورا كبيرا أمور صغيرة، وصدف ظاهرة، وتقرّر مصير المسائل الأهمّ. ويبدو الإنسان، من تلك الزاوية، أشبه بكرة تتقاذفها قوى غامضة.

إنّ إلقاء مثل تلك الأوضاع المختلفة ببساطة على الفضل أو الخطأ،

ينفي في حدّ ذاته القول بأنّه ليس فقط سير اللعب بل حصوله أصلا هو المختلف من الأساس. إذ أنّ الطبيعة التي نبدأ بها الحياة ليست من صنعنا وكذلك فإنّ المحيط البشريّ له التأثير الأكبر علينا، بل بالأحرى يوقظ نشاطنا، وما يوجد هناك من لا تساو، أي لا تساو للقوّة وكذلك للآراء، فهو يتجاوز بكثير كلّ ما يولّده السير اللاحق للحياة المشتركة من لا تساو. يُضاف إلى ذلك أنّ الإنسان مهما قلّل من أهميّة طريقته الخاصّة، فهو يُعتبر مع ذلك مسئولا، وتحديدا ليس ببساطة من الخارج، بل أيضا أمام نفسه، وما يفعله القدر، فهو ما يحسبه السعيد لنفسه من مكاسب، في حين كان على التعيس في المقابل أن يعتبره ذنبا. كذلك يبدو أنّ الظلم يصل إلى أعمق أعماق أساس الحياة.

إنّ المشاكل المتولّدة عن ذلك قد حيّرت، منذ النبيّ أيّوب وحتّى قَبْلَهُ، نفوسا جادّة بالشكل الأعمق ودفعتهم إلى التفكير الثاقب، ولكنّ كلّ الجهد والعمل قد أظهر غموض الأشياء أكثر ممّا فسّرها. غير أنّ كلّ ضعف يقود الحياة بسرعة إلى التسطيح وإلى انعدام الحقيقة. وهكذا فسنكون أمام المشكل عُزّلًا تماما، إذا كانت النظرة الأولى هي الأخيرة ولم يكن لنا ما نواجه به مثل ذلك الالتباس في الحقيقة. حاولت كلّ النفوس الخيّرة من بني البشر وكذلك الدين والأخلاق والفلسفة والفنّ أن ترفع الإنسان فوق حالة التبعيّة تلك، وما تمّ كسبه في هذا الاتّجاه فهو يمكن لقناعتنا بعالم الروح المنفتح أمامنا أن تعترف به تماما وتستوعبه. إذ بظهور مستوى جديد للواقع وتفجّر ينبوع لحياة مستقلّة بداخلنا يتغيّر نمط حياتنا ومهمّتها بصورة جوهرية. عندئذ لم يعد الأمر يخصّ العلاقة

بالمحيط، ولا يُستنفد في تبادل بين الفعل وردّ الفعل، بل تجد الحياة مهمّتها الرئيسيّة في مجالها الخاصّ، في بناء تحوّل جوهريّ إلى الذات، يشدّها إلى الواقع بعمق ويسمح لها بالمشاركة في كلّ القيم والمزايا في امتلائها من خلال تحوّل كامل. عندها تصبح الحياة مجرّد ميدان، تمرّ عليه أشياء مختلفة الأشكال والألوان، عندها لن تعود عزلاء مجرورة من قِبَلِ قوى غامضة تارة صوب هذا الاتجاه وطورا صوب اتّجاه آخر. بل يمكنها حينها أن تأتلف في وحدة وعبر كلّ التحوّل في المصائر أن تتبع اتجاها ثابتا، ويمكنها أن تُتِمَّ بناء داخليا في ذاتها.

تتحوّل في ذات الوقت إزاء الاتجاه إلى الخارج مقاييس الحياة وقيمها. فالعظيم الآن ليس الذي يحمل تحوّلات المحيط الدنيوي، بل ما يعيد تشكيل الحياة داخليا وينمّي في ذات الوقت وضع عالم الروح. وهكذا يستطيع ذلك الذي يرى نفسه صغيرا من الخارج أن يبلغ العظمة من الداخل، ويمكن لطريقة العيش الأبسط أن تشهد على نزعة بطولية في الفعل والصبر والتجاوز، تكون أعظم في ذاتها من كلّ ما يسمّيه تاريخ الإنسانيّة نزعة بطولية. إنّ كلّ الاختلافات لأوضاع الحياة تَبْهُتُ هنا أمام فعل الإنسان كإنسان، هنا يستطيع كلّ شخص أن يسمو إلى العظمة الذاتيّة. وفي ذات الوقت يتغيّر تقييم مزايا الحياة. فانطلاقا من ذلك لا يمكن أن يُعتبر في النهاية ذا قيمة إلاّ ما يساعد على البناء الداخلي، في حين أنّ النجاحات الأكبر أيضا تصبح سلبيّة في اتّجاه الخارج، عندما تضرّ بذلك البناء، بحيث يمكن أن نقول: «فَمَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ

الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ »[41] في مثل هذا التحديد للغاية لم يعد الألم بحاجة إلى أن يكون عائقا بسيطا كي يوجد، يمكن أن يكفي للرعاية عندما يساعد قوى جديدة للصعود، بل أن يرمي الحياة كلّها خلفه، حيث تظهر مصادر أصيلة قادرة على إنشاء حياة جديدة، ويمكن في الاهتزازات والتحوّلات أن يتبيّن ما اعتُبر إلى حدّ الآن الحياة بأكملها، مجرّد طبقة فوقها تدفع الحركة بشكل قسريّ، بل عندها يمكن أيضا للقول المشهور أن يكتسب معنى عميقا: **«إنّ من يجد حياته سيخسرها ومن يخسر حياته سيجدها»**. [42]

إجمالا تنفتح إمكانيات جديدة تتضمّن تحرّرا من سلطة القدر وتضع للإنسان بما هو إنسان مهمّة كبرى. لا يستند الإنسان إلى ذاته وحدها، وهنا أيضا يحتاج إلى ظروف تساعده، ولكنّ الظروف تكون هنا من نوع داخلي، ويبدو انفتاح الحياة الروحيّة لدينا الآن كتجلّ لنظام أسمى وقوّة للخلاص والمحبّة، لن تتخلّى عمّا بلغته. انطلاقا من هنا تتولّد الإمكانيّة التي يكون فيها الفوضى الظاهريّة للحياة، أيضا في حضور العوائق والألم تقودها قوّة غامضة تقود الإنسان بعيدا عن إرادته الخاصّة وقدراته إلى غايات محدّدة.

---

(41) . من إنجيل متّى، 16: 26 أنظر :
https://www.bible.com/ar/bible/101/MAT.16.KEH

(42) . كذلك وردت وهي مأخوذة فيما يبدو من إنجيل متّى (10: 39) "مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضِيعُهَا، وَمَنْ أَضَاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا" ولكن (وهو ما يثير الانتباه) مع حذف عبارة "من أجلي" وهي موجودة مثلما أوردناها في الترجمة العربية في الإنجيل المذكور وقد راجعناها في الترجمات الألمانية والفرنسيّة والانجليزيّة. أنظر الرابط التالي بالنسبة للترجمة العربيّة:
https://ebible.org/arb-vd/MAT10.htm

من المؤكّد أنّ أشياء كثيرة تبقى غامضة وتنطبق هنا عبارة غوته: «**إنّنا نتجوّل بين أسرار.**»[43] ولكنّنا نتلقّى ما يكفي من النور لكي نهتدي إلى اتجاه طريقنا ويمكننا أن نكون مقتنعين بأنّ حياتنا ليست سُدى، وأنّ غاية عظيمة وراءها وأنّ كلّ شخص من موضعه قادر على تشكيلها بصورة ذات معنى. وإذا كان كلّ فرد لديه في نفسه الكثير ممّا يفعله ويكسب في ذلك قيمة كبيرة، فهو لن يُجهد نفسه بالتفكير في الاختلافات، وكذلك لن يسمو العظيم فوق نفسه ولن يحقّر الصغير ذاته. حياتنا صراع، صراع من أجل عالم جديد. ومثلما توجد في الحرب ضدّ العدوّ الخارجي مواقع مختلفة، منها اليسير ومنها الخطير، وفيها المفيد وفيها العقيم. ومثلما يجب على المهمّة المسندة لكلّ فرد أن تكون على قدر من الأهميّة وأن تُنْجَزَ بإخلاص للواجب، فكذلك يكون الأمر أيضا مع الحياة كلّها: مختلفة هي مصائرها ولكن توجد وراء كلّ الاختلافات القيمة ذاتُها وغاية مشتركة.

النتائج بالنسبة لوضع الزمن الحاضر

اهتممنا بالوضع الخاصّ بالحاضر في الأقسام الأولى وسنكتفي بالتساؤل في هذا المقام عمّا إذا كانت القناعة الأساسيّة التي طوّرناها

(43) . وردت في :
Goethe, J. W., Gespräche. Mit Johann Peter Eckermann, 7. Oktober 1827
بالصيغة التالية: «Wir wandeln alle in Geheimnissen » أونرجمتها: "ننتجوّل كلّنا في الأسرار" أي بشكل مختلف عما ذكره أويكن وهو ما يشير إلى أنّه ربما قد اعتمد على ذاكرته. ويؤيّد ذلك أنّ الكتاب في الأصل يخلو من التعليقات والهوامش ربما بسبب أنّه موجّه إلى الجمهور الواسع

يمكن أن تقدّم مساعدة ما لمعالجة اضطرابات عصرنا وصراعاته ويمكن أن تُثبت في ذات الوقت وجاهتها. صحيح أنّ الحياة هي أكثر من تطبيق لأفكار عامّة، مثلما يعتبرها عصر التنوير، ولكن دون خلفيّة عالَم من الأفكار تكون الصراعات الفكريّة غير ممكنة.

والآن، إذا ما تمّ النظر إلى الكلّ الشامل وما هو داخلي في الحياة، والحاضر في خصوصيّته لا سيما التباعد الكبير بل التنازع الشديد لمساع مختلفة، فإنّه يجدر النظر بالدرجة الأولى إن كان في النقاط الأساسيّة، حيث يحدث أنّ القناعة التي تمثّلها تضمن وسيلة للردّ وتبشّر بقيادة الحياة. إنّها المطلب الأكثر إلحاحا للحاضر، إذ أنّ التواصل دون عوائق لمثل التمزّق المذكور يحطّم الحياة من أساسها بالتأكيد ويسلبها طابعها الروحي:

1. يبدأ الانقسام، مثلما رأينا، حتّى عند التشكّل العام: ليس أقلّ من خمسة أنواع رأيناها تنفصل، كلّ واحد منها ينشد الهيمنة على الكلّ ويريد أن يشكّله على طريقته. طالما التقت هذه الكثرة في مساحة واحدة، فإنّ المصالحة تكون غير ممكنة، ولكنّها تصبح كذلك عندما تشمل الحياة في كليّتها جوانب وطبقات مختلفة. إلاّ أنّ ذلك يحصل عند الاعتراف بتوق الحياة الروحيّة إلى الاستقلاليّة التامّة ضمن شروط المنزلة الإنسانيّة. ويتعلّق الأمر انطلاقا من جوانب مختلفة عندها بالتصدّي للقضيّة ومتابعتها في مستويات مختلفة. تلك الجوانب والمستويات تحمل معها مهمّات مختلفة، وتقترح على العمل مواضع مختلفة، وتطوّر صورا مختلفة للواقع، وتكون تجارب الحياة الشخصيّة أيضا معنيّة بالمسألة بحيث

تقترح على الواحد وعلى غيره اتّجاهات متباينة. وكون الدين مثلا يفتح مجالا باطنيّا خاصّا، خارج كلّ عمل ثقافي، فإنّ ذلك لا يمكن اجتنابه بالنسبة لحياة الإنسانيّة في كلّيتها والحفاظ على الثقافة. ولكن إلى أيّ مدى يشارك الفرد في ذلك، وإن كان يجد فيه نقطة ارتكاز الحياة، فهي مسألة أخرى. ذلك المجال الباطنيّ الأعمق يمكن أن يبقى بالنسبة للواحد خلفيّة لا أكثر، في حين يجعل منه اهتزاز كبير عند الآخر مسألة رئيسيّة. لا يتعلّق الأمر باعتبارات تخصّ الفهم، حين يفكّر النّاس تارة وفي عصور بأكملها بشكل أكثر مُحَايَثَةً، وطورا بأكثر تَعَالٍ. وليس أقلّ من ذلك أنّه يمكن أن تنشأ داخل العمل الثقافي طرق تفكير مختلفة، متناسبة مع الاستقلاليّة الأكبر التي يضمنها العصر الحديث لمجالات الحياة الفرديّة. فالباحث والفنّان والإنسان العمليّ شأنه شأن العامل في المجال التقني، يمكن أن يذهبوا في اتّجاهات مُتَبَايِنَةٍ دون أن يعادي بعضهم بعضا، عندما يكون فقط اعتقاد أساسيّ واحد وعمل رئيسيّ للإنسان في كلّيته يضمّ كلّ تنوّع ويحافظ على وحدته. ولكن عندها فقط يمكن أن ترتبط الحريّة بجماعة داخليّة وأن تفلت من تعصّب اليمين وتعصّب اليسار الأشدّ منه، ذلك الذي يريد دفع البشر جميعا إلى تعديل أوتارهم على نغمة واحدة وعلى معتقد أُحَادِيِّ الشكل. ولكنّ مثل هذه المهمّة الشاملة والغالبة تمنح مطلب الارتقاء إلى روحانيّة مستقلّة وإلى تشكيل عمق الواقع، وينبغي أن ينضاف إليها كلّ التنوّع بحيث تعمّق ذاتها وتجلّيها. من المؤكّد أنّ مثل هذا التحوّل لا يجعل التناقضات والصراعات تتلاشى ببساطة، ولكنّه يسمح بمواجهتها وأن توضع

الثقافة الجزئية المجرّدة في مقابل ثقافة الإنسان في كليّته. كلّ عمل حياة منفرد لا يمكن أن ينجح حقّا، إلاّ متى كانت مهمّته الخاصّة التي يستند إليها الإنسان بأكمله وتبعث فيه الروح.

2. يحتدّ التناقض بشكل أكثر قوّة في العلاقة بين الإنسان والعالم. لقد تخلّص العالم بشكل متزايد من الإنسان في العصر الحديث وأنشأ لنفسه استقلاليّة كاملة إزاءه، وهو يضغط عليه دائما بطريقة أقوى الآن، ويزداد التهديد بأن يصبح قطعة زائلة ولا قيمة لها لحركة هائلة وغامضة. وهكذا يكون الأمر بالطريقة الأكثر وضوحا في العلاقة مع العالم الخارجي: كم صارت صغيرة هنا الدائرة الإنسانيّة مع كلّ ما يحتمل فيها في مقابل القِيَمِ الهائلة للزمان والمكان! ولكن يكاد يكون أكثر تهديدا الازدراء المتأتي من الداخل. إنّ الثقافة في كليّتها تبدو في الحياة المعاصرة دائما أقلّ من عمل ومن مكسب للنفس البشريّة بل قوّة لا شخصيّة أقوى منها، تبرز من الضرورة وتدفع دون توقّف، ولكنّها تجعل من الإنسان مجرّد وسيلة وآلة، غير مهتمّة تماما بمصيره ولا مبالية إزاء راحته أو شقائه. وكذلك يعمل في اتجاه التصغير آنّه في مقابل تقييم الإنسان في السابق المرتبط أساسا بالملامح المميّزة له، وباعتباره كيانا موهوبا بالعقل وأقوى بكثير من الطبيعة، يسود الآن أكثر فأكثر ويسيطر على الأذهان علاقته الوثيقة بالطبيعة، بحيث لا يبدو أنّ هناك مكان باق لمنزلة خاصّة بالإنسان. كلّ ذلك يسير في اتّجاه اختزال الإنسان مقارنة بما كان عليه بل كثيرا ما يتولّد ميل مفرط تحديدا إلى التشديد على ارتباطه وقلّة حيلته ومحدوديّته، وإظهار الملامح الدُنيا والصغيرة لنوعه وجعلها تحدّد

الصورة العامّة، بحيث يتلاشى كلّ اعتقاد في أهميّته وكرامته. وإذا كان القرن الثامن عشر يفكّر أساسا في عظمة الإنسان، فإنّ الحاضر كثيرا ما يستمتع بإبراز ضآلته وضعفه وينسى أنّ وراء الإنسان المجرّد، تكمن أيضا عظمة الإنسان.

ولكنّ مثل هذا التحقير لا يمكن أن يفرض نفسه في الميدان إلاّ طالما تعاملنا مع العالم تعامل المتأملين له، لا نستطيع العمل بقوّة وبمرح دون تقييم آخر تماما بل معاكس، إن لم يكن من خلال الاعتراف اللفظي فالبفعل. لقد جعل عملنا، وتحديدا ذلك التحوّل المعاصر من عالم لا مرئيّ إلى عالم مرئيّ، الإنسان أكثر فأكثر ومنزلته غاية مهيمنة. فلم يكن مجرّد اعتقاد شخصيّ، بل كان تعبيرا عن اعتقاد للعصر عندما قال لودفيغ فويرباخ[44]: «كان الله فكرتي الأولى، والعقل هو الثانية والإنسان هو الثالثة والأخيرة». ولكن هل يستطيع العصر أن يجد غايته الأساسيّة في جهود وهموم من أجل الإنسان دون أن يسمو به بشكل من الأشكال ويمنحه قيمة ما؟ كيف يمكن لأيّ عمل أن يوقظ الحماس والتفاني والتضحية إذا لم يكن يتبع غاية سامية وإذا لم يكن يدفعه الإيمان بقدراته الذاتيّة؟ إنّ تجربة الحاضر تشهد على ذلك، فأفكار الحريّة والمساواة، تلك الدوافع الرئيسيّة للجهود السياسيّة والاجتماعيّة للعصر، تتضمّن تقديرا عاليا للإنسان ورفعا حاسما له فوق الطبيعة ما تحت البشريّة. إذ أنّ تلك الطبيعة تخضع لحتميّة صارمة، وهي أيضا لا تعرف أيّة مساواة، وهي

(44) Ludwig Feuerbach. (1804-1872) فيلسوف ألماني ماديّ النزعة كان تلميذا لهيغل واعتُبر من ممثّلي ما يُعرف اليسار الهيغلي. من أشهر أعماله كتاب "جوهر المسيحيّة".

تبني الاختلافات في القوّة وفي الضعف، في الصحّة وفي المرض إلى درجة انعدام الرحمة الحادّ. ولا يمكن مواجهة الحتميّة واللامساواة إلاّ عندما يكون هناك مصدر آخر للحياة، يشيد بالعظمة الكامنة في الإنسان ويفتح له إمكانيّة النشاط الذاتي الذي يبيّن، فيما وراء الاختلافات، عملا مشتركا وقيمة مشتركة لكلّ ما «**يحمل وجها بشريا**».

إنّ تقديرا كبيرا للإنسان يبعث الروح أيضا في الجهد المندفع اليوم بقوّة، من أجل منح الحياة الثقافية بِنْيَةً اجتماعيّة جديدة، ديموقراطيّة بدل الأرستقراطيّة الموروثة. إذ في حين أنّ أشكال الثقافة الموروثة تطوّر مضمونها الروحي أوّلا ضمن دائرة محدودة ولا تسعى إلى نشره لدى الآخرين، يصبح الآن مثل هذا التصنيف مرفوضا باعتباره تقلّصا غير عادل للدائرة الواسعة وتُطلب مشاركة مباشرة للناس جميعا بحماس فيّاض في الحياة وفي الفعل. إلى أيّ مدى يكون ذلك مبرّرا، وما هي الالتباسات التي يحملها معه، فهو ما لا مجال لتحليله في هذا السياق. ولكن من المؤكّد كثيرا أنّه بدون تقدير عال للإنسان، لكلّ إنسان فرد، وبدون إيمان ثابت بقدراته تكون كلّ حركة بغير معنى ولا بدّ لفعلها أن يكون مدمّرا.

ولكن بعيدا عن هذه المشاكل السياسيّة والاجتماعيّة يقاوم لدينا خاصيّة قويّة مثل ذلك التحقير للإنسان، ونحن لا نستطيع احتمال التحقير، يلفّنا تَوْقٌ مضطرم لإعادة إضفاء العظمة على وجودنا ومنح حياتنا قيمة. ولكن إذا كانت الآن النظرة إلى العالم اليوم تحافظ على مثل ذلك التقييم الآخر ولا تعترف للإنسان بأيّ تميّز، فكيف نتجنّب

التضارب؟ إنّنا لا نستطيع ذلك إلاّ إذا رأينا في الإنسان بُعدين. فهو من جهة، جزء من الطبيعة وبصفته تلك يخضع بصرامة لقوانينها، ولكنّه، من جهة أخرى، موضع يبدأ فيه تحوّل حياة العالم إلى عمقها، عمقها الذي لم يعد يترك النقاط المنفردة في تجاور بسيط بل يمنح الفرد مشاركة في حياة الكلّ ويربطنا في الوقت ذاته ببعضنا البعض. نعم، يستطيع الإنسان أن يواجه العالم داخله بالعالم المحيط به، فإذا كان هذا يمكن أن يقيّد ويضيّق فإنّ الآخر يوقظه إلى الحرّيّة والفعل المستقلّ. عندها يصبح واضحا في ذات الوقت أنّ القدرة على إدراك الجانب الإنسانيّ الصغير بما هو كذلك وإعلان الصراع ضدّه، يشهد على عظمة الإنسان. أم هل يمكن للإنسان أن يشعر بصغره إذا كان منغمسا تماما في الصغر؟ ولكنّ كلّ ذلك يذهب في الاتّجاه النابع من قناعتنا بالحياة الروحيّة ومنزلتها في الكون. وفي هذا السياق ليس الإنسان ذا معنى من خلال ما يُظهره وجوده المباشر، بل بفضل ما يتميّز فيه وما يسمو به إلى أعمال جديدة، هنا يمكن إدراك محدوديّته ولكن في ذات الوقت ضمان العظمة والكرامة له.

كذلك فإنّ استهلاك الإنسان وتدميره عبر مسار ثقافي عديم الروح يقاوم تصوّرنا للحياة الروحيّة بشكل حاسم. إذ لا تعني الحياة الروحيّة لها سيرورة بلا قرار ولا معنى وإنما بلوغ الواقع حالة التحوّل إلى الذات، بل تصبح بالنسبة لها كلّ حركة تحوّلا للحياة إلى ذاتها في نهاية المطاف، وتقوية للذات وسموّا بها. وكما أنّ الفعل والحرّيّة يصبحان بذلك حَامِلَيْنِ للواقع، فإنّ حياة الإنسان الروحيّة تتضمّن أيضا في النهاية فعلا للاعتراف والامتلاك. مثل تلك الطريقة اللاشخصيّة للثقافة لا يمكن

أن تُعْتَبَرَ في هذا المقام إلاّ وسيلة أو نقطة عبور، من أجل أن تحرّر الحياة من صغر الإنسان وطريقته الذاتيّة، ولكن إذا تصلّبت وأرادت ممارسة الهيمنة، فإنّه انطلاقا من مثل ذلك التصوّر يجب، على العكس من ذلك، خوض صراع من أجل المحافظة على الاستقلاليّة وعلى روح الحياة. ذلك الصراع، قضيّة كلّ العصور، يصبح أمرا عاجلا بشكل خاصّ في الوضع الحاضر، وهو مليء بالمخاطر قطعا، ولكنّ النصر لا يمكن أن يُجانِبَهُ في النهاية.

بتصحيح بسيط للمفاهيم يبقى ما تمّ إنجازه هنا قليلا، ويتعيّن تنفيذ القناعة الأساسيّة في الفعل والخلق، ولا يمكن أن يحصل ذلك إلاّ بطريقة السموّ، عبر مجالنا كلّه، بحياة روحيّة أقوى من التناقض بين الإنسان والعالم وجعلها موقعا للعمل بنشاطها الكامل الخلاّق. إنّ كلّ المجالات المنفردة مثل الدين والأخلاق ولكن أيضا الفلسفة والفنّ، ليست للتطوير من موقع الإنسان المفرد، بل من موقع الحياة الروحيّة وانطلاقا من تجارب تلك الحياة، فذلك ما يبشّر بمضمون أكثر ثراء وبأكثر أمانا أيضا. ولكن كيف ستتمّ الاستجابة لذلك المطلب، فهو ما لا يمكن هنا النظر فيه بأكثر تفصيلا، إذ يكفينا القول أنّ الإنسان لا يبقى مرتبطا بالإنسان المجرّد، بحيث أنّ التحوّل إلى روحانيّة خلاّقة يكشف لحياته رؤى واسعة ومهمّات كبيرة.

3. يثير عصرنا بشكل خاصّ التناقض بين العمل والروح. ويساهم في إضفاء الحدّة عليه قبل كلّ شيء فصل العمل عن الحالة الروحيّة المباشرة للإنسان، والرمي بها إلى مُرَكَّباتٍ مستقلّة تنمو بشكل هائل،

توقّفنا عندها أكثر من مرّة. يبدو ذلك برفعه للقدرة البشريّة على الإنجاز مكسبا للوهلة الأولى، ولكنّه سرعان ما يغدو خطرا كبيرا، بحيث يكون فيه ذلك التضخّم للعمل متّجها ضدّ الروح ويحطّ من شأن الإنسان بالتدريج إلى مجرّد آلة. ولمقاومة ذلك، ترتمي الروح إلى حالتها المنسحبة من العمل قدر الإمكان وتطوّر شخصيّة تائهة، مجرّد حياة مزاجيّة، يمكن أن تسقط بسرعة في الفراغ، لو لم يقدّم لها الفنّ بمحاولته الإمساك بتلك الحياة الهاربة وعرضها، مساعدة تسمو بها. كذلك انفصمت الحياة الحديثة في اتّجاهين متناقضين وأضّر ذلك الانفصام بِكِلاَ الجانبين. وقع العمل في خطر فقدان مضمونه الروحي وأن يصبح أكثر فأكثر مجرّد تقنية لا تصل إلى أيّ خلق مثمر حتّى عند ارتقائها إلى مستوى الإتقان الكامل، ولكنّ الروح، التي لم يعد يوحّدها العمل، تتحلّل إلى أنسجة منفردة وتخسر شيئا فشيئا نقطة ارتكازها. كذلك هو انفصام الثقافة إلى ثقافة إنجاز مجرّدة وثقافة أجواء مجرّدة، إلى تقنوية وجمالوية، في الأولى سلاسل طويلة وتهديد للنظرة المباشرة، وفي الأخرى فعلا شعور جديد، ولكن تسليم للحياة إلى اللحظة وإلى تغيّر لا يهدأ للانطباعات وإلى الانفعالات. إنّ الفرد الحديث كثيرا ما يكون موزّعا بين الجانبين ويراوح بين العمل الشاقّ والمتعة الزائلة. مثل هذا الانقسام يستحيل عليه بناء الخاتمة الأخيرة، ولكنّ تجاوزه لا يحصل إلاّ ببلوغ حياة تؤلّف بين المتناقضات، وقد رأينا كيف أنّ بناء حياة روحيّة مستقلّة ومُفْعَمَةٍ بالنشاط يمكنه أن يحقّق ذلك. مثل ذلك يمكن أن يواجه التناقض بين ثقافة الإنجاز وثقافة الأجواء بثقافة الجوهر، مع السعي في الوقت ذاته

إلى مضمون للحياة لا يمكن لأيّ من تلك الأنواع بلوغه. ففي تجاوز الانقسام بين الذات والموضوع فقط تغدو الحياة تحوّلا إلى الذات وبناء للواقع، عندها يمكن أن يصبح تجربة ما كان سيبقى بغير ذلك مجرّد حدث. ولكنّ الدفع باتّجاه التجربة انطلاقا من الحدث هو ما ينشده توق قويّ في العصر الحاضر.

4. يشهد مزاج العصر انقساما بين التفاؤل والتشاؤم. أعطى الشعور بالقوّة الذي ولّدته الثقافة الحديثة والذي يخترق عملها، اليد العليا للتفاؤل. لقد كان لوقت طويل قويّا بما يكفي لكي يُضْعِفَ ويعطي معنى آخر لكلّ انطباعات التجربة الموجودة في المقابل، وكبتت موجة الحياة الصاعدة كلّ احتراز. ولكنّ مسار القرن التاسع عشر أنجز انقلابا ضدّ ذلك. كانت الريادة، في المجال الفلسفي، لشوبنهاور الذي سبّبت أعماله الفكريّة الثاقبة جرحا قاتلا لما كان سائدا من تفاؤل وعقلانيّة وإيمان بالتقدّم. ولكنّ أفكاره لم تكن لتفعل فعلها بقوّة لو لم تحمل حركة الحياة الحديثة ذاتها الكثير من الخيبة ولم تفتح العين على بعض المِحَن والظلم للحالة الإنسانيّة. ووسط النجاحات الكبرى صارت بعض الحدود واضحة أيضا، ومن بين ثنايا العمل المثمر نمت الأعشاب الطفيليّة بشكل هائل، بحيث أوشكت الخسارة على تبديد الربح. وصار العمل، إضافة إلى ذلك، أشدّ قساوة بكثير والحفاظ على الحياة أكثر صعوبة. وغابت في الوقت ذاته غاية ثابتة والوعي بمعنى الحياة وقيمتها. وهكذا أمكن للسؤال أن يظهر ويرهق النّفس حول ما إذا كانت الحصيلة مجزية للجهد وإن لم يكن سراب خادع يستميلنا للرغبة في الحياة. ومن ناحية

أخرى، لا يستطيع الإنسان أو على الأقلّ لا نستطيع نحن الغربيّين بفعلنا الدافع بشكل دائم أن نعلن إنكارا للحياة، وبالقدر القليل الذي قد نستطيع فيه التملّص من العمل ومن مهمّات العصر، بقدر ما يدفعنا بشكل قسريّ إلى ضرب من ضروب القبول بالحياة وإلى محاولة تبريرها. ومن بين النجاحات الكبرى لنيتشه، نرى أنّه ليس أقلّها ظهور قبول للحياة لديه من جديد. ولكنّ قبوله للحياة ضعيف التأسيس إلى أبعد الحدود، وهو يبقى إلى حدّ بعيد مجرّد مزاج، ولكي يكون قادرا على مواجهة العبء الثقيل بشكل هائل لعالم بلا روح، فهو يحتجّ على التشاؤم أكثر ممّا يتجاوزه. ولكنّ ما تعرضه الأدبيات الأوسع من تمجيد للحياة، غالبا ما يسقط في السطحيّة والإنشاء ويمثّل بالتالي، على الأرجح، سندا للتصوّر المناقض. هكذا نريد نحن أبناء الحاضر إنجاز قبول للحياة، ولكنّنا لا نرى كيف يمكن أن نُعَلِّلَهَا. قد يكون التشاؤم مطرودا شيئا ما عن سطح الحياة، إلاّ أنّه لم يتحطّم من الأساس. فالإنسانيّة اليوم هي في الحقيقة أقلّ سعادة بكثير ممّا تبدو وممّا تريد إيهام نفسها.

مثل هذا الوضع المضطرب يتطلّب توضيحا، ولكن لا بدّ لذلك من أمرين: ضمان إيمان مرح بالحياة، يُضْفِي على المهمّات الهائلة للحاضر شجاعة وقوّة، واعترافا كاملا بكلّ ما هو قاتم وعدائي صلب حالتنا الإنسانيّة. فالإيمان بالحياة الذي تمّ شراؤه بثمن الحقيقة ليس سوى ذهب زائف. ولكن لكي تتيسّر تلبية كلا المطلبين معا، فيمكن إضافة إلى ذلك أن يكون الاقتناع بحياة روحيّة مستقلّة وبنّاءة للواقع ذا فائدة. إذ

أنّه يمنحنا غاية عليا وشاملة، بحيث يكون الجهد المبذول في الحياة مثمرا، ولكنّه يترك المجال في نفس الوقت للشعور بثقل الاعتراض بكلّ قوّة، بل إنّه يزيد الإحساس بذلك الثقل. يقدّم ذلك في تلك الحالة حلاًّ حاسما للتناقض، بحيث ينفتح عبر الصراع ومن خلاله عمق جديد ويصبح خاصّا بنا. وإذا كان سعينا جزء من حركة كونيّة متّصلة، فإنّ جهودنا وحاجاتنا ليست ضائعة، وكذلك يبقى النصر النهائي للـ"نعم". ولكنّ قبول الحياة المكتسب بتلك الطريقة والذي يحمل الكثير من الإنكار في ذاته وبالتالي يبتلع الجدّ والمرح معا بشكل لا انفصام فيه، يبقى مختلفا أساسا عن كلّ تفاؤل مرح بشكل سطحيّ يُضْعِفُ الالتباسات منذ البداية.

5. ليست النفوس اليوم أكثر انقساما ممّا هي أمام السؤال المتعلّق بما إذا كانت الحياة البشريّة تُفهم وتُشَكَّل على أنّها مجرّد امتداد للطبيعة، أم إنّ مستوى جديدا من الواقع يظهر فيها، يصلح لوصفه منذ القديم مفهوم الروح. فالتحوّل الشامل الذي يصبح هنا منشودا من قبل الكثيرين، هو أكثر حدّة من كلّ تحوّل عرفته الذاكرة البشرية. فكلّ ما يحمله لنا التراث التاريخيّ، من دين وأخلاق وتربية وفنّ، الصورة الشاملة للإنسان ذاته في شخصيّته وفردانيّته قد تكون تحت تأثير القناعة بأنّه في مجال الإنسان الذي يواجه الطبيعة يبرز أمر جديد جوهريا، وأنّه عليه السيطرة على هذا التفكير الجديد والحياة الجديدة. وقد يتعيّن القطع مع كلّ تلك التقاليد إذا كان على الإنسان أن يندمج تماما في الطبيعة وأن يكيّف حياته معها، لقد مرّت آلاف السنين بتمامها، وربّما كان إنجازا

لإعادة نظر شاملة لكلّ القيم الموروثة. وباختصار، فربّما كان تحوّلا شاملا، أيضا ضدّ التحوّلات السياسيّة والاجتماعيّة الأكثر راديكاليّة، التي قد يتخيّلها أيّ إنسان تصبح مجرّد صغائر. ورغم ذلك فلا ينبغي لنا التملّص من مثل تلك التحوّلات إذا كانت الحقيقة تقتضيها، ولكن إن كانت فعلا تقتضيها فهو ما يستوجب البحث بالشكل الأكثر دقّة.

لقد كان عرضنا مستندا إلى فكرة سعى إلى تعليلها بالتفصيل، مفادها أنّ هناك تحوّلا كبيرا للواقع داخل الإنسان يحدث ويدفعه إلى نوع جديد من الحياة، ولا يستطيع خلال محاولة إعادته إلى مجرّد كيان طبيعي، إلاّ أن يرى ردّا فاشلا ومستحيلا في ذات الوقت، فقط ضلالا مفسدا، يهدّد تقدّمه حياتنا بأكبر الخسائر. ولّما كان تصوّرنا للحياة الروحيّة يفصله بشكل أكثر حدّة عن الوجود الإنساني، فإنّه بذلك يستطيع الاعتراف الكامل بالارتباط الوثيق للإنسان بالطبيعة، والصيرورة البطيئة انطلاقا من البدايات الحيوانية، وكذلك بقاء قوى الطبيعة الأوليّة ضمن الثقافة الرفيعة. إنّ حياتنا تتضمّن في الحقيقة أكثر كثيرا من الارتباط والمعطيات العمياء، وأيضا في روحنا تصل الطبيعة إلى بعيد داخلنا أكثر ممّا تقبل الآراء المألوفة. وإضافة إلى ذلك فإنّ حياتنا موعودة بالثراء الأكثر تنوّعا، إذا تمّ إدراك أساسها الطبيعي وتطويره بشكل أفضل، وإذا تواصل النشاط الروحي بذلك في ارتباط وثيق. وبكلّ ذلك تصبح الحياة كلّها قد وقعت رعايتها مع إضافة ملامح طبع خاصّ لها. ولكنّ الكلّ مجتمعا لا يفرض علينا بأيّ حال التخلّي عن عُلْوِيَّةِ الحياة الروحيّة. فهي لا تبني أحقيّتها انطلاقا من مجرّد رؤية المحيط وتأويله، بل بالأحرى انطلاقا من

أنّ حركة التاريخ الكوني في كلّيتها قد ولّدت حياة مشتركة من الداخل، بحيث أنّها تقف في علوّ الأبراج بمضامينها وقيمها فوق رأي الإنسان المجرّد وميوله، في أعمال وصراعات هائلة حصلت باتجاه ذلك التحوّل. أي إنّ الحياة صارت تنبني من الداخل أكثر، وتستند إلى ذاتها بشكل متزايد، وهي كذلك تعالج العالم وفقا لغاياتها وتراه حسب أشكالها. بدون مثل ذلك التحوّل قد لا توجد ثقافة أصلا، ولا أيّ علم أيضا، كمجرّد أجزاء لِبنْيَة الطبيعة وبغير يقظة التفكير المستقلّ لن نسمو أبدا فوق فوضى التصوّرات. إنّ من يدرك الطبيعة في كليّتها ويفكّكها ثمّ يعيد تركيبها، فهو لا يوجد داخلها، بل فوقها. إنّ من لا ينسى، فوق النتيجة المجرّدة، كيفيّة تحقّقها ولا ينسى الإنجاز العقلي، فليس هناك بالنسبة إليه تفنيد أكثر وضوحا للمذهب الطبيعيّ المعادي للروح من حقيقة العلم الطبيعي.

إنّ المذهب الطبيعي لاّ يستطيع أن يمنح لمشروعه المتمثّل في استخلاص الحالة العامّة للحياة الإنسانيّة من الطبيعة، إلاّ نجاحا ظاهريّا، وذلك لأنّه يوجد داخل جوّ مُشْبَع بالمثالية –وهي كلمة نقبلها هنا من باب الاختزال–ويُكْمِل قيمه الخاصّة باستمرار استنادا إليها، يوجّهها إلى هناك، ويجعل منها أكثر بكثير ممّا هي حقيقة. إنّ الفحص الشامل للخلط المألوف، واسترجاع كلّ ما وقع إقراضه للمذهب الطبيعي وحصره بصرامة في مجال قدراته، فهو ما يعني تدميره من الداخل. إنّ الخلط هو الأسوأ في هذه المسائل، بحيث ينطبق، في هذا المقام، حديث فرانسيس بيكون عن أنّ الحقيقة تنبثق من الخطأ أكثر منها

من الخَلْط.[45]

وإذا حصل أنّ المذهب الطبيعي يجتذب ذلك العدد الكبير من المعاصرين وتنتشي به الجماهير بشكل لافت رغم ذلك الضعف الداخلي، فلا بدّ لذلك من أسباب خاصّة وهي موجودة فعلا. ينقص في جانب الروح اليوم وحدة ثابتة وغاية مهيمنة، وما كان ينبغي عليه أن يقود الحياة فهو ذاته يعتريه التباس كبير وانعدام أمان قويّ. وقبل كلّ شيء، فإنّ الانفصال بين الثقافة والدين ينزل بثقله في الميزان، إذ يهدّد الثقافة بالسطحيّة والدين بضيق الأفق والجمود. إنّنا لا نعطي لمفهوم الثقافة مثل ذلك العمق بحيث يشمل الإنسانَ كلّه من الداخل ويطوّر كيانه، ولكن تصبح الثقافة في منظور التصوّر السطحيّ مفهومة غالبا على أنّها مجرّد زيادة للمعرفة، ويُنتظر من التنوير المتعلّق بفهم العالم المحيط بنا حلّ لكلّ المشاكل، والسموّ والنبل بالبشريّة كلّها، وعندها يضيع كلّ عمق وكلّ سرّ الحياة، ويتبخّر كلّ مضمون، ويتضاءل كلّ سند ثابت. فمن المؤكّد أنّه ليس صعبا استنتاج الحياة كلّها من خارجها، وبذلك يكون المذهب الطبيعي هو الذي يكسب السباق. ولكنّه يبقى من الخطأ عموما تأسيس علاقتنا بالواقع على العلم وحده وتجاهل أنّ مجالات أخرى من الحياة مثل الفنّ والأخلاق والدين تتضمّن تجارب أصيلة وتمنح بتشكيلها الخاصّ للحياة أيضا رؤى شاملة خاصّة للواقع. وعندما تلخّص الفلسفة في الختام تلك التجارب والرؤى للكون، فإنّ

---

(45) . ورد ذلك في كتاب "الأرغانون الجديد:"

»Truth emerges more from error thzn from confusion«. Francis Bacon, Novum Organon.

ذلك يكون أمرا مختلفا تماما عن إخضاع الحياة بأكملها للعلم المجرّد ناهيك عن العلم الطبيعي. إنّ تصوّرنا للحياة الروحيّة يفتح المجال أمام صراع قويّ ضدّ مثل ذلك التضييق. فكما أنّه يدرك مشكلا كبيرا في الوجود الإنساني برمّته، حيث ينشد، فوق كلّ تشكّلات الحياة أحادية الجانب والرؤى للعالم، سواء أكانت من جهة الفنّ أم من جهة الدين أم من جهة العلم، بكلّ وعي ثقافة الجوهر في كليّتها. إنّها تمنح أمانا كاملا أيضا ضدّ النزعة الطبيعية، وهي لا تحتاج إلى الوقوع في التضارب مع الدين، ذلك أنّها جديرة بتقدير أهميّة الدين بشكل كامل، دون أن تُخضع له الحياة كلّها ببساطة.

يصحّ ذلك من باب أولى عندما يمكن انطلاقا من قناعتنا الأساسيّة معالجة التباسات الدين التي أشرنا إليها في البداية، باستفاضة. إذ وكما تجعل مثل تلك القناعة التميز بين المحتوى الروحاني لمجال حياة وتملّكه من قبل الإنسان ممكنا، فإنّها تستطيع الدفاع في الوقت ذاته عن المحتوى الروحاني باعتباره أسمى من الزمن وتفهم امتلاكه على أنّه يحصل في الصيرورة وفي النموّ. يسمح ذلك بجدال مفتوح ونزيه للدين مع حالة التاريخ الكوني للحياة الروحيّة وفرز لكلّ ما صار فيها قديما وذاويا، دون أن يفقد الدين استقلاليّته أو يصبح خادما مطيعا لغُثَاء الزمن. مثل هذا الجدال لا مناص منه لفائدة الدين. إذ ومثلما هو الأمر اليوم، فالدين يقع بسهولة في وضع أشباه الحقائق، اختلاطا بين الخاص والغريب، بين الحيّ والمتقادم، وعندما يفرض هذا الوضع الآن من خلال سلطة الدولة أو المجتمع على الفرد، فإنّ ذلك سرعان ما يولّد اضطرابا، بل إحساسا

بالمرارة، وفي ذلك يجد المذهب الطبيعيّ حليفا قويّا. ثمّ إنّ الهجومات الأكثر سطحيّة على الدين تتعاظم أهميّتها عندما يريد الدين إجبارنا على قبول نظريات أو أيضا مشاعر أصبحت غريبة عنّا داخليّا، وعندما يستنفد أفضل قواه في الدفاع عن أفكار لا تستقيم.

ولكنّ المراجعة الضروريّة لوضع الدين قد يترتّب عنها بنقدها وتسليمها ببعض ما أصبح مقبولا بشكل لا يمكن اجتنابه، استنقاصا من الدين، إذا لم يقابل النقد البنّاء في كفّة الميزان، ولكن لمثل ذلك قد تدفعنا حتّى تجارب الحياة المعاصرة، فهي تضع المسألة الدينية من جديد في الصدارة. دائما ما يبدو لنا الإنسان المفصول عن جذوره الروحيّة أصغر في حركات الحاضر، ودائما ما نستشعر الفراغ الداخلي بألم متزايد، بالانعدام التامّ للمعنى لدى ثقافة وجود مجرّدة ستنكشف إذا ما تُرِكَت لذاتها محض كوميديا ثقافية، وسيزداد حدّة باستمرار مطلب تخليص الروح من كلّ ما يضغط عليها ويضيّقها ويقمعها. وسنحتاج دائما بشكل قسري، إزاء تدني الأرضية الهابطة للحياة اليومية، إلى قوى السموّ والنبل. ولكن لا وجود لإمكانيّة مثل ذلك الإنقاذ أو التسامي دون إحياء عالم روحي مستقلّ والاعتراف به باعتباره عمق الواقع. وفي الحقيقة فإنّ الدين هو مجال الحياة الوحيد الذي يوصل ذلك العمق إلى التطوّر في تمامه وصفائه، ولكنّه لا يستطيع ذلك إلاّ عندما ينشئ دائرة حياة مناسبة لذلك وجوّا روحيا خاصّا، ولا يستطيع ذلك بدوره إلاّ ببناء مجموعة مشتركة خاصّة، حتّى في مقابل الدولة التي سيتمّ إدخالها بشكل لا مناص منه أكثر فأكثر في شؤون البشر الزمنية، والتي دون

تهديد للحريّة لا ينبغي عليها أن تأخذ مباشرة تلك المهمّة الأكثر حميميّة. لا ينبغي لكلّ النقائص والأضرار التي لحقت الكنائس اليوم أن تمنعنا من إدراك أنّه بدون جماعة دينية لا وجود لدين مؤثّر وأنّه لا وجود بالنسبة لنا بغير ذلك لتفعيل كامل للحياة الروحية المستقلّة. وكلّما كانت الالتباسات الهائلة للوجود الإنساني أكثر وضوحا أمام العين، إلاّ وقلّ أن يستطيع الدين المبني على المشاعر وحدها أن يكفينا. فلا ينبني أيّ واقع على الأمزجة المجرّدة.

مهما كان ما تولّده مثل هذه الحالة من مهمّات ومساع، فهو ما يحتاج إلى التقاء الثقافة والدين. وحدها الاستهانة بالاعتراضات يمكنها أن تعتقد في إمكانيّة شفاء وضعنا الديني دون تعميق أساسي للثقافة بأكملها، بل فلنقل، بشكل مباشر، دون إصلاح روحي. ولكنّ ذلك الإصلاح الروحي بدوره لا يمكنه إدراك مبتغاه في مسار ناجح دون إعادة إحياء الدين وإعادة تثبيت حالته. وهكذا تتشابك المهمّات فيما بينها بشكل وثيق ويقتضي الأمر العمل لأجل غاية مشتركة من جوانب مختلفة.

إنّ نظرة مباشرة للحاضر تُظهر لنا تمزّقا هائلا وانعدام أمان محرج نظرا إلى أنّ الحركات المختلفة تتنازع الحقّ والحقيقة وتعطّل الواحدة منها الأخرى، بحيث يتوارى كلّ وضع ثابت ويصل الشكّ إلى آخر العناصر. فلم يبلغ الاهتزاز إلى حدّ العمق الذي وصل إليه اليوم، ولم تغب إلى هذا الحدّ غاية مشتركة. ولكنّ مثل انعدام الأمان ذلك ومثل ذلك التمزّق يوصلان الحياة بأكملها حتما إلى سقوط مفاجئ، ويزداد

ضعف القوى بشكل دائم، تلك القوى التي تحرّر الإنسان ممّا هو دنيء وصغير وتمنح حياته مضمونا جديرا بالحياة. إنّها حالة قصوى روحيّة يجب تجاوزها بالضرورة. ولكنّ تحليلنا منحنا القناعة بأنّ ذلك ممكن فعلا، وبيّن لنا أيضا الاتجاه الذي يجب على بحثنا اتباعه. لقد نشأ الالتباس، مثلما رأينا، من أنّ حياة العصر الحديث تنافرت عناصرها تحت تأثير التيّار الهائل من الانطباعات والمهمّات والمحفّزات من أنواع مختلفة في تيّارات متضاربة، ولم تكن مَلَكَةُ التركيز قادرة على مواكبة التوسّع المتضخّم بشكل لا يهدأ وما كان بوسع الحياة الروحية المحافظة على وحدة مهيمنة، وسقطت في اتجاهات وإنجازات مختلفة وقعت في تناقض لا مناص منه فيما بينها. لقد رأينا إذن أنّ الحياة الروحية لا تنفتح بأيّ حال في مثل تلك الاتجاهات الخاصّة، بل إنّها، إذا ما فهمناها على حقيقتها، تحمل باعتبارها كُلاً المهمّة في ذاتها، التي يتعلّق الأمر فقط بإبرازها بقوّة أكثر وتطويرها بشكل أكثر حيوية لكي يتمّ تجاوز الانقسام والقدرة على مواجهة تنافر الحياة. عندما تنفصل الحياة الروحيّة بشكل أكثر حدّة عن الحالة الإنسانيّة البسيطة وتفرض قدراتها المنشئة للواقع بشكل كامل، فهي بذلك تمنح لسعينا نواة ثابتة وكذلك موقعا ثابتا تأتلف انطلاقا منه حركات العصر المختلفة ويتمّ تقييمها حسب الحقّ والخطأ. وإلى مثل ذلك التحوّل لا يكفي التحليل المجرّد، بل هناك إضافة إلى ذلك حاجة إلى فعل نافذ، يجب علينا التركيز على أنفسنا وإيقاظ الحياة الأصيلة، واستعمال كلّ القوى وكلّ طرق التفكير في تلك المهمّة، فقط عندما نتجاوز الخمول الروحي من الداخل ونصنع من

أنفسنا أكثر ممّا هي عليه، يمكن عندها للحياة أن تكسبنا من جديد معنى وقيمة. ويتوقّف الأمر علينا نحن في حدوث ذلك.

إذا لم تخدعنا كلّ الدلائل، فإنّ تطلّبا متصاعدا للعصر يسير في ذلك الاتجاه للتعميق والدعم. إنّ التسليم لسطح الوجود المرئيّ وبناء ثقافة وجود مجرّدة يفقد بوضوح قوّة السحر التي أبهرت بها العالم لوقت من الأوقات. إنّ الفراغ الذي ينبثق عن ذلك صار دائما أقلّ قدرة على التخفي، وسيصبح دوما أوضح أنّ رغبة الإنكار الشائعة التي وجد فيها البعض عَظَمَةً رخيصة، تجبر الإنسان في النهاية على أن ينكر نفسه ويتخلّى عن كلّ ما يمنح حياته قيمة. تظهر في ذات الوقت، مع كلّ اضطرابات الحاضر، بعض الإشارات التي تعلن تحوّلا داخليّا وصعودا جديدا، وكلّما ازداد ذلك ظهورا إلاّ وازداد تقلّص الشكوك في معنى حياتنا وقيمتها، ولكنّ الحاضر يُكسبنا عندها معنى وعظمة خاصّين من خلال ذلك، بحيث أنّه لا يترك لنا بأيّ حال مجرّد مواصلة المألوف، بل هو يدعونا إلى استقلاليّة كاملة وإلى فعل وخلق أصيلين، بحيث يفتح لنا الباب للبحث عن أشكال جديدة لحقيقة أقوى من الزمن وتمنح العمل اليوميّ من خلال ذلك قيمة دائمة. وهكذا فقد يتحوّل عندنا إلى مكسب ما بدا في المنطلق مجرّد خسارة، إلى مكسب من النشاط الذاتي والأصالة.



ثبت المصطلحات المترجمة

لتبرير بعض الاختيارات في الترجمة ومن باب الحرص على توخّي الدقّة، نقترح فهرسا لأهمّ المصطلحات الفلسفيّة المستعملة باللغات العربية والفرنسيّة والانجليزيّة والألمانيّة مع التركيز على المصطلحات الخاصّة بالمؤلّف وبالكتاب (نضع عليها إشارة *).

المصطلح	بالألمانيّة	بالإنجليزية	بالفرنسيّة	ملاحظات
أبيقورية	Epikureismus	Epicureanism	Épicurisme	
انسان مجرّد*	Blosse Mensch			الإنسان المجرّد أو البسيط وكذلك الطبيعة المجرّدة يقصد بها المؤلّف مثلما هو أي في مقابل الحياة الروحيّة
بِنْيَة	Struktur	Structure	Structure	
التباس*	Verwicklung			من معاني هذا المصطلح التداخل

				والتعقيد ولكنّ معنى الالتباس بدا أقرب للمعنى المقصود.
رجوع الإنسان إلى ذاته*	Wendung des Menschen zu sich selbst			هذا مفهوم أساسي عند أويكن ويقصد به تأمل الإنسان لذاته واكتشافه أنّه أكثر من الحياة الطبيعيّة من خلال المستوى الروحي الداخلي.
تصوّر	Vorstellung			
تقنوية	Technizismus	Technicism	Technicisme	
ثقافة مثالية*	Idealkultur			
جمالويّة	Ästhetizismus	Aestheticism	Esthétisme	
حياة روحية*	Geistliches Leben			إنها الحياة اللامرئيّة في مقابل الحياة المرئيّة وهي الحياة الداخلية

				التي تحكم الجسد وتنفتح على الحياة الكليّة وعلى اللانهائي.
داخلي، باطني*	Inner			
روح، نفس، عقل	Geist			حسب السياق تكون الترجمة ولكنّ الغالب هنا هو معنى "الروح"
رؤية الكون	Weltanschauung	Worldview	Vision (conception) du monde	
سريرة، داخل، باطن*	?Innerlichkeit			سريرة (سياق ديني). داخل، باطن (سياق نفسي، معرفي)
سيرورة	Prozess			
شخصيّة	Persönlichkeit			
ظاهراتية (فينومانولوجيا)	Phenomenologie	Phenomenology	Phénoménologie	
عرضيّة*	Zufälligkeit			
كُلّ (الكلّ الشامل)*	Das Ganze			

كيان، جوهر	Wesen			
لا مرئي (عالَم) *	Unsichtbare (Welt)			
لاسلطوية	Anarchismus	Anarchism	Anarchisme	
مُتَعَالٍ (تعالٍ)	Transzendent			نقيض المُحَايِث
مثالية	Idealismus			
مثاليّة محايثة	Immanente Idealismus			
المذهب الطبيعي	Naturalismus			
مرح	Freudig			شاع هذا المفهوم أكثر مع نيتشه في كتابه "العلم المرح". ويستعمل أويكن المفهوم بشكل أكثر توسّعا ليصف به كلّ ما يميّز الحياة الروحيّة تقريبا.
مرئي (عالَم)*	Sichtbare (Welt)			
نسق	System			
واقعية	Realismus			





ينطلق أويْكِن من الحياة باعتبارها مركز تفكيره. وقد لاحظ أنّ الطبيعة لا يمكن أن تكون منطلق الحياة ومنتهاها، مثلما اعتقد بعض معاصريه تحت تأثير الطفرة العلميّة التي تحقّقت في القرن التاسع عشر، ولا سيما نظريّة داروين. ومع أنّ أويكن لم ينكر أهميّة الحياة الطبيعيّة، فهو يعتقد أنّها تشكّل مستوى أدنى من الحياة في حين تمثّل «الحياة الروحيّة» مستوى أعلى وهي تتميّز باستقلاليّتها، أي تحرّرها من الحتميّة التي تخضع لها الطبيعة. وبذلك يتحقّق التوازن، في رأيه، بين اعتبار الحياة جزءًا من الطبيعة، وهو ما يُفْقِدُهَا الحريّة بسبب خضوعها للحتميّة، وبين النزعة الفرديّة التي تضع الفرد وحريّته في أساس كلّ تصوّر، وتخسر الحياة بالتالي حقيقتها الموضوعيّة وثباتها. أي إنّه يقف ضد المذهبين الطبيعي والعقلاني. فكلاهما، حسب رأي أويكن، لا يعترف بالإنسان من حيث كونه شخصا أي فردا حرّا. ويستند المذهب الطبيعي إلى مذاهب الفلسفة الوضعيّة والماديّة التي تلتقي في اعتبار المجتمع والطبيعة خَاضِعَيْن لنفس المبادئ الحتميّة وهو ما يعني أنّ كِلَيْهِمَا موضوع للدراسة العلميّة بنفس المنهج. ولذا فقد اعتبر أويكن مذهبه «مثاليّة جديدة» نشأت في مواجهة تحدّيات مختلفة عن تلك التي ميّزت سياق ظهور المثالية الألمانية السابقة عليه لدى كانط وهيغل وفيشته على سبيل المثال.

telegram @soramnqraa



